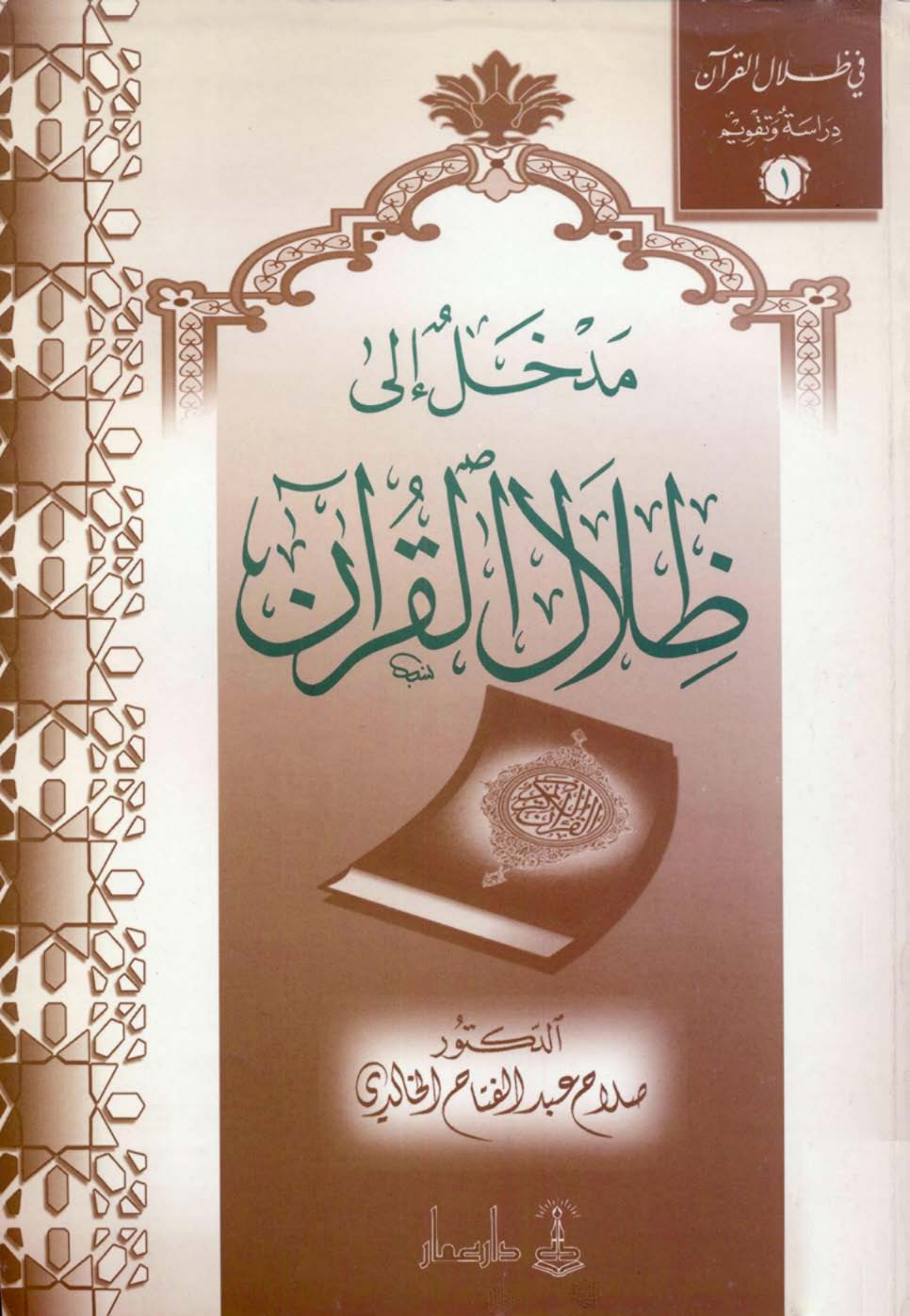

في ظلال القرآن
دراسة وتقويم
١
مدخل إلى
ظلال القرآن
الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي
دار عمار

مدخل إلى

ظلال القرآن

الطبعة الثانية

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٥٨٠/٤/٢٠٠٠)

رقم التصنيف : ٢٢٢,٦

المؤلف ومن هو في حكمه : صلاح عبدالفتاح الخالدي

عنوان الكتاب : مدخل إلى ظلال القرآن

الموضوع الرئيسي : ١- القرآن الكريم - تفسير

بيانات النشر : عمان: دار عمار

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل المكتبة الوطنية.



الأردن - عمان - سوق البتراء - قرب المسجد الحسيني

تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١

في ظلال القرآن
دراسة وتقويم
١

مدخل إلى ظلال القرآن

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار عمار

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فقد مضى على إعداد هذه الدراسة حوالي عشرين سنة، حيث كانت في أصلها رسالة الدكتوراة التي بدأت بإعدادها عام ١٩٨١م-١٤٠١هـ، وكانت بعنوان «في ظلال القرآن دراسة وتقويم» وتمت مناقشة الرسالة عام ١٩٨٤-١٤٠٥هـ، والحمد لله.

ولما أردت طبع الرسالة قسمتها إلى ثلاثة كتب، من باب تسهيل الأمر على القراء، هي: مدخل إلى ظلال القرآن، والمنهج الحركي في ظلال القرآن، وفي ظلال القرآن في الميزان.

وصدرت الطبعة الأولى من هذه الدراسة قبل خمسة عشر عاماً عن دار المنارة للنشر والتوزيع بجدة واستقبلها القراء استقبالاً حسناً ولله الحمد.

ونفدت نسخ الكتب الثلاثة من فترة، وبحث عنها القراء في المكتبات، وراجعني بعض الإخوة يحثونني على إعادة طبعها، وأنا أُسَوِّفُ وأُؤَجِّل.

وهممت أن أجمع الكتب الثلاثة في كتاب واحد، في مجلد أو مجلدين، ثم صرفت النظر عن ذلك، واستقر رأيي على إبقائها على ما هي عليه، ليكون الأمر أيسر على القراء الكرام.

وقد عهدت بهذه الطبعة الثانية إلى دار عمار للنشر والتوزيع في عمان، بعد إجراء مزيد من التنقيح والتصحيح عليها، راجياً من القراء دعوة صالحة، وسائلاً الله حسن القبول، وطالباً منه الأجر والثواب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الإثنين ٢٠/ ١/ ١٤٢١هـ

٢٤/ ٤/ ٢٠٠٠م

د. صلاح عبد الفتاح الخالدي

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

في مساء يوم الثلاثاء بتاريخ ٢١/١/١٤٠٥هـ الموافق ١٦/١٠/١٩٨٤م وبقاعة كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، تمت مناقشة رسالتي التي تقدمت بها للحصول على الدكتوراه في التفسير، بعنوان «في ظلال القرآن: دراسة وتقويم».

وكانت لجنة المناقشة مكونة من أصحاب الفضيلة:

الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات: المشرف على الرسالة. رئيساً.

الأستاذ الشيخ مناع خليل قطان. عضواً.

الأستاذ الدكتور عدنان محمد زرزور. عضواً.

وقد حصلت على الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. ولله الحمد والشكر على فضله وإنعامه وتوفيقه.

هذا. وقد كانت أبواب الرسالة أربعة هي:

الباب الأول: مدخل إلى «ظلال القرآن».
الباب الثاني: منهج سيد قطب في التفسير
الباب الثالث: طريقة سيد قطب في التفسير
الباب الرابع: الظلال في الميزان

كما جاوزت الرسالة ألف ورقة في مجلدين.

ولما فكرت في طباعة الرسالة، أيقنت أنها ـ إن طبعت كما هي ـ فستكون

كتاباً كبير الحجم، وقد يكون هذا صارفاً للقارىء عن شرائه أولاً، ثم قراءته ثانياً.

ورغبة مني في نشر الرسالة، وحرصاً مني على إيصالها للقراء، لذلك فكرت في إصدارها في كتب كحلقات مسلسلة.

ولما نظرت في أبوابها علمت أن هذا أمر ميسور، من حيث الموضوع والمنهج والمخطط.

وأخيراً استقر أمري على إصدارها في ثلاثة كتب:

هذا الكتاب: «مدخل إلى ظلال القرآن» وهو الباب الأول من الرسالة.

ويليه كتابان هما:

«المنهج الحركي في «ظلال القرآن» ويضم البابان الثاني والثالث من الرسالة.

و «في ظلال القرآن في الميزان». وهو الباب الرابع من الرسالة.

وقد سبق أن أصدرت ثلاثة كتب في سلسلة «دراسات حول سيد قطب وفكره» هي: «سيد قطب الشهيد الحي» و «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب» و «أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب»، وهذه الحلقات الجديدة حول كتاب سيد قطب (الظلال) تتمم تلك السلسلة، وتزيد تعريفاً بالرجل العظيم وبفكره.

وأرجو أن أكون قد وفقت في ما قمت به، وأن يكتب الله لي الأجر والثواب، وأن لا ينساني القارىء الكريم من دعوة صالحة بظهر الغيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا فضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه..

أما بعد:

فإن تفسير سيد قطب «في ظلال القرآن» تفسير فريد معاصر لكتاب الله، احتل مكانة بارزة عند المسلمين اليوم، وحظي بمنزلة مرموقة لديهم، وكتب الله له ـ ولباقي دراسات سيد قطب الإسلامية الرصينة ـ الذيوع والانتشار... لقد أراد الله لسيد قطب الشهادة في سبيله، فجاءته تسعى إليه في سجنه.. وأراد الله لفكره الإسلامي الانتشار والاستمرار فكان ما أراده الله.. بينما أراد الجاهليون الحاقدون لهذا الفكر الموت والاندثار، فخاب ظنهم، وفشل مسعاهم، وتعطلت إرادتهم، ورد الله كيدهم إلى نحورهم، وما درى أولئك أنهم ـ بعملهم السابق ـ يقفون في وجه إرادة الله، ويعلنون الحرب عليه.. ومصير من فعل ذلك معلوم...

أخبرنا الأستاذ محمد قطب عن حادثة عجيبة تبين مكر الحاقدين لمحو اسم سيد قطب ووأد فكره.. فقد كان السيد عبد الحميد جودة السحار مشتركاً مع سيد قطب في كتابة سلسلة قصصية للأطفال هي «قصص الأنبياء» وقد نفدت هذه السلسلة من الأسواق، ودعت الحاجة إلى إعادة طباعتها، فذهب السحار إلى «شمس بدران» ليأخذ منه إذناً بإعادة الطبع ـ في الوقت الذي اشتدت فيه المحنة على سيد قطب في السجن، وزاد الحاقدون من مكرهم ضده ـ فوافق بدران على السماح بالطبع على شرط: أن يسقط من كتب السلسلة اسم سيد قطب شريكه في

تأليفها!! فاستغرب السحار من هذا الشرط وقال لبدران: كأنكم حريصون على محو اسم سيد قطب وفكره!! فما كان من بدران إلا أن أجاب قائلاً: نعم! نحن حريصون على ذلك! وجادون في تحقيقه!!.. وفعلوا كل ما يقدرون عليه لتحقيق ذلك المكر الشيطاني.. وننظر نحن الآن - بعد مرور ما يقرب من ثلاثين عاماً على تلك الحادثة - ليزداد يقيننا بتحقيق وعد الله وفشل جهود أعدائه... فاسم سيد قطب ملأ الأسماع مقروناً بالترحم عليه والدعاء، ومؤلفاته غزت الأسواق، وأفكاره دخلت مختلف العقول والأفهام.. واحتل مكانة مرموقة في الفكر الإسلامي المعاصر، اعترف له المحققون المنصفون من خلالها بالريادة لهذا الفكر...

وكان «في ظلال القرآن» في طليعة كتب سيد قطب، ومن أكثرها انتشاراً في الأوساط العلمية والعملية الإسلامية... إننا لا نكاد نرى بيتاً إسلامياً تخلو مكتبته من الظلال، ولا نكاد نجد رجلاً مسلماً أو إمرأة مسلمة إلا وله في الظلال قراءات، ولا نكاد نجد خطيباً أو معلماً أو واعظاً أو محاضراً أو كاتباً إلا ويعود إلى الظلال في إعداد مادته العلمية..

ولعل هذا الأثر الملموس للظلال والمنزلة الأثيرة له نتيجة لصدق سيد قطب في حياته الإسلامية، صدقه في قوله وعمله، وصدقه في فكره وجهده، وصدقه في حركته وجهاده، وصدقه في كلماته وعباراته التي صاغ منها الظلال، وفي أفكاره ومبادئه التي بنى منها الظلال... وجديته وهو يبحث الظلال، عندما كتبه من الميدان العملي الجهادي، وهو يجاهد الجاهلية من حوله.. وأخيراً عندما قدم روحه في سبيل الله، ودفع حياته ثمناً لظلاله، ومهره بدمه الزكي الطاهر.. فكتب الظلال مرتين - كما قال أستاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات -: مرة بمداد العالم، ومرة بدماء الشهيد.. فاكتسب الظلال الحياة والحيوية والتأثير...

ومن خلال ملاحظتي للمعاني السابقة، أحببت أن أقدم للقراء الكرام خدمة تتمثل بدراسة حول الظلال، أعرض فيها معلومات لهم قد لا يقف الكثيرون عليها، وحقائق موضوعية حول الظلال وصاحبه، تثري الثقافة العلمية عندهم، وترد على إشاعات تنطلق ضد الظلال وصاحبه، وتزيل ما علق منها في بعض الأذهان.

وبما أنني تفرغت لبحث حياة سيد قطب ودراسة فكره فترة من الزمن، فإنني

أعتقد أنني أقدر على القيام بهذا العمل بحول الله وقوته ـ فقد سبق أن أصدرت ثلاثة كتب في هذه السلسلة «دراسات حول سيد قطب وفكره». . .

وشعوراً مني بأهمية البحث في «الظلال» ووجوب خدمته، فقد عزمت على تخصيص أربعة كتب من هذه السلسلة للظلال بتقديم مدخل ضروري له، وبيان منهج سيد قطب فيه، والمفتاح الحركي الذي قدمه من خلاله، والحديث عن أهم القضايا التي أثيرت حوله، واستخلاص أهم مزاياه، ثم إعداد الفهارس الشاملة له.

هذا الكتاب الذي أقدمه للقراء الكرام «مدخل إلى ظلال القرآن» هدفت منه إلى تزويدهم بأخبار ومعلومات أراها ضرورية حول الظلال. سواء من الناحية التاريخية أو الموضوعية أو العلمية التفسيرية.

بدأته بتمهيد حول المؤلف والكتاب.

المبحث الأول من التمهيد تحدثت فيه بإيجاز شديد عن سيد قطب، وأحلت على كتابي «سيد قطب الشهيد الحي» للتوسع في ذلك.

والمبحث الثاني: تحدثت فيه عن صلة سيد قطب بالقرآن قبل كتابته للظلال، لبيان قدمها وعمقها ومتانتها وأصالتها.

والمبحث الثالث: تحدثت فيه عن المراحل التي مر بها الظلال، والطبعات التي ظهر بها، وأهم الدراسات التي صدرت حوله.

ثم عرضت مادة الكتاب في سبعة فصول.

الفصل الأول: كتب التفسير في مصر في العصر الحديث. تناولت فيه ـ بإيجاز شديد ـ معظم كتب التفسير التي صدرت في مصر منذ عهد الشيخ محمد عبده، وعقدت هذا الفصل بهدف بيان منزلة «الظلال» كتفسير معاصر بين كتب التفسير المعاصرة، واقتصرت على مصر فقط ـ مع أن الظلال للمسلمين في العالم الإسلامي وغيره ـ لأني لم أقصد الحصر والاستقصاء في ذلك، فأبرزت التفاسير في القطر الذي عاش فيه صاحب الظلال، والبلد الذي ظهر فيه الظلال. . كما لم أتوسع بالحديث والنقد والدراسة لهذه التفاسير، لأن هذا لم يكن هدفي في الفصل، ولا يتفق مع موضوع هذا الكتاب.

الفصل الثاني: في ظلال القرآن: لماذا هذا العنوان؟ أحببت أن أبين للقراء

الصلة الوثيقة بين العنوان الذي اختاره سيد قطب لتفسيره، وبين نظريته حول التصوير الفني في القرآن، وحول رأيه في الصور والظلال في العمل الأدبي، الذي يزيد فيه على رأي السابقين حول اعتبار الألفاظ أو المعاني أو هما معاً في العمل الأدبي، حيث يعتبرهما معاً ويضيف إليهما «الصور» التي تطلقها الألفاظ والعبارات، والظلال التي تخلعها الألفاظ والعبارات، والإيقاعات التي تصاحب هذه الصور والظلال. . . ومن ثم يظهر معنى العنوان الذي اختاره سيد قطب، وما يريد أن يقوله لنا من خلاله، وأنه كان يعني ذلك ويقصده عن اختيار وإدراك. . وأنه يحمل ما يحمل من دلالات في موضوعه. . .

فلا معنى لأن يفهم منه بعض من لا يعرفون أنه يدل على أن موضوعه ليس تفسيراً، وأنه «بث» مجموعة من الخواطر والمشاعر والانفعالات والأحاسيس، التي شعر بها سيد قطب وهو «ينَعِّم» نفسه، و«يعمق» شاعريته من حياته في ظلال القرآن. . إن هذا الفهم المغلوط يسيء فهم هذا العنوان، و«توظيفه» والاستشهاد به على ما في نفوس هؤلاء!!!.

الفصل الثالث: أهداف الظلال:

سجلت فيه أهم الأهداف التي أراد سيد قطب تحقيقها من خلال الظلال، وقد استخلصت هذه الأهداف من الظلال، واستشهدت لكل منها بكلام لسيد فيه. . وإنني أعتقد أن استخلاص أهداف أي مفسر من تفسيره وتسجيلها ضروري لكل باحث في التفاسير، وراغب في التعرف على مناهج المفسرين. . واستخراج هذه الأهداف من التفسير ليس بالأمر الشاق أو العسير. . .

وظهر من خلال هذا الفصل أن سيد قطب كان داعية جاداً منهجياً موضوعياً، ورائداً مجاهداً وهو يكتب الظلال، وأن الظلال لم يكتب من فراغ ولا من أجل ملء وقت الفراغ. . .

الفصل الرابع: موارد الظلال:

عرفت فيه على موارد الظلال ومصادره في مختلف الموضوعات. . للوقوف على توفر الموضوعية والعلمية والمنهجية فيه. . وتحقق الأصالة العلمية في أفكاره وقضاياه.

ووجدت أن الظلال توفرت له موارد ومصادر أساسية في مختلف الموضوعات: فمصادر مادة التفسير زادت على عشرة، ومصادر سادة السيرة خمسة... وهكذا.. وظهر لنا من خلال هذا الفصل بطلان الإشاعة التي تعتبر الظلال كلاماً أدبياً عاطفياً.

إن البعض يظن أن سيد قطب لم يرجع إلا إلى تفسير القرآن العظيم لابن كثير في مادته التفسيرية، وقد ردد ذلك ـ أمامي ـ بعض من لهم صلة بالعلم الشرعي والبحث فيه، فاستغربت كيف تغيب عن هؤلاء ـ وغيرهم ـ هذه الحقيقة المنهجية التي تسهل ملاحظتها لدى تصفح الظلال، ورؤية المصادر التفسيرية التي أخذ منها سيد قطب وذكرها فيه.

وأشرت في هذا الفصل إلى أهم العلماء المعاصرين الذين أخذ سيد قطب منهم من أمثال: الشيخ محمد رشيد رضا، والإمام الشهيد حسن البنا وجماعة الأخوان المسلمين، و«المسلم العظيم» أبو الأعلى الودودي ـ حسب وصفه هو له بذلك ـ.

الفصل الخامس: وسائل سيد قطب في الظلال:

وهذا الفصل متم للفصل السابق. حيث كانت لسيد وسائل في الاعتماد على الموارد والأخذ منها، وفي صياغة الظلال، وتسجيل أفكاره وآرائه فيه، وفي استخراج الدلالات والعبر والحقائق من الآيات..

فقد عرَّفت بأهم تلك الوسائل، واستشهدت بكلام سيد في الظلال حول كل منها. ومن أهم الوسائل المذكورة في هذا الفصل: ثقافته العريضة المنوعة الشاملة، ووقفته المتأملة الفاحصة المتخيلة للنصوص، وحسّه الإسلامي المرهف، وتجربته العملية الناضجة، وأسلوبه الأدبي البليغ، ومعرفته بحاضر العالم المعاصر، وأخباره الشخصية، ونظريته حول التصوير الفني في القرآن...

الفصل السادس: الظلال نقلة بعيدة في التفسير:

وقفت فيه وقفة مطولة أبين منزلة الظلال بين كتب التفسير، وناقشت فيه من يزعم أنه ليس تفسيراً، وأثبت بالأدلة الموضوعية الكثيرة أنه تفسير، وأنه لون جديد في التفسير، وأنه نقلة بعيدة في التفسير، وأنه يعتبر مدرسة جديدة في التفسير ـ

هي مدرسة التفسير الحركي - وأنه لا يغني عنه أي تفسير... وأنه تحققت فيه الشروط المأمولة لتفسير خاص يلبي حاجات الناس في هذا العصر... ثم أبرزت أهم الأمور التي يعتبر بها الظلال نقلة بعيدة في التفسير، وأوردت أدلة من الظلال يعتبر سيد ظلاله تفسيراً للقرآن... ثم اخترت آيات من سورة الأنعام، وقارنت بين أربعة مفسرين في تفسيرها، وهم السادة الأعلام: الطبري والزمخشري ورشيد رضا وسيد قطب...

ولعلي نجحت - من خلال هذا الفصل - في دحض بعض الآراء الباطلة حول الظلال من هذه الناحية، والرد على بعض الإشاعات التي يرددها بعضهم - من أسرى مدارس معينة في التفسير، أو أصحاب أفق ضيق وبحث مبتـر ناقص - من عدم اعتبار الظلال تفسيراً للقرآن، لأن صاحبه لا يعرض المأثور كالطبري ولا البلاغة كالزمخشري ولا النحو كأبي حيان ولا الفقه كالقرطبي... ولا أدري كيف يجهل هؤلاء أساسيات وحقائق بدهية في هـذا الموضـوع، وكيف «يُنَصِّبون» أنفسهم - مع ذلك - حكاماً على التفاسير وقضاة على أصحابها!...

الفصل السابع: الفروق المنهجية بين طبعتي الظلال:

لاحظت فيه أبرز مظاهر التطور في فكر سيد قطب بين طبعتي الظلال الأولى والمنقحة، وسجلت فيه أهم الفروق بينهما مع الاستدلال لها بكلام سيد نفسه، وإيراد نماذج من الظلال على ذلك... وكانت الفروق التي أوردتها تسعة، برزت من خلالها أبرز مزايا الطبعة المنقحة، باعتبارها ممثلة لخلاصـة أفكار سيـد المتطورة حول التفسير والدعوة والحركة...

ثم كانت خاتمة الكتاب التي سجلت فيها أهم النتائج التي خرجت بها منه، وضعتها بين أيدي القراء كخلاصة نافعة جامعة...

فهذا هو الكتاب بين يديك أيها القارىء الكريم، راجياً منك أن لا تضن عليّ بأية ملاحظة بالتنبيه إلى النقص أو الخطأ أو التقصير، لأنتفع منها في طبعة لاحقة، ولك مني جزيل الشكر ووافر الامتنان.. كما أرجو أن تكرمني بدعوة صالحة منك بظهر الغيب.

وفي الختام أتوجه إلى الله بالحمد والشكر على خيره وإنعامه، راجياً أن

يتقبل مني أعمالي بقبول حسن، وأن ينفع بها... والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٧/٣/١٤٠٥
١/١٢/١٩٨٤

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

تمهيد:
المؤلّف والكتاب

المبحث الأول

سيّد قطب في سطور

هو سيد قطب إبراهيم حسين شاذلي، ولد في قرية «موشة» إحدى قرى محافظة أسيوط في صعيد مصر. وكانت ولادته في ٩ تشرين أول «أكتوبر» عام ١٩٠٦[١].

قدم جده السادس «الفقير عبد الله» من الهند إلى مكة لإداء الحج، وبعد أدائه نسكه غادرها إلى صعيد مصر... وهناك أعجب بقرية «موشة» ومناظرها وبساتينها وخيراتها، فأقام بها، ومن ذريته كان سيد قطب عليه رحمة الله[٢].

نشأ سيد قطب في بيئة إسلامية، حيث قضى أيام طفولته في أحضان أسرة مؤمنة، ونما وترعرع وسط إخوة كرام.

كان والده رجلاً مؤمناً تقياً، يحرص على أداء واجبات الدين، ويسارع إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى، ويبتعد عن كل ما يؤدي إلى سخطه وعقابه......... كما كان يتمتع بمركز اجتماعي مرموق في القرية ينظر إليه أهلها بإعزاز وتكريم، ويؤمون داره لمعالجة قضاياهم، وحل مشكلاتهم.... وقد عمَّر والده طويلاً، ثم لقي ربه وابنه سيد يواصل دراسته في القاهرة.

(١) مجلة المسلمون. عدد: ١١ تاريخ ١٣ ربيع الأول ١٤٠٢ وفق ١٩٨٢/١/١٨ صفحة: ١٢.
(٢) سيد قطب الشهيد الحي لصلاح الخالدي: ٥١.

وكانت والدته امرأة صالحة عابدة، تحرص على فعل الخير والعطف على المساكين والمحتاجين، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال. . . . وقد ساعدت زوجها على تربية الأولاد تربية إسلامية، وغرس قيم الدين ومبادئه في قلوبهم، غرست فيهم أنبل الصفات مثل الصدق والإخلاص، والطهر والعفاف، والعزة والكرامة، فنشأوا ـ وفي طليعتهم سيد ـ على هذه المعاني التي لم تفارقهم طيلة حياتهم، وقد امتد بها العمر، حيث رأت ابنها سيد وهو يعيش حياته الأدبية والوظيفية، وعاشت معه ـ في القاهرة ـ فترة من الوقت. ثم انتقلت إلى رحمة الله، وفاضت روحها إلى بارئها عام ١٩٤٠ م[١].

عاش سيد قطب وسط أربعة أشقاء هو خامسهم وهم:

نفيسة: وتكبر سيد بثلاثة أعوام، وليس لها مشاركة في الأعمال الأدبية والفكرية كباقي أشقائها. . . لكنها شاركت في الحياة الإسلامية، وقدمت فلذة كبدها (رفعت) شهيداً في سبيل الله.

أمينة: نشأت نشأة إسلامية، وشاركت في الأعمال الأدبية، وكانت تكتب في الفنون الأدبية ـ وبخاصة فن القصة الذي كانت أكثر إجادة له ـ من منطلق إيماني، وتصوغها وفق التصور الإسلامي. ولها كتابان مطبوعان ضم كل منهما مجموعة من الأقاصيص. وهما (في تيار الحياة) و(في الطريق). وقد تزوجت السيد محمد كمال الدين السنانيري عام ١٩٧٣، الذي لقي ربه شهيداً في سجون الطغاة في مصر في الثامن من نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٨١[٢].

محمد: وهو الابن الثاني ـ الذي عاش ـ لهذه العائلة، وكان يصغر سيد بحوالي ثلاثة عشر عاماً، حيث كانت ولادته في أبريل (نيسان) سنة ١٩١٩ م. وقد تخرج من جامعة القاهرة، ومعه شهادة الليسانس في الأدب

---

(١) انظر مباحث «قرية سيد قطب» وأسرته ووالده، وأمه، ونشأته، وتربيته في كتابنا «سيد قطب الشهيد الحي».

(٢) مجلة (المجتمع) الكويتية. عدد: ٥٥١ تاريخ ٧ نوفمبر ١٩٨١ صفحة: ٢٣.

الانجليزي مع دبلوم في التربية. وشارك ـ في مطلع حياته الأدبية ـ بأعمال أدبية مثل القصيدة والمقالة والخاطرة والأقصوصة. ثم اتجه إلى عالم الإسلام الرحيب، فساهم فيه فكراً وسلوكاً، وعملاً وتأليفاً، وحركة وتوجيهاً. وأصدر عدة بحوث ودراسات إسلامية بلغت ـ حتى الآن ـ اثني عشر كتاباً، بالإضافة إلى عدد آخر ما زال تحت الطبع أو قيد التحرير.

حميدة: هي المولودة الأخيرة لهذه العائلة، نشأت كباقي إخوتها، وشاركتهم في أعمال أدبية، نشرت قسماً منها في كتابهم المشترك (الأطياف الأربعة). ثم تعرفت بواسطة أخويها على الطريق العملي لخدمة الإسلام، والدعوة إليه، والحركة به، وخاضت تجربة عملية جهادية في مواجهة الجاهلية، فقضت فترة من عمرها في سجون الطغاة ـ كباقي إخوتها ـ حيث حكموا عليها عام ١٩٦٥ بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة، قضت منها ست سنوات وأربعة أشهر. وبعد خروجها من السجن تزوجت الدكتور حمدي مسعود[١].

وقد كان لسيد شقيق ـ ولد قبل محمد ـ ولكنه توفي قبل أن يبلغ سنتين، كما كان له شقيقة أخرى ـ أكبر من أمينة ـ توفيت في ربيع عمرها[٢].

تلقى سيد قطب دراسته الأولية في القرية، حيث أنهى في مدرستها المرحلة الابتدائية. كما أتم في قريته حفظ القرآن الكريم وهو في سن مبكرة حيث كان لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره. وقد كان للقرآن الكريم أثر كبير في نمو مواهبه الأدبية والجمالية في وقت مبكر[٣].

وبعد القضاء على ثورة الشعب المصري عام ١٩١٩ ضد الاحتلال الانجليزي، رحل سيد قطب من قريته إلى القاهرة لمواصلة تعليمه فيها.

وفي القاهرة نزل عند خاله الأزهري الصحفي (أحمد حسين عثمان)،

---

(١) المرجع السابق: ٢٤.
(٢) انظر مبحث (إخوته) من كتاب (سيد قطب ـ الشهيد الحي): ٦٢ ـ ٦٨.
(٣) المرجع السابق مبحث (دراسته في القرية): ٨٠ ـ ٨٧.

وبواسطته تعرف على الأديب الكبير عباس محمود العقاد، الذي فتح له أبواب مكتبته الضخمة، فراح سيد يغترف منها بنهَم، ويستفيد من أفكار صاحبها وآرائه في الأدب والنقد والحياة. وعن طريق العقاد تعرف سيد على حزب الوفد، وانخرط في صفوفه، وصار وفدياً ملتزماً وحزبياً نشيطاً.

فتحت له صحافة الحزب صفحاتها، فمارس بواسطتها مواهبه الأدبية والفكرية والسياسية والاجتماعية. وصار ينشر فيها قصائده الشعرية، ومقالاته الأدبية، وتحليلاته السياسية، وآراءه الفنية، ويوجه من على منابرها معاركه الأدبية والنقدية. وكان أول اتصال له بالصحافة عام ١٩٢١ م، وأول مقال نشره حول (طرق التدريس) في صحيفة (البلاغ) الوفدية اليومية[١].

انتظم سيد قطب عام ١٩٣٠ م طالباً في كلية دار العلوم ـ بعد حصوله على الثانوية من تجهيزية دار العلوم ـ وتخرج من الكلية عام ١٩٣٣ حاصلاً على شهادة الليسانس في الآداب مع دبلوم في التربية.

كان له ـ وهو طالب بالكلية ـ نشاط أدبي وسياسي وفكري ملحوظ حيث كان يدير حلقات النقد الأدبي، ويقود المعارك الأدبية، ويصطفي مجموعة من خلانه الأدباء الشبان، وينشر قصائده ومقالاته في الصحف والمجلات، ويلقي محاضراته النقدية من على منبر الكلية، يقدمه فيها أساتذته، ويرفع إلى إدارة الكلية تقاريره التي ضمنها آراءه في مناهج التدريس، واقتراحاته للنهوض بها إلى المستوى الذي يراه[٢].

التحق ـ بعد تخرجه من الكلية ـ بوظيفة في وزارة المعارف، حيث عمل مدرساً في مدارسها ست سنوات: سنة في بني سويف، وأخرى في دمياط، وسنتين في القاهرة، والسنتان الأخيرتان في مدرسة حلوان الابتدائية، في ضاحية حلوان، وهي الضاحية التي استقرّ فيها مع إخوته فيما بعد.

انتقل بعد التدريس موظفاً إدارياً في وزارة المعارف، حيث عمل في

---

(١) المرجع السابق مبحث (.. في الصحف والمجلات): ١١٠ ـ ١١٩.

(٢) المرجع السابق مبحث (دراسته في دار العلوم): ٨٨ ـ ٩٣.

التفتيش فترة من الوقت، ثم في مراقبة الثقافة العامة، التي استمر فيها ثماني سنوات إلى أن أوفدته الوزارة في بعثة علمية إلى أمريكا عام ١٩٤٨. وكان في الوزارة موظفاً نشيطاً، ومفكراً جريئاً، وأبياً عزيزاً. وقد جرَّت عليه هذه الصفات كثيراً من المضايقات والمتاعب، آثر بعدها أن يتخلى عن الوظيفة، فقدَّم استقالته بعد عودته من أمريكا، وتفرغ للدعوة والحركة، والبحث والتأليف[١].

في الثلاثينيات كانت اهتماماته أدبية نقدية، ونظراته فلسفية عميقة، وقصائده وجدانية عاطفية، ومقالاته انتقادية حادة. وكان ينشرها في مجلتي (الرسالة) و(الثقافة) بصورة أساسية، وفي غيرهما من الصحف الأدبية والسياسية. وقاد على صفحاتها معارك أدبية حامية، مثل معركته ضد (جماعة أبوللو). في مجلة (الأسبوع) ومعركته ضد (الرافعي والرافعيين) في مجلة (الرسالة) ومعركته ضد الدكتور (محمد مندور) وضد (صلاح ذهني) في الرسالة أيضاً[٢].

كان سيد قطب تلميذاً أدبياً لعباس العقاد، يعلن هذا ويجهر به بصراحة، وقد استمر تلميذاً مخلصاً، وعضواً فعّالاً في مدرسته الأدبية والفكرية فترة ليست يسيرة... إلى أن صار يبتعد عن مدرسته ـ لأسباب أدبية وفكرية وعلمية ـ تدريجياً، حيث خرج منها بعد منتصف الأربعينيات ليكوِّن له مدرسة خاصة في الأدب والنقد والفكر والحياة... مدرسة هو رائدها الأصيل. إلا أنه لم يُكتب لها الاستمرار فيها، لأنه تخلى عنها نظراً لتغير اهتماماته!!![٣].

في أواسط الأربعينيات أقبل سيد قطب على القرآن الكريم، يدرسه دراسة أدبية ويتذوقه تذوقاً جمالياً، وخرج على الناس بفكرته المتفردة عن (التصوير الفني في القرآن). ثم أقبل عليه بعد ذلك يدرسه دراسة فكرية،

---

(١) المرجع السابق مبحث (سيد قطب في وزارة المعارف): ٩٤ ـ ٩٨.
(٢) المرجع السابق: ١١٦ ـ ١١٧.
(٣) المرجع السابق: مبحث (سيد قطب مع العقاد): ٩٩ ـ ١١٠.

وخرج بفكرته عن (العدالة الاجتماعية في الإسلام) التي تحول بعدها عن الأدب والنقد والشعر والقصة، إلى الفكر الإسلامي والعمل الإسلامي، والدعوة إلى الإصلاح ومحاربة الفساد من منطلق إسلامي. فصار يحارب - بجرأة وقوة - مظاهر الفساد السياسي والاجتماعي، ويوجه اتهاماته إلى عصابات الفساد والإفساد[1].

وكان لا بدّ أن تصيب اتهاماته - أول ما تصيب - الملك ورجال حاشيته، وكبار المسؤولين في الدولة، فضاقوا به وبمقالاته، وأرسلوه إلى أمريكا في مهمة علمية لتفقد مناهج التعليم ووسائله هناك - في الظاهر -، ولهدف مزدوج - في الحقيقة - حيث قصدوا إلى التخلص منه أولاً، وإلى إفساده وإغوائه هناك، ليعود تلميذاً لأمريكا، مطبوعاً بحضارتها، وداعياً إلى الاقتداء بها في ممارسة الحياة، وموجِّهاً مناهج التعليم ووسائله وفق مناهجها ووسائلها. . .

ولكنه - بتوفيق الله ورعايته - خيب ظن هؤلاء المخططين والماكرين. فاستعلى هناك بإيمانه، وتمسك بدينه. وصار يحلل أمريكا وحضارتها ومناهجها، ويكشف عن فسادها وانحلالها، ويدرس بُنْيتها ومجتمعها، من منطلق إسلامي خالص، ووفق التصور الإسلامي المستقيم!

عاد من هناك أكثر تمسكاً باسلامه، وأعمق إيماناً بصلاحيته ووجوب التزامه. فصار مسلماً عاملاً مجاهداً، وانخرط في صفوف الحركة الإسلامية، جندياً في (جماعة الاخوان المسلمين) التي ربط مصيره بمصيرها، وأخلص لمبادئها الإسلامية طيلة حياته[2].

قلنا إن سيد قطب كان في مطلع حياته السياسية منتمياً لحزب الوفد، وبقي مع الحزب حتى عام ١٩٤٢، حيث تخلى عنه - لوضوح عمالته لإنجلترا - عندما شكّل رئيسه مصطفى النحاس الوزارة المصرية، بعدما

---

(١) المرجع السابق: ١٣٣.

(٢) أنظر مبحث (سيد قطب مع جماعة الأخوان المسلمين).

حطمت الدبابات البريطانية أبواب قصر الملك في عابدين، وتقدم السفير الانجليزي بإنذار شديد اللهجة إلى الملك، يطلب منه فيه أن يكلف النحاس بتشكيل وزارة وفدية.

وبعدما تخلى عن حزب الوفد انضم إلى حزب السعديين، وبقي فيه حوالي سنتين، ثم تخلى عنه. وهجر الأحزاب السياسية نهائياً[1].

ولما انتظم مع (جماعة الاخوان المسلمين) صار عضواً عاملاً فيها، يشارك بنشاطاتها بفعالية وتأثير، ويكتب مقالات إسلامية جرئية في الصحف والمجلات، ويعد البحوث والدراسات الإسلامية الرصينة.

وبعدما رُفع الحظر عن الجماعة، وعادت إلى ممارسة نشاطها العلني، وانتخبت لها قيادة جديدة؛ صار سيد قطب عضواً في مكتب الإرشاد العام ورئيساً لقسم نشر الدعوة فيه.

اشترك سيد قطب في التخطيط للثورة، وشارك بفعالية وتأثير في التمهيد لها وكان قادتها ـ وعلى رأسهم جمال عبد الناصر ـ يأتون إلى منزله في حلوان يرسمون الخطط لنجاحها. وقد أصدر توجيهاته إلى الاخوان المسلمين ـ مدنيين وعسكريين ـ أن يكونوا ظهيراً لها[2].

ولما نجحت الثورة، كان سيد قطب موضع احترام وإكبار رجالها جميعاً، فكان هو المدني الوحيد الذي يحضر جلسات مجلس قيادة الثورة أحياناً، وكمظهر من مظاهر تكريم رجال الثورة له، أقاموا احتفالاً خاصاً للإشادة به، وبيان مناقبه، وقد تحدث في هذا الاحتفال كبار قادة الثورة وعلى رأسهم جمال عبد الناصر وأنور السادات[3].

عرض عليه رجال الثورة حقائب وزارية، ومناصب رفيعة، لكنه رفض

---

(١) المرجع السابق: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) المرجع السابق: ١٤٠.

(٣) أنظر تفاصيل ما جرى في هذا الاحتفال في كتابنا (سيد قطب الشهيد الحي): ١٤٠ ـ ١٤١.

معظمها، وقد عمل فترة من الوقت قصيرة كمستشار لمجلس قيادة الثورة للشؤون الثقافية، ثم سكرتيراً لهيئة التحرير[1].

قام سيد قطب عام ١٩٥٣ بزيارات علمية ودعوية خارج مصر. منها زيارته إلى دمشق للاشتراك في مؤتمر الدراسات الاجتماعية، ومنها زيارته إلى القدس للاشتراك في المؤتمر الإسلامي الذي دعت إليه جماعة الاخوان المسلمين[1].

ولما اصطدم الاخوان مع حكومة الثورة في المرة الأولى في مطلع عام ١٩٥٤، كان سيد قطب في مقدمة الاخوان المعتقلين. وبعدما نفذت مسرحية حادث (المنشية) في الاسكندرية، التي اتهم فيها الاخوان بمحاولة اغتيال عبد الناصر، والذي أدى إلى اعتقال عشرات الألوف من الاخوان، كان سيد قطب في مقدمة المعتقلين كذلك، وقد لقي - هو وإخوانه - في السجون من أصناف التعذيب الوحشي ما تقشعر له - بمجرد سماعه - الأبدان.

أصدرت عليه (محكمة الثورة) حكماً بالسجن خمسة عشر عاماً، ونُقل إلى سجن (ليمان طُرَّهْ) ليقضي فيه مدة العقوبة، ولما ساءت حالته الصحية نقلوه إلى مستشفى السجن، وهناك هيأ الله له وسائل الكتابة والنشر، فأصدر - منه - عدداً من بحوثه الإسلامية الحركية الناضجة، التي اعتبر بها رائد الفكر الإسلامي المعاصر.

وبعد أن قضى هناك عشر سنوات، وفي عام ١٩٦٤، زار مصر الرئيس العراقي عبد السلام عارف، وبذل جهوده لدى الرئيس عبد الناصر من أجل إطلاق سراحه، وخرج سيد قطب من السجن، ليعود إليه بعد فترة وجيزة بتهمة جديدة!!.

كان ذلك في عام ١٩٦٥، إذ أعلن عبد الناصر - من موسكو - اكتشاف مؤامرة دبرها الاخوان المسلمون بقيادة سيد قطب، لإسقاط حكمه وتخريب البلد! ونشطت أجهزة الدولة البوليسية في إلقاء القبض على الاخوان

---

(١) المرجع السابق: ١٤٣ - ١٤٤.

المسلمين وأصدقائهم ومعارفهم وأقاربهم. وكان سيد قطب في مقدمة المعتقلين!

وبعد تعذيب رهيب لا يحتمله بشر عادي، أصدرت (محكمة الثورة) حكمها بالإعدام شنقاً على سيد قطب، وعلى اثنين من قادة الحركة الإسلامية في مصر، وهما (عبد الفتاح إسماعيل) و(محمد يوسف هواش).

وبذلت السلطات الحاكمة محاولات جاهدة يائسة للحصول من سيد قطب على موقف تراجع، أو كلمة اعتذار، أو عبارة اعتراف بما نسب إليه، أو صيغة تأييد لها في حكمها. وعرضوا عليه مغريات مادية كثيرة، وساوموه مساومات عديدة، منّوْه أن يعطوه كل ما يريد من متع دنياهم[1]... ولكنه استعلى على هذه المغريات بإيمانه، وثبت على طريقه بتثبيت الله سبحانه وتعالى. وترك لهم دنياهم ومغرياتها، وآثر أن يذهب إلى ربه شهيداً عزيزاً كريماً. إختار الدار الآخرة الباقية على الدنيا الفانية.

وأطلق عبارات تقطر عزة وكرامة، وإيماناً ويقيناً، وثباتاً واستعلاءً. منها قوله: (إن حُكمتُ بحق فأنا أرضى حكم الحق، وإن حكمت بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل). وقوله: (إن أصبع السبابة الذي يدين لله بالوحدانية في الصلاة، ليرفض أن يكتب حرفاً يقرُّ به حكم طاغية) وقوله: (إن الأعمار بيد الله، وهم لا يستطيعون التحكم في حياتي..)[2].

وأمام ضغط المظاهرات الصاخبة التي انطلقت في العالم الإسلامي، تستنكر هذا الحكم الجائر الغشوم، وأمام جهود الوساطة التي قام بها بعض قادة العالم الإسلامي للتخفيف من الحكم، أوعز عبد الناصر إلى رجاله في السجن الحربي بضرورة الإسراع في تنفيذ الحكم في سيد قطب وإخوته..

كان عمر سيد قطب الذي بلغه، يحول ـ بنص القانون ـ بينه وبين

(١) للوقوف على نماذج من هذه المساومات والإغراءات أنظر كتاب (أيام من حياتي) لزينب الغزالي: ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٢) سيد قطب الشهيد الحي: ١٥٤.

الإعدام، لأن القانون ينص على أن من (يزيد عمره عن ستين سنة يخفف عنه حكم الإعدام إلى المؤبد. ولكن المسألة ليست مسألة قوانين).

كذلك كانت لوائح السجون تقضي بوجوب (وزن المحكوم عليه بالإعدام، وقياس نبضه وضغطه، وإخطار أهله، وإتاحة الفرصة له لكتابة وصيته، وتحقيق شهواته من الدنيا... كل هذه الإجراءات لم تتم، لأن المسألة مسألة عصابة تريد أن تتخلص من رجال)[1].

وفي مساء يوم الأحد ١٩٦٦/٨/٢٨ الموافق ١٢ جمادي الثانية ١٣٨٦ هـ وبعد صدور أحكام الإعدام بأسبوع واحد.. تلقى جميع رؤساء التحرير في الصحف مكالمة تلفونية من مكتب سامي شرف سكرتير الرئيس عبد الناصر للمعلومات... وأملى عليهم خبراً لنشره في الصفحة الأولى بالصحف التي تصدر صباح الاثنين ٢٩ أغسطس...... وكان نص الخبر: تم صباح اليوم تنفيذ حكم الإعدام في كل من: سيد قطب وعبد الفتاح إسماعيل ومحمد يوسف هواش...).

وقد حاول الصحفي سامي جوهر أن يحضر تنفيذ الحكم ـ وكان القانون يسمح للصحفيين والمصورين بحضور تنفيذ أحكام الإعدام ـ دون جدوى. وروى لنا اللحظات الأخيرة قبيل تنفيذ الحكم وأثناءه قائلاً: (وأيقنت أن الإعدام سيتم تنفيذه قبل الصباح في الفجر.. رغم أن العادة جرت أن يتم الإعدام في الثامنة صباحاً.. وتنفيذ الإعدام في الفجر شيء لم يحدث أبداً من قبل..)[2] وتوجهت إلى مبنى سجن الاستئناف حيث تتم دائماً عمليات الإعدام... وفوجئت بفرقة من الصاعقة تحيط بمبنى السجن (!!) والأنوار الكاشفة مسلطة عليه، بينما كل ميدان (باب الخلق) يسبح في الظلام (!!).

وطرقت باب السجن.. وكان معيُ الزميل المصور (عبده خليل)..

---

(١) لماذا اغتيل الإمام الشهيد حسن البنا لعبد المتعال الجبري: ١٩٩.

(٢) حدث الإعدام قبل الفجر مرة واحدة من قبل: عندما نفذ الحكم في ستة من شهداء الاخوان المسلمين في مصر عام ١٩٥٥ حيث أعدم أولهم في الثانية صباحاً وأعدم السادس في الرابعة والنصف.

وفتح حارس البوابة (الكوة) الضيقة، وطلبت منه إبلاغ ممثل النيابة رغبتي في حضور التنفيذ. . . وترك الحارس (الكوة) مفتوحة. . ومن خلالها رأيت مجموعة من جنود الصاعقة مصطفين في الفناء يحملون الرشاشات. . وعاد الحارس بعد دقائق وأغلق (الكوة) ولم يجبني على طلبي . . وساد صمت رهيب. . .

وفي تمام الساعة الرابعة والثلث صباحاً. . فتح باب السجن، وخرجت سيارة سوداء مخصصة لنقل الموتى إلى المشرحة. . واندفعتْ في طريق المقابر بالإمام الشافعي. يتبعها ويسبقها مجموعة من سيارات اللاسلكي وراكبي الموتوسيكلات. . . وقبل أن يغلق الباب خرج شاب طويل القامة وسأل عني وتقدمت إليه. . . وقال بكل رقة: (حضرتك كنت عايز تحضر الإعدام. . . يا خسارة لم يبلغوني برغبتك إلا الآن فقط. . خلاص كل حاجة تمُت. . . والعربية خدت الجثث لدفنهم. . .)[1].

. . وهكذا. . تنفس الصبح على منظر الأبطال الثلاثة، وقد علقت أجسادهم بحبل المشنقة، بينما حلقت أرواحهم في سماء العلياء. . ونزلت ملائكة السماء لاصطحاب هذه الأرواح الطاهرة في رحلتها إلى عالم الخلود. . واصطف المؤمنون والشهداء لتحية هذا الموكب الكريم. . . وتزينت الحور العين لاستقبال أزواجها. . وأُزلفت الجنات للوافدين الجدد.

وأُسدل الستار على آخر مشهد من حياة الرائد الشهيد في هذه الدنيا الفانية. . وبدأ عند ربه حياته الحقيقية في جنات الخلود، التي طالما تشوقت روحه إليها. . .

علوٌ في الحياة وفي الممات   لحق تلك إحدى المكرمات

(١) الموتى يتكلمون لسامي جوهر: ١٩٨ ـ ١٩٩. وأشير هنا إلى بطلان الإشاعة التي رددها البعض، من أن سيد قطب طلب قبل إعدامه أن يصلي ركعتين، وفاضت روحه إلى الله وهو ساجد، ثم حمل بعد ذلك جثة هامدة وعلق على حبل المشنقة. . . وهي لا تزيد على كونها إشاعة، وبخاصة أنه لم يروها أحد ممن حضر اللحظات الأخيرة عند إعدام الشهيد!!.

وقد رُئي سيد قطب في المنام.. فقد رأته زينب الغزالي يوم تنفيذ الإعدام بعد أن أخذتها سِنَة خفيفة بعد الفجر وقال لها: (إعلمي أني لم أكن معهم. أنا كنت في المدينة مع حضرة الرسول ﷺ)[1].

وفي اليوم التالي أخذت زينب الغزالي سنة من النوم بعد الفجر - كذلك - فسمعت صوتاً يقول لها: (سيد في الفردوس الأعلى.. ورفقته في علِّيين..)[2].

وصدق الله العظيم الذي يقول: ﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يُرزقون.. فرحين بما آتاهم الله من فضله.. ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.. ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. يستبشرون بنعمة من الله وفضل.. وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين..﴾[3].

قسَّم سيد قطب حياته إلى خمس مراحل - على حد قوله لأبي الحسن الندوي - إنه:

١ - نشأ على تقاليد الإسلام في الريف وفي بيته.
٢ - ثم انتقل إلى القاهرة، فانقطعت كل صلة بينه وبين نشأته الأولى، وتبخرت ثقافته الدينية وعقيدته الإسلامية.
٣ - ثم مر بمرحلة الارتياب في الحقائق الدينية إلى أقصى حدود.
٤ - ثم أقبل على مطالعة القرآن لدواع أدبية.
٥ - ثم أثَّر فيه القرآن وتدرج به إلى الإيمان[4].

ونستطيع أن نُقسِّم حياته الإسلامية إلى أربع مراحل واضحة:

١ - مرحلة الإسلاميات الفنية: ابتدأت في منتصف الأربعينيات تقريباً، حيث

---

(١) أيام من حياتي لزينب الغزالي: ١٨٥.
(٢) المرجع السابق: ١٨٦.
(٣) آل عمران: ١٦٩ - ١٧١.
(٤) سيد قطب الشهيد الحي: ١٣٢.

أقبل على القرآن الكريم بقصد التدبر الفني والتذوق الجمالي، وكان ينوي تأليف عدة كتب في (مكتبة القرآن الجديدة) الفنية. وقد ألف في هذه المرحلة كتابين هما (التصوير الفني في القرآن) و(مشاهد القيامة في القرآن).

٢ - مرحلة الإسلاميات العامة: ابتدأت في الربع الأخير من العقد الأربعيني تقريباً، حيث أقبل على القرآن بقصد الدراسة الفكرية الفاحصة، والنظرة الإصلاحية العميقة. حيث أراد أن يقف على أسس الإصلاح الاجتماعي، ومبادىء التكافل الاجتماعي في الإسلام. والكتاب الذي يمثل هذه المرحلة بصدق هو (العدالة الاجتماعية في الإسلام).

٣ - مرحلة العمل الإسلامي المنظم: وهي المرحلة التي تعرَّف فيها على جماعة الاخوان المسلمين، وانتظم في صفوفهم، وفهم الإسلام بشموله، فكراً وعملاً، وعقيدة وسلوكاً، وثقافة وجهاداً. وهذه المرحلة تبدأ من عودته من أمريكا، حتى أُدخل هو وإخوانه السجون في نهاية عام ١٩٥٤. وأبرز كتب هذه المرحلة: (معركة الإسلام والرأسمالية) و(السلام العالمي والإسلام) و(في ظلال القرآن) في أجزائه الأولى من طبعته الأولى.

٤ - مرحلة الجهاد والحركة: وهي المرحلة التي خاض فيها صراعاً فكرياً وعملياً مع الجاهلية، ومرَّ فيها بتجربة جهادية عملية، واكتشف على ضوئها المنهج الحركي لهذا الدين، وواقعيته الجدية والحركية في حربه مع الجاهلية، والمعالم الواضحة في الطريق إلى الله.

تبدأ هذه المرحلة منذ إدخاله السجن في نهاية عام ١٩٥٤، وتتعمق - أثناء سجنه - في نهاية الخمسينيات، وتنضج وتُؤتي ثمارها اليانعة في الستينيات. أول كتب هذه المرحلة: (هذا الدين) وأهمها (في ظلال القرآن) في طبعته المنقحة، وأنضجها (معالم في الطريق)[1].

---

(١) رائد الفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب. ليوسف العظم: ١٤٩ - ١٥٠. بتصرف.

خلّف سيد قطب عدداً من البحوث والدراسات الأدبية والإسلامية، وفيما يلي نرتبها حسب صدور طبعاتها الأولى:

١ ـ مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر. طبع عام ١٩٣٣.
٢ ـ الشاطىء المجهول. ديوانه الشعري الوحيد المطبوع. طبع في يناير ١٩٣٥.
٣ ـ نقد كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) للدكتور طه حسين. طبع عام ١٩٣٩.
٤ ـ التصوير الفني في القرآن. أول كتبه الإسلامية. طبع في أبريل «نيسان» ١٩٤٥.
٥ ـ الأطياف الأربعة: بالاشتراك مع إخوته: أمينة ومحمد وحميدة. طبع عام ١٩٤٥.
٦ ـ طفل من القرية: فيه تصوير لقريته وتسجيل لطفولته فيها. طبع عام ١٩٤٦.
٧ ـ المدينة المسحورة: قصة خيالية على غرار قصص (ألف ليلة وليلة). طبع عام ١٩٤٦.
٨ ـ كتب وشخصيات: الحلقة الأولى من دراساته لمؤلفات الآخرين. طبع عام ١٩٤٦.
٩ ـ أشواك: قصة حبه وخطبته لفتاته ثم فسخه الخطبة. طبع عام ١٩٤٧.
١٠ ـ مشاهد القيامة في القرآن: الحلقة الثانية من سلسلة (مكتبة القرآن الجديدة) طبع في أبريل (نيسان) عام ١٩٤٧.
١١ ـ روضة الطفل: بالاشتراك مع أمينة السعيد ويوسف مراد. أصدر منها حلقتين.
١٢ ـ القصص الديني: بالاشتراك مع عبد الحميد جودة السحار.
١٣ ـ الجديد في اللغة العربية. بالاشتراك.
١٤ ـ الجديد في المحفوظات. بالاشتراك.
١٥ ـ النقد الأدبي أصوله ومناهجه: بيَّن فيه نظريته الخاصة في النقد الأدبي طبع في يونيه (حزيران) عام ١٩٤٨.

١٦ ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام: كتابه الأول في الفكر الإسلامي. طبع في أبريل (نيسان) عام ١٩٤٩.
١٧ ـ معركة الإسلام والرأسمالية: طبع في فبراير (شباط) ١٩٥١.
١٨ ـ السلام العالمي والإسلام: طبع في أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٥١.
١٩ ـ في ظلال القرآن: ظهرت الطبعة الأولى للجزء الأول منه في أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٥٢.
٢٠ ـ دراسات إسلامية: مجموعة مقالات مختلفة قدم لها محب الدين الخطيب. طبع عام ١٩٥٣.
٢١ ـ هذا الدين: مفتاح منهجه الحركي في فهم القرآن والإسلام.
٢٢ ـ المستقبل لهذا الدين: يعتبر المتمم لكتاب هذا الدين.
٢٣ ـ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: أعمق كتبه خصصه للحديث عن خصائص العقيدة أو مقوماتها.
٢٤ ـ الإسلام ومشكلات الحضارة.
٢٥ ـ معالم في الطريق: وفيه خلاصة فكره الحركي: وهو الذي عجل في إصدار حكم الإعدام على صاحبه.

وقد أعد عدداً من البحوث والدراسات ثم عدل عن نشرها وهي:

١ ـ مهمة الشاعر في الحياة.
٢ ـ دراسة عن شوقي.
٣ ـ المراهقة أخطارها وعلاجها.
٤ ـ المرأة لغز بسيط.
٥ ـ المرأة في قصص نجيب محفوظ.
٦ ـ ديوان أصداء الزمن.
٧ ـ ديوان الكأس المسمومة.
٨ ـ ديوان: قافلة الرقيق.
٩ ـ ديوان: حلم الفجر.
١٠ ـ قصة القطط الضالة.
١١ ـ قصة من أعماق الوادي.

١٢ ـ المذاهب الفنية المعاصرة.
١٣ ـ الصور والظلال في الشعر العربي.
١٤ ـ القصة في الأدب العربي.
١٥ ـ شعراء الشباب.
١٦ ـ القصة الحديثة.
١٧ ـ عرابي المفترى عليه.
١٨ ـ الشريف الرضي.
١٩ ـ لحظات مع الخالدين.
٢٠ ـ أمريكا التي رأيت.

وبحوثه الأدبية الإسلامية، التي اعتبرها حلقات من (مكتبة القرآن الجديدة) ثم عدل عنها في آخر لحظة هي:

٢١ ـ القصة بين التوراة والقرآن.
٢٢ ـ النماذج الإنسانية في القرآن.
٢٣ ـ المنطق الوجداني في القرآن.
٢٤ ـ أساليب العرض الفني في القرآن.

وأما بحوثه الإسلامية الحركية الناضجة، التي أعدمت بإعدامه فهي: ـ

٢٥ ـ معالم في الطريق: المجموعة الثانية.
٢٦ ـ في ظلال السيره.
٢٧ ـ في موكب الإيمان.
٢٨ ـ مقومات التصور الإسلامي.
٢٩ ـ نحو مجتمع إسلامي.
٣٠ ـ هذا القرآن.
٣١ ـ أوَّليات في هذا الدين.
٣٢ ـ تصويبات في الفكر الإسلامي المعاصر[١].

---

(١) انظر تعريفنا ببحوثه في كتابنا (سيد قطب الشهيد الحي) فصل (تراثه الأدبي والفكري): ٢١٥ ـ ٢٦١.

المبحث الثاني

صلة سيّد قطب بالقرآن الكريم قبل الظلال

سيد قطب مع قرآنه في القرية:

عاش سيد قطب في قريته (موشة) وسط عائلة مسلمة متدينة، تكثر من تلاوة القرآن وسماعه، وإقامة الحفلات التي يتلى فيها، ومن أوائل الأصوات التي طرقت سمعه أصوات القارئين وهم يتلون كتاب الله الكريم، كان يشارك أمه ـ وهو طفل صغير ـ إنصاتها الخاشع لتلاوة القرآن.

ولما دخل المدرسة وتعلم مبادىء القراءة والكتابة، أقبل على القرآن الكريم يحفظه بحرص وتصميم، ويفاخر بحفظه أمام الناس، ويشترك في المسابقات التي تقام في قريته للحفاظ. ولم يكن حفظ القرآن في مدرسته إلزامياً، ولكن سيد حفظه ليتفوق على تلاميذ الكتاتيب الذين يحفظونه في الكُتَّاب ملزمين وليرتفع هو ومدرسته في أعين أهل القرية!

أتم سيد قطب ـ بهمة عجيبة وعصامية نادرة ـ حفظ القرآن كاملاً ـ باتقان وضبط ـ في ثلاث سنوات، حيث ابتدأ حفظه وهو في السنة الثانية الابتدائية، وأتمه وهو في السنة الرابعة الابتدائية. وكان عمره عندما ابتدأ حفظه ثماني سنوات، وبلغ عمره عندما أتمه إحدى عشرة سنة.

وكان يجمع ـ يومياً ـ بين دروس المدرسة وواجباتها، وبين حفظ القرآن ومراجعته. فهو ـ على حد قوله: (يرهق نفسه وصحته المرهقة، ويسهر إلى منتصف الليل، ليعيد في كل ليلة جميع ما سبق له حفظه من القرآن، وذلك

بجانب الدروس الأخرى، فما يتم العام حتى يكون قد حفظ ثلث القرآن حفظاً جيداً يباهي به من يتحداه. . . .)[1].

لم يكن سيد قطب في هذه المرحلة مجرد طفل يحفظ القرآن ويتمتم بآياته دون أن يفقه لها معنى. وإنما كان ـ على حسب ما يسمح به عمره ويسعفه به خياله ـ يقف أمام الآيات متذوقاً متدبراً، ومتخيلاً متأملاً، فيجد في هذا لذة غامرة وفرحاً بالغاً.

وقد بيَّن لنا صلته بالقرآن في هذه المرحلة بقوله: (لقد قرأت القرآن وأنا طفل صغير، لا ترقى مداركي إلى آفاق معانيه، ولا يحيط فهمي بجليل أغراضه. ولكنني كنت أجد في نفسي منه شيئاً. لقد كان خيالي الساذج يُجسّم لي بعض الصور من خلال تعبير القرآن. وإنها لصور ساذجة، ولكنها تشوق نفسي، وتلذذ حسّي، وأظل فترة غير قصيرة أتملاها، وأنا بها فرح ولها نشيط)[2].

ومن أجل هذه الصور ـ التي يُجسمها خياله، والتي يلتذ التأمل فيها ـ كان يشتاق لقراءة القرآن، يقبل على قراءته باستمرار، باحثاً في آياته عن صوره الجميلة تلك.

وكان من أجمل تلك الصور وأبرزها وأوضحها، صورة الذي. . . ﴿ يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه. . . ﴾[3] وصورة الذي آتاه الله آيـاته. . . ﴿ فـانسلخ منها فـأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثَله كمثَل الكلب. . . . إن تحمل عليـه يلهث أو تتركـه يلهث. . . ﴾[4].

---

(١) سيد قطب الشهيد الحي: ٨٤.
(٢) التصوير الفني في القرآن: ٦.
(٣) الحج: ١١.
(٤) الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

... ثم انتقل سيد قطب إلى القاهرة. وجدّت له اهتمامات أدبية جديدة، كالقصيدة والقصة والمقالة والنقد. ونشأت لديه معارف وثقافات وأفكار جديدة. فغطّت هذه كلها على اهتماماته القرآنية، ووقفاته التأملية. واختفت صوره القرآنية الجميلة، وكَمَنت رغباته وأشواقه الدينية في أطواء النفس وأعماق الوجدان!!

دراسته الأدبية للقرآن الكريم:

درس سيد قطب القرآن الكريم وتفسيره في كلية دار العلوم، ولكنها دراسة أكاديمية وليست تذوقاً فطرياً، ولهذا لم يجد فيها صور القـرآن الفنية الجميلة التي كان يتأملها في صغره، كما لم يجد قرآنه اللذيذ الجميل الذي كان يجده في طفولته وفي صباه، فلماذا؟ هل هما قرآنان؟ (قرآن الطفولة العذب الميسر المشوق، وقرآن الشباب العسر المعقد الممزق؟ أم إنها جناية الطريقة المتبعة في التفسير؟)[1].

وبعد طول تفكير قرر أن يعود إلى القرآن يقرؤه من جديد، بهدف البحث عن الفن والجمال في صوره الفريدة، وقرأه مرات بهذه النية. وقد أخبرنا عن عودته إلى القرآن وعن الحصيلة التي خرج بها بقوله: (وعدت إلى القرآن أقرؤه في المصحف لا في كتب التفسير. وعدت أجد قرآني الجميل الحبيب، وأجد صوري المشوقة اللذيذة. إنها ليست في سذاجتها التي كانت هناك. لقد تغير فهمي لها، فعدت الآن أجد مراميها وأغراضها.)[1].

بقيت العلاقة بين سيد قطب وبين صورة الفنية في القرآن علاقة سرية، وبقيت قصته معها لا يعرف بها أحد.... إلى أن كشف هو هذا السر، وبين للناس هذه العلاقة.

كان ذلك في شهر فبراير (شباط) عام **١٩٣٩**، عندما نشر مقالاً في مجلة (المقتطف) على حلقتين بعنوان (التصوير الفني في القرآن الكريم).

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ٧.

بدأ مقاله بمقدمة بين فيها أهمية الدراسة الفنية الجمالية للقرآن الكريم، وأنها لم تتم حتى الآن. ثم قسَّم الصور الفنية في القرآن أقساماً أربعة: صور فنية مجردة. وقصص فني. وحوار فني. وتعبيرات فنية.. وبعد أن أورد عدة صور قرآنية لكل قسم ذكر أن هذا الموضوع خصب، يصلح للدراسات المستفيضة في الرسائل العلمية الجامعية. ووعد بأنه سيقوم بدراسة مفصلة له إن لم ينهض له أحد[1]. وهكذا كان!!!.

مرَّت ستة أعوام كاملة على هذه المقالة، كان خلالها يجد المزيد من صور القرآن الفنية، يعكف عليها بين الحين والحين، فتزداد فكرة البحث المستقل في نفسه رسوخاً. وكانت تحثه حثاً على أن يتولاه هو بعد أن لم يلتفت إليه غيره.

مكتبة القرآن الجديدة:

طلع سيد قطب على الأدباء والمثقفين بكتابه الرائع (التصوير الفني في القرآن) في أبريل (نيسان) ١٩٤٥[2]. سجل فيه اكتشافه للنظرية الفريدة التي أدرك بها الخصائص العامة للجمال الفني في القرآن، وهي نظرية (التصوير الفني) التي جعلها القرآن الكريم قاعدة أساسية في التعبير وأداة مفضلة في الأسلوب.

وقد عرَّف سيد قطب التصوير الفني بقوله: (هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فهو يعبر بالصورة المُحسَّة المتخيَّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة. فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذَج الإنساني شاخص حي، وإذا

---

(١) انظر المقال في (المقتطف) مجلد ٩٤ جـ ٢ فبراير ١٩٣٩ صفحات ٢٠٦ - ٢١١ وجـ ٢ مارس ١٩٣٩ صفحات ٣١٣ - ٣١٨.
(٢) سيد قطب الشهيد الحي: ٢٢٥.

الطبيعة البشرية مجسمة مرئية. فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل. . .)[1].

بيَّن في كتابه خصائص التصوير وسماته، وتحدث عن موضوعاته وآفاقه. وأحدث الكتاب ضجة كبيرة في عالم الأدب والنقد. حيث تفرد به سيد قطب في اكتشاف المفتاح الجمالي الذي فتح به كنوز القرآن الجمالية المذخورة فيه!! وكان كتابه حجر الأساس للدراسات الأدبية والبيانية التي صدرت ـ بعده ـ حول القرآن الكريم[2].

كان هذا الكتاب هو الحلقة الأولى من سلسلة (مكتبة القرآن الجديدة) التي وعد سيد قطب بإصدارها، والتي يسجل فيها دراساته الأدبية الجمالية للقرآن. والحلقات التي وعد بإصدارها بعده هي (مشاهد القيامة في القرآن) و (القصة بين التوراة والقرآن) و (أساليب العرض الفني في القرآن) و (النماذج الإنسانية في القرآن). ولكنه لم يصدر من هذه الحلقات إلا (مشاهد القيامة) فقط!! حيث صدر بعد عامين كاملين من إصداره التصوير الفني في القرآن)[3].

وقد بيَّن هدفه من دراسته الأدبية للقرآن، ومن إنشاء (مكتبة القرآن الجديدة) بقوله: (وفي اعتقادي أنني لم أصنع بهذا الكتاب «مشاهد القيامة» وبسابقه «التصوير الفني» ولن أصنع بلواحقه، إلا أن أرد القرآن في إحساسنا جديداً كما تلقاه العرب أول مرة. . . . .).

وبيَّن طريقه لتحقيق هذا الهدف، بقوله: (فلا أقل من أن يعاد عرضه، وأن تُرد إليه جِدَّته، وأن يُستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ٣٢.

(٢) عقدنا دراسة شاملة مستقلة لنظرية التصوير الفني، هي كتابنا (نظرية التصوير الفني عند سيد قطب).

(٣) مشاهد القيامة في القرآن: ٧.

والتاريخية والأسطورية أيضاً! وأن تُبرز الناحية الفنية، وتُستخلص خصائصه الأدبية، وتنبَّه المشاعر إلى مكامن الجمال فيه....)[1].

دراسته الفكرية للقرآن... قبل الظلال:

كان هدف سيد قطب من تأليف (مكتبة القرآن الجديدة) هدفاً أدبياً فنياً، ومنهجه في دراسته منهجاً جمالياً ذوقياً.... وقد لفت نظره ـ أثناء هذه الدراسة ـ ما تضمنه القرآن الكريم من مبادىء وتشريعات، وما حواه من قيم ومناهج لإقامة حياة كريمة، وإنشاء مجتمعات مؤمنة... فصار يسجل ملاحظاته وخواطره حول تلك الإشارات... ليتفرغ لها فيما بعد...

وبعد إصدار الحلقة الثانية من مكتبة (القرآن الجديدة) وهي (مشاهد القيامة في القرآن) تغيرت اهتمامات سيد قطب، وانتقل إلى مرحلة جديدة من حياته، وهي مرحلة الإسلاميات العامة.

فتخلى عن مشروع (مكتبة القرآن الجديدة) ولم يصدر الحلقات التالية منها. وعاد إلى ملاحظاته وخواطره الفكرية التي سجلها، وصار يدرس القرآن الكريم ـ هذه المرة ـ لدواع فكرية اجتماعية إصلاحية، وكان ثمرة هذه الدراسة كتابه الفكري الإسلامي الأول: (العدالة الاجتماعية في الإسلام). الذي ألفه قبل إيفاده إلى أمريكا، وصدرت طبعته الأولى في أبريل (نيسان) ١٩٤٩[2].

وقد اختار ميدان العدالة الاجتماعية ليكتب فيه، ويبين منهج القرآن في إقرار العدالة، وقواعده في تحقيقها، لأن مصر كانت تمر في مرحلة اجتماعية حرجة، بعد الحرب العالمية الثانية، وظهرت فيها مظاهر اجتماعية شائهة، وطبقات اجتماعية متباينة، وعاشت غالبية المجتمع المصري في فقر مدقع لا تجد قوت يومها، وتئن تحت وطأة الظلم الاجتماعي، الذي يصبه عليها رجال القصر والإقطاعيون من الباشوات وكبار الملاك. وفي هذا الجو الموبوء نشط

---

(١) المرجع السابق: ٨.

(٢) سيد قطب الشهيد الحي: ٢٣٥.

الشيوعيون في الدعاية لمذهبهم، وصاروا يُمنُّون الشعب المظلوم. بجنتهم الشيوعية الموهومة، فيقبلون عليهم طمعاً فيما يعدونهم به. ولذلك ألف سيد قطب كتابه ليبين للشعب الفقير المحروم المظلوم أن العدالة الاجتماعية التي يريدونها لا توجد إلا في الإسـلام وحده، هو طريق الخلاص مما يعانون من ظلم اجتماعي وفقر اقتصادي.

وقد أحدث كتابه فور صدوره ضجة في مختلف الأوساط: حاربته الأوساط الشيوعية لأنها اعتبرته عدوها الرئيسي. وصادرته الأوساط الحكومية الرسمية، لأنها اعتبرته انتصاراً لخصومهم (الاخوان المسلمون) الذين كانوا في هذا الوقت وراء جدران السجون والمعتقلات. والأوساط الإسـلامية اعتبرته فتحاً جديداً في المكتبة الإسلامية، ونصراً مؤزراً للفكر الإسلامي[1].

(١) انظر دراستنا حول الكتاب في مجلة المجتمع عدد: ٥٣٢ تاريخ يونيو ١٩٨١ بعنوان (العدالة الاجتماعية في الإسلام هل تخلى عنه سيد قطب) صفحات: ٢١ ـ ٢٣.

المبحث الثالث

الظلال في مراحل تأليفه

استمرت قراءة سيد قطب للقرآن الكريم ومطالعته له، واختياره لحظات ـ بين الحين والحين ـ ليعيش في ظلاله. وكانت تخطر له أثناء المطالعة خواطر شتى متناثرة. فيكتفي بأن يعيشها في نفسه لحظات، ثم يردها إلى وجدانه تعيش هناك، ريثما تسنح لها الفرصة المناسبة ليخرج بها على الناس!.

وقد كانت إحدى أمانيه ـ بعد اكتشافه نظرية التصوير الفني في القرآن ـ أن يعرض القرآن كله على أساسها، وأن يبين ما فيه من خصائصها وسماتها.

وأخيراً استطاع أن يحقق هذه الأمنية، وأن يقوم بهذه المهمة، عندما أقبل على القرآن الكريم يفسره تحت عنوان (في ظلال القرآن).

وقد مر تفسيره الظلال بأربع مراحل، نتحدث عنها فيما يلي:

المرحلة الأولى: الظلال في مجلة (المسلمون):

في نهاية عام ١٩٥١ أصدر سعيد رمضان مجلة (المسلمون) وكانت مجلة فكرية إسلامية شهرية، ويكتب فيها قادة الفكر والرأي في العالم الإسلامي، وقد طلب صاحبها من سيد قطب أن يشترك في تحريرها بمقال شهري، وأبدى رغبته أن لو كان هذا المقال في موضوع متسلسل أو تحت عنوان دائم[١].

(١) في ظلال القران: الطبعة الثانية غير المنقحة: ٥ ـ ٧.

وهنا ظهرت رغبة سيد قطب الكامنة، وتمكن من تحقيق الأمنية المذخورة. فراح يفسر القرآن تحت عنوان فريد مثير، وهو (في ظلال القرآن).

نشر الحلقة الأولى في العدد الثالث من المجلة الذي صدر في شباط (فبراير) عام ١٩٥٢، ابتدأه بتفسير سورة الفاتحة، واستمر يفسر سورة البقرة في الحلقات التالية. وقد نشر في المجلة سبع حلقات في سبعة أعداد متوالية[١]. ووصل في تفسيره إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾[٢].

المرحلة الثانية: الظلال قبيل اعتقال سيد قطب:

أعلن سيد قطب في نهاية الحلقة السابعة من حلقات الظلال في مجلة المسلمون عن إيقاف الحلقات في المجلة، لأنه بدا له أن يقوم بتفسير القرآن كله في كتاب مستقبل، يصدر في أجزاء متتابعة. وجاء في إعلانه قوله: (بهذا الدرس ينتهي ما قُدر له أن ينشر من هذه السلسلة في (المسلمون).. وذلك أن (في ظلال القرآن) ستنشر مستقلة في ثلاثين جزءاً على التتابع، تظهر كل حلقة على رأس كل شهرين، ابتداء من شهر سبتمبر القادم بإذن الله، تنشرها دار إحياء الكتب العربية لعيسى الحلبي وشركاه. أما (المسلمون) فتأخذ في نشر بحث آخر تحت عنوان (نحو مجتمع إسلامي)[٣].

ظهر الجزء الأول من الظلال في شهر أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٢[٤].

(١) انظر هذه الحلقات في العدد الثالث: ٢٨ - ٣٢ والرابع: ١٩ - ٢٧. والخامس ١٧ - ٢٦. والسادس: ١٣ - ٢٢ والسابع: ٢٥ - ٣٠ والثامن: ٢٤ - ٣٤ والتاسع: ١١ - ١٥.

(٢) البقرة: ١٠٣.

(٣) مجلة (المسلمون) المجلد الأول. العدد التاسع. يوليو ١٩٥٢. صفحة ١٥. وقد نشرت له (المسلمون) - فيما بعد - حلقتين في العدد الرابع فبراير ٥٤ صفحات ٣٣ - ٤٠ والخامس مارس ٥٤ صفحات ٢١ - ٢٨. من تفسيره لسورة الأنفال!!.

(٤) مجلة الكتاب. مجلد ١١. جزء ٩. نوفمبر ١٩٥٢ صفحة: ١١٣٧. وقد عقدت مقارنة بين (الظلال) في مجلة (المسلمون) و(الظلال) ككتاب مستقل، بهدف معرفة الفروق بينهما. فوجدت أن الظلال المطبوع هو نفسه المنشور سابقاً في المجلة. وأن الفروق بينهما لا تعدو أن تكون تبديل عبارات أو كلمات!!

وفىَّ سيد قطب بتعهده مع القراء فصار يصدر كل شهرين جزءاً من الظلال. بل كان يزيد على هذا أحياناً. ففي الفترة الواقعة ما بين أكتوبر ١٩٥٢ ويناير (كانون ثاني) ١٩٥٤ أصدر ستة عشر جزءاً من الظلال[١].

لم يكن سيد قطب في هذه الفترة متفرغاً لتفسير القرآن وكتابة (الظلال) وإنما كانت حياته عملاً وحركة، وفكراً وكتابة، وحديثاً ومحاضرة!! فكان يقوم بواجباته العملية الكثيرة مع جماعة الاخوان المسلمين - كعضو في مكتب الإرشاد، ورئيس لقسم نشر الدعوة ورئيس لتحرير جريدة (الاخوان المسلمين) - بالإضافة إلى صِلاته العملية مع الكثيرين - ومنها اتصالاته مع رجال الثورة تمهيداً لقيامها - كما كان يقوم بكتابة المقالات المختلفة في الصحف والجرائد والمجلات، والتي يتوفر على قراءتها الآلاف من مختلف فئات الشعب، وتُحدث آثاراً بالغة في الحياة العامة للمجتمع المصري. وكذلك كان يعد بحوثه الإسلامية مثل (معركة الإسلام والرأسمالية) و (السلام العالمي والإسلام).

لم يكن يفسر القرآن من (برج عاجي) منعزلاً عن المجتمع. ولم يكن يقصد من تفسيره المعرفة الذهنية الباردة، أو مجرد الثقافة العقلية الجافة، أو الانضمام إلى سلك المفسرين وإضافة تفسير نظري معاصر إلى التفاسير السابقة، وإنما تفاعل - بحركة إيجابية - مع الإسلام ودعوته، وخاض بالقرآن وتفسيره تجربة عملية دعوية حية، وقصد منه إلى إطلاع الشباب الإسلامي العامل على خواطره وأفكاره - القرآنية - في الفكر والدعوة والحركة، وإلى دعوة هؤلاء الشباب ليعيشوا حياة هانئة في ظلال القرآن لتلقّي إيحاءاته وتوجيهاته، وفهم مقاصده ودلالاته، والوقوف على منهجه في الحركة، ومهمته في البناء!!.

المرحلة الثالثة: سيد قطب يكمل الظلال في السجن:

نشر سيد قطب ستة عشر جزءاً من الظلال قبل أن يسجن، ثم أُدخل

---

(١) سيد قطب الشهيد الحي: ٢٤١.

السجن ـ للمرة الأولى ـ وبقي موقوفاً فيه مدة ثلاثة أشهر من يناير حتى مارس ١٩٥٤، وأصدر وهو في السجن الجزأين السابع عشر والثامن عشر.

وبعدما خرج من السجن لم يُصدر أجزاء جديدة، لأن كثرة الشواغل لم تُبق له من وقته شيئاً. ولم يلبث طويلاً خارج السجن، إذ سرعان ما أعيد إليه ومعه عشرات الألوف من أفراد جماعة الاخوان المسلمين، في نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٥٤، بعد مسرحية (حادث المنشية) في الاسكندرية، التي اتهمت فيها الجماعة بمحاولة اغتيال الرئيس المصري جمال عبد الناصر.

في الفترة الأولى من سجنه لم يُصدر أجزاء جديدة من الظلال، لأنه صُبت عليه صنوف العذاب ألواناً بشعة رهيبة لا توصف، لم تنقطع عنه في الليل أو النهار، وقد تركت في جسده وصحته آثاراً بالغة.

وبعدما قُدم للمحاكمة، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً، وتوقف عنه التعذيب واستقر في سجن (ليمان طرة)، وتكيف مع الوضع الجديد، انصرف إلى إكمال التفسير، وكتابة الأجزاء الباقية من الظلال!.

تقضي لوائح السجون أن السجين لا يحق له الكتابة، وإذا ضبطت بحوزته أقلام أو أوراق فإنهم يوقعون به أشد العذاب! ولكن الله سبحانه وتعالى أراد للظلال أن يُكتب ـ ومن داخل السجن! ـ فأزال هذه العقبة، وذلل له تلك الصعوبة وفتح الطريق أمامه إلى عالم النشر!!.

وذلك أن سيد قطب كان قد تعاقد مع دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ على كتابة الظلال كتفسير للقرآن كله. فلما منعته الحكومة من الكتابة داخل السجن، رفعت الدار الناشرة دعوى ضدها تطالبها بدفع تعويض قيمته عشرة آلاف جنيه، لأنها تضررت مالياً ومعنوياً من ذلك المنع! واختارت الحكومة أن تسمح لسيد قطب بإكمال الظلال، والكتابة من داخل السجن، بدل أن تدفع إلى المكتبة ذلك التعويض[١].

استعملت الحكومة سماحها لسيد قطب بالكتابة في سجنه سلاحاً تبطل

---

(١) سيد قطب الشهيد الحي: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

به ما يثيره الاخوان المسلمون في الخارج ضد النظام الحاكم، وما يمارسه من إرهاب فكري وسياسي، وحكم بوليسي تعسفي، وكبت للحريات الشخصية والعامة. بل لقد اتكأت على هذا السماح في نشر أكاذيبها ومفترياتها! فعندما زار الرئيس المصري عبد الناصر باكستان استنكر علماؤها اعتقال سيد، وأنكروا على عبد الناصر ما فعله به، فادعى الرئيس أن سيد ليس معتقلاً! وأنه في بيته يتمتع بكافة حرياته، بدليل كتبه المختلفة التي تطبع في مصر وتوزع في العالم الإسلامي!!!.

وقد شك أحد الباكستانيين في كلام الرئيس، فأرسل برقية إلى محمد قطب في القاهرة، يسأل عن شقيقه سيد، وعن تمتعه بكافة حرياته!! وأنّى لمحمد قطب أن يجيبه عليها.

وقد عممت وزارة الخارجية المصرية، على دبلوماسييها في الخارج، باتباع أسلوب الرئيس إذا ما سُئلوا عن سيد قطب!!![1].

عينت الحكومة الشيخ محمد الغزالي رقيباً دينياً، يُعرض عليه الظلال قبل طبعه. وقد أجاز الشيخ الغزالي الظلال، ولم يحذف منها إلا تعقيب سيد قطب على تفسير سورة البروج، أشار فيه إلى التعذيب الذي لقيه هو والمجاهدون في السجن. ورسم للدعاة فيه معالم الطريق المحقّق لرضوان الله، والموصل إلى جنته[2].

وقد جعل سيد قطب هذا التعقيب أحد فصول كتابه (معالم في الطريق) حيث نشره فيه تحت عنوان (هذا هو الطريق) مع تبديل يسير في العبارات[3].

الجو الذي فسر فيه الظلال:

إن سيد قطب يُعتبر فى سجنه ظاهرة عجيبة فريدة، فبدل أن تنقبض

---

(١) سيد قطب الشهيد الحي: ١٤٨.
(٢) المرجع السابق: ٢٤٤.
(٣) المرجع السابق: ٢٤٤ وأنظر (معالم في الطريق) فصل (هذا هو الطريق).

نفسه، وتنتابه الهواجس والخواطر السوداوية، وتسيطر عليه العُقد والأمراض النفسية، ويصبح قلقاً ضجراً، عابساً مكتئباً، نراه قد حول هذه المحنة إلى منحة، وتكيف مع الوضع الجديد، واستعلى عليه بإيمانه ويقينه بالله عز وجل، وشفت فيه روحه، واستقرت نفسه. لقد عايش الإسلام معايشة عملية، وخاض به مع الجاهلية معركة واقعية، وعاش في ظلال القرآن حياة كريمة!.

لقد كان في سجنه في عذاب وشدة، ولكن الله وفقه فعرف كيف يستفيد منها. يقول: (إن إصابة العباد بالشدة هي امتحان وابتلاء، واختبار وفتنة. وإن الذي يستيقظ لهذه الحقيقة يفيد من الشدة، ويعتبر بالبلاء، ويكسب من ورائهما حين يستيقظ. والألم لا يذهب ضياعاً إذا أدرك صاحبه أنه يمر بفترة امتحان لها ما بعدها إن أحسن الانتفاع بها. والألم يهون على النفس حين تعيش بهذا التصور، وحين تدخر ما في التجربة المؤلمة من زاد للدنيا بالخبرة والمعرفة والصبر والاحتمال، ومن زاد للآخرة باحتسابها عند الله، والتضرع لله، وبانتظار الفرج من عنده، وعدم اليأس من رحمته)[1].

وقد أخبر صديقَه السعودي: أحمد عبد الغفور عطار بأخباره في السجن، وأطلعه على النتائج العظيمة التي خرج بها من تجربته العملية فيه. وذلك في رسالتين بعث بهما إليه من سجنه!.

قال في الأولى: (وأما أنا فأجدني خيراً من أي وقت مضى - في عقيدتي وإيماني - وفي وضوح هذه العقيدة وهذا الإيمان في نفسي، وفي وضوح إدراكي وتصوري لهذا الأمر ومقتضياته، ووضوح الهدف والوسيلة والطريق والغاية، وكل هذا خير جزيل جميل، يرجح كل ما أديته ثمناً له من راحتي وصحتي والحمد لله).

وقال في الثانية: (أهم من أن أشكرك - فيما أعتقد - أن أطمئنك عليّ وأنا في وضعي الذي تعلمه. لقد وجدت الله كما لم أجده من قبل قط. ولقد

---

(١) في ظلال القرآن: ١: ٧٠ طبعة الشروق.

عرفت منهجه وطريقه كما لم أعرفه من قبل قط. ولقد اطمأننت إلى رعايته ووثقت بوعده للمؤمنين كما لم أطمئن من قبل قط. وأنا بعد ذلك على ما عهدتني، مرفوع الرأس لا أحنيه إلا لله. والله يفعل ما يشاء، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[1].

وإذا علمنا أن سيد قطب بعث بالرسالتين عام ١٩٦٦، وبعد الحكم عليه بالإعدام، علمنا مقدار المكاسب التي خرج بها، وغزارة المعاني التي استفادها منها. وإن كل كلمة من هاتين الرسالتين تصلح أن تكون نوراً مضيئاً، بين معالم الطريق إلى الله سبحانه وتعالى.

جعل سيد قطب سجنه خلوة يخلو فيها إلى نفسه، ويناجي فيها ربه، ويتفرغ فيها لقرآنه، يعيش في ظلاله حياة مباركة هانئة، ويعايش مبادئه وقيمه معايشة حية، ويتحرك به حركة عملية، ويكشف على ضوئه معالم الطريق إلى الله، ويعمق به صلته بالله... (فها هو يجوب الزنزانة كل يوم، يذرعها قارئاً لسورة من كتاب الله بصوت عذب رخيم، ومعه قلمه يدوِّن به كل ما يخطر له من خواطر وأفكار على هامش المصحف، وهو فرح مسرور بما يجول في خاطره من معانٍ جديدة لم تكن تلامس ذهنه قبل أن يدخل السجن، ويأنس فيه بكتاب الله..)[2].

ومن هناك ـ من الجو الذي وصفنا ـ أتم تفسير القرآن الكريم، وانتهى من تأليف (الظلال). كما أمد المكتبة الإسلامية بالعديد من البحوث الإسلامية العميقة الرصينة، وأقبل الدعاة عليها إقبالاً منقطع النظير!!

لم يكتفِ سيد قطب ـ في سجنه ـ بالكتابة والتأليف، ولا بالحياة في ظلال القرآن، ـ ولو اكتفى بهذا لكفاه ـ وإنما خطا خطوة عملية جهادية، زادت من تقديره في أعين الدعاة، وذلكُ (بأن أعاد اتصالاته مع الاخوان

---

(١) سيد قطب الشهيد الحي: ١٥٣ ـ ١٥٤ نقلاً عن مجلة (كلمة الحق) العدد الثاني ١٣ ـ ١٤.
(٢) المرجع السابق: ١٤٨ نقلاً عن مقال مصطفى العالم ـ شريكه في زنزانته ـ في مجلة المجتمع الكويتية.

المسلمين داخل السجون وخارجها، وأنشأ أرقى أشكال التنظيم الإسلامي سرية وفاعلية في مصر، وكان هذا الإنشاء يعتبر عملية انتحار - إن جاز التعبير - في الظروف الرهيبة التي كانت تسود أرض الكنانة. .)[1].

بما سبق بيانه، يعتبر سيد قطب في سجنه ظاهرة عجيبة خارقة، وشخصية عظيمة، وقدوة عملية، ونموذجاً إسلامياً حياً متحركاً!! فقليل من الرجال من يثبت في سجنه، وقليل منهم من يخرج بنفس سوية وفكر معتدل، وقليل منهم من يحسن الاستفادة من سجنه ويخرج بحصيلة علمية وثقافية كبيرة، والنادر منهم من يوفق في بحوثه ودراساته وأفكاره وآرائه. . وإن سيد قطب في طليعة هذا الوفد النادر الكريم. وإنه لينطبق عليه قول الشاعر:

عجباً بأنك سالم من وحشة   في غاية ما زلت فيها مفردا

إن سيد قطب لم يعش حياته هناك، ولم يقف مواقفه تلك، ولم يصل إلى ما وصل إليه؛ إلا بتوفيق الله، وبمحض كرم منه وفضل. لقد أراه الله الطريق إليه، وقاد خطواته في السير فيه، ووفقه للانتصار الذي حققه في نهايته. لقد فتح الله عليه - في زنزانته - أبواب رحمته، فعاش مغموراً بفيضها الكريم. ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده. . . ﴾[2].

ولقد بيَّن سيد قطب في (الظلال) لحظة من حياته في ظلال القرآن، وتحوُّل القرآن عنده من معانٍ مدرَكة إلى حقائق مُتذوَّقة مَعاشَة، وتعامله مع رحمة الله التي تشير إليها الآية. فقال:

(يسَّر الله لي أن أطلع على حقيقتها، وأن تسكب حقيقتها في روحي، كأنما هي رحيق أرشفه وأحس سريانه ودبيبه في كياني، حقيقة أذوقها لا معنى أدركه. فكانت رحمة بذاتها تقدم نفسها لي تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية التي تفتحت لي تفتحها هذا. وقد قرأتها من قبل كثيراً، ومررت بها من قبل كثيراً،

---

(١) سيد قطب الشهيد الحي: ١٤٨.

(٢) فاطر: ٢ وانظر تفسيرها الرائع في الظلال ٥: ٢٩٢١ - ٢٩٢٤.

ولكنها اللحظة تسكب رحيقها، وتحقق معناها، وتنزل بحقيقتها المجردة وتقول: هـآنـذا.. نمـوذج من رحمـة الله حين يفتحهـا، فـانـظر كيف تكون...)[1].

وقد بيَّن في مقدمة الطبعة المنقحة من الظلال نعمة الله عليه إذ منَّ عليه بالحياة في ظلال القرآن. قال: (الحياة في ظلال القرآن نعمة. نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها. نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.. والحمد لله.. لقد منَّ عليَّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي. ذقت فيها هـذه النعمة التي تـرفع العمـر وتباركـه وتزكيه...)[2].

مع الظلال في طبعته المنقحة:

قلنا إن سيد قطب ألف ستة عشر جزءاً من الظلال قبل إدخاله السجن عام ٥٤، وتفسيره فيها لم يَعْدُ أن يكون تسجيلاً لخواطره المتنوعة حول الآيات، وبياناً لما فيها من جمال وفن وتصوير، وعرضاً لما تضمنته من مبادىء ومناهج وتشريعات.

وفي المرحلة الأولى من سجنه، طالت حياتـه في ظلال القـرآن، وتعمقت تجربته العملية، واستفاد منها مكاسب شتى، وأمدته بزاد كبير في الفكر والمعرفة، والثقافة والدعوة، والحركة والجهاد، ووفقه الله إلى إدراك طبيعة هذا الدين الواقعية الجدية، والتعرف على مهمته الجهادية، واكتشاف المنهج الحركي للقرآن الكريم.

وقع على هذه الكنوز وهو يفسر القرآن، وبعد أن قطع في تفسيره شوطاً طويلاً، حيث وصل إلى الجزء السابع والعشرين. وكان لا بدّ أن يعيد النظر في تفسيره، وأن يؤلفه على أساس إدراكه الجديد، وأن ينطلق فيه من منطلق

(١) في ظلال القرآن ٥: ٢٩٢٤.
(٢) في ظلال القرآن ١: ١١.

جديد على هدي اهتماماته الجديدة، وأن يضمنه فهمه الجديد للإسلام، وتصوره للدعوة إليه، ومنهجه في الحركة به.

وهكذا كان.. حيث فسر الأجزاء الثلاثة الأخيرة من الظلال وفق منهجه الحركي الجديد. ثم قرر أن يعيد النظر في تفسير الأجزاء الأولى، وأن يصوغ الظلال على أساس منهجه الحركي في فهم القرآن والحركة به، وأن يتناوله بالتنقيح، فكانت الطبعة الجديدة المنقحة من الظلال! وهي الطبعة الثانية الصادرة في مصر أثناء حياته. إذ كانت الطبعة الأولى عام ١٩٥١، والمتممة للأولى عام ١٩٥٣.

كتب سيد قطب الأجزاء العشرة الأولى من الطبعة الثالثة المنقحة بتركيز شديد، وعلى منهج جديد، وبطريقة جديدة. فكان يقف عند الآيات طويلاً، ويسجل كل خواطره حولها، ويتعرض للحديث عما توحي به من قضايا في العقيدة والحركة، أو الفقه والتشريع، أو السياسة والاقتصاد، أو التاريخ والاجتماع، أو غير ذلك. وكانت أطول وقفاته وأعمقها وأنضجها، تلك التي تتعلق بالعقيدة والحركة، والألوهية والعبودية، والحاكمية والتشريع....

وكان الجزء السابع هو أكثر الأجزاء تركيزاً، وأنضجها فكراً، إذ توسع في الحديث عن العقيدة ومباحثها، في مقدمته المطولة لسورة الأنعام، وأثناء تفسيره لها[1].

وفي الأجزاء الثلاثة الباقية من الطبعة المنقحة ـ الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ـ لم يقف طويلاً عند الآيات ـ لأنه قال معظم ما يريد قوله في الأجزاء السابقة ـ وصار يركز على التعقيب على الدروس والسور! وقد كتب هذه الأجزاء الثلاثة في الفترة التي أطلق سراحه فيها. من نهاية عام ١٩٦٤ وحتى منتصف ١٩٦٥.

كان سيد قطب يريد أن يعيد كتابة أجزاء الظلال من الرابع عشر حتى السابع والعشرين، وأن يفسرها على أساس منهجه الحركي الجديد. أما

---

(١) سيد قطب الشهيد الحي: ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

الأجزاء الثلاثة الأخيرة فسيتركها على ما هي عليه، لأنه ألفها على أساس ذلك المنهج.

ولكن الطغاة عجلوا بالقضاء عليه قبل أن يتم ما بدأ به، وقبل أن يُقدِّم الظلال كله في الصورة التي اختارها للطبعة المنقحة!.

طبعات الظلال والفروق بينها:

طبع الظلال ثلاث طبعات في حياة صاحبه، وطبعات عديدة ـ مشروعة ومسروقة ـ بعد استشهاده:

الطبعة الأولى: صدرت عن دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي، وقد صدر الجزء الأول في أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٢[١] ثم والى إصدار الأجزاء الأخرى، ولكنه ـ قطعاً ـ لم يكمل الظلال في الطبعة الأولى، ويبدو أن نُسخ الأجزاء الأولى نفدت من السوق، مما اضطر الناشر إلى أن يعيد نشر تلك الأجزاء فكانت الطبعة الثانية.

الطبعة الثانية: صدرت عن نفس الدار الناشرة وظهر الجزء الأول في جمادى الآخرة ١٣٧٢ وفق فبراير ١٩٥٣، أي بعد ثلاثة أشهر من الطبعة الأولى، وهذا يبين لنا مدى أقبال الناس على الظلال، والحفاوة التي استقبلوه بها، ومنزلة صاحبه في أوساط المثقفين والإسلاميين.

واختار مقدمة الطبعة الأولى لتكون مقدمة للطبعة الثانية، وعلل هذا بقوله: (مقدمة الطبعة الأولى، ولم أجد ما يدعو إلى زيادة شيء عليها)[٢].

وهذه الطبعة طال إصدارها، حيث لم تنته إلا في أواخر الخمسينيات، بعد حوالي سبع سنوات من صدور الجزء الأول.

وهذه الطبعة صورة طبق الأصل عن الطبعة الأولى، وليس فيها إلا زيادة

---

(١) المرجع السابق: ٢٤٠.
(٢) في ظلال القرآن. الطبعة الثانية ١: ٧ حاشية.

بعض التعليقات في الهوامش أحياناً[1]. ولهذا اعتبرها سيد قطب (طبعة مكملة للطبعة الأولى. . .)[2].

الطبعة الثالثة: هي الطبعة المنقحة، وسبق أن ذكرنا السبب الذي دعا سيد قطب إلى كتابتها، وقد بدأ إصدارها في أواخر الخمسينيات، ووصل فيها ـ في عام ١٩٦٥ ـ إلى نهاية الجزء الثالث عشر، وكان في نيته أن يتناول باقي أجزاء الظلال بالتنقيح حتى الجزء السابع والعشرين، لكن الطغاة قضوا عليه قبل تحقيق هذه الأمنية، التي ضاعت مع بحوثه ودراساته الفكرية والحركية الأخرى.

الطبعات اللبنانية للظلال:

ما أن استشهد سيد قطب، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها، حتى سارعت دور النشر في لبنان ـ الإسلامية وغير الإسلامية ـ إلى نشر كتبه المختلفة، بالطبع أو التصوير، بدون حقوق طبع أو تأليف! وصدرت طبعات كثيرة لكتبه هناك، عن دور نشر بعضها معروف وبعضها مجهول، وأكثرها بدون ذكر اسم الناشر! بل إن هناك طرفة تتردد في هذا الخصوص عن ناشر نصراني في لبنان، وصل إلى درجة الإفلاس، فأرشده صديقه إلى أقصر وأسهل طريق ينقذه من هذا، ويحقق له الإثراء السريع وهو أن ينشر عدة كتب لسيد قطب!!!

أصدرت دار العربية في لبنان طبعة للظلال مجزأة إلى ثلاثين جزءاً، كل جزء نشر على حدة، حيث أخذت الأجزاء الثلاثة عشر الأولى من الطبعة المنقحة، وأكملت الظلال من الطبعة الأولى ـ غير المنقحة ـ.

ثم عادت دار العربية وأصدرت طبعَة أخرى ظهر فيها الظلال في ثماني مجلدات كبار. وحاولت أن تضع عناوين جانبية فيه أثناء التفسير!!!

---

(١) انظر على سبيل المثال: الظلال: الطبعة الثانية ١: ٧ حاشية و٢: ٨٥ حاشية.

(٢) انظر الظلال: الطبعة الثالثة المنقحة ١: ٢٣٨ حاشية.

كما أصدرت دار الكتاب العربي في لبنان طبعات للظلال، في ثماني مجلدات كذلك.

طبعة دار الشروق للظلال:

بعد أن خرج محمد قطب من السجن، أراد أن تصدر كتبه وكتب شقيقه بصورة قانونية، وأن تطبع طبعات مشروعة. فتعاقد مع دار الشروق لصاحبها محمد المعلم ـ وهي دار القلم المصرية سابقاً ـ على أن تتولى نشر كتبهما.

صدر الظلال عنها في عدة طبعات، بصورة تختلف عن الطبعات المصرية واللبنانية في الشكل لا في المضمون. فظهر في ست مجلدات كبار، وبأرقام متسلسلة للصفحات بلغت أربعة آلاف وعشرين صفحة من القطع الكبير.

وقد أشار محمد قطب في رسالته إلى محمد المعلم صاحب دار الشروق إلى استغلال الناشرين في لبنان محنة محمد وسيد، وإصدارهم عدة طبعات مسروقة لكتبهما (المرة تلو المرة كأنها ملك خاص بهم. غير مبالين بحقوق المؤلفين، ولا بظروف الأزمة التي يخوضونها..) وبيَّن أن دافعهم ليس هو نشر الدعوة ـ وإلا لما ساءه الأمر ـ وإنما هو الاتجار بها وجعلها وسيلة للكسب السريع غير المشروع[1].

كما قدم محمد قطب لهذه الطبعة بكلمة طيبة موجزة قال فيها: (في ظلال القرآن.. الكتاب الذي عاشه صاحبه بروحه وفكره وشعوره وكيانه كله.. وعاشه لحظة لحظة وفكرة فكرة، ولفظة لفظة، وأودعه خلاصة تجربته الحية في عالم الإيمان.. لقد حان له أن يأخذ وضعه الطبيعي في يد ناشر أمين.. يُقدر أنه ناشر فكر قبل أن يكون جامع مال.. وأن نشر الفكر رسالة عليا وليس انتهازية طامعة.. فلتكن هذه الطبعة المشروعة الصادرة عن دار الشروق... بعد طول التطواف في طبعات غير مشروعة... فلتكن في ثوبها

(١) انظر رسالة محمد قطب في طبعة دار الشروق للظلال ١: ٥.

هذا.. تحية منا في رحلتنا العابرة على الأرض.. إلى المؤلف الشهيد[1].

وقد امتازت طبعة الشروق بمميزات منها:

إنها الطبعة المشروعة الأولى بعد استشهاد صاحب الظلال، بعد ما طوف الظلال طويلاً في طبعات غير مشروعة.

وإنها أضيف لها التفسير المنقح لسورة الحجر في الجزء الرابع عشر، حيث كان تفسير السورة في الطبعات اللبنانية هو ما في الطبعة الأولى - غير المنقحة - من الظلال[2].

وإنها فيها ترقيم الآيات في المقاطع والدروس. وقد استخدمت فيها علامات الترقيم من الفواصل والنقط وعلامات الاستفهام والتعجب وغير ذلك....

... هذا وقد ترجم الظلال - كباقي كتب سيد قطب - إلى بعض اللغات الأجنبية منها: الانجليزية والفرنسية والتركية والأردية والأندونيسية والأفغانية والفارسية.

دراسات حول الظلال:

كل الذين تحدثوا عن سيد قطب - كمقالة في مجلة أو دراسة في كتاب - أشاروا إشارات إلى الظلال.

ومن أجود تلك الدراسات كتاب (سيد قطب: خلاصة حياته، ومنهجه في الحركة، والنقد الموجه إليه) لمحمد توفيق بركات. الذي اعتمد في التعرف على منهجه في الحركة، وفي رد النقد الموجه إليه على الظلال بصورة أساسية.

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٩.

(٢) هذه هي الإضافة الوحيدة في طبعة الشروق. مع أن الناشر أوهم أن هناك إضافات غيرها، حيث قال في الإعلان عن طبعته إنها (تتضمن إضافات وتنقيحات تركها المؤلف.. وتنشر للمرة الأولى) الظلال ١: ٧ وهذا كلام تجاري ليس إلا!!!

ومنها كتاب (رائد الفكر الإسلامي المعاصر: الشهيد سيد قطب) ليوسف العظم الذي تحدث عن ميزات الظلال، ثم عرض بعض أفكار سيد قطب وأزال ما علق بها من تصورات خاطئة، وما لابسها من فهم خاطىء.

ومن أجود المقالات الخاصة بالظلال، المقالة القيمة الناضجة للدكتور عدنان زرزور بعنوان (مدخل إلى ظلال القرآن) المنشورة في مجلة (حضارة الإسلام) الدمشقية[1].

وقد خص بعض الباحثين (الظلال) بنظرات فاحصة واستخرجوا منه مباحث في فقه الدعوة والحركة. وأول من تناول الظلال بهذه الطريقة الأستاذ أحمد حسن[2] في كتابه (فقه الدعوة) الذي اعتبره مكملاً لكتاب (معالم في الطريق) حيث اختار موضوعاته ـ من الظلال ـ على نفس الطريقة، ومهّد لها بتمهيد موجز عن خصائص سيد قطب في فكره وأسلوبه.

ومن الدراسات الجيدة التي صدرت، وتتناول موضوعات من الظلال، كتاب (طريق الدعوة في ظلال القرآن) لأحمد فائز في جزأين جمع فيه أحمد فائز كلام سيد قطب في الظلال عن الدعوة وطريقها وقضاياها، ونسّق بينه، وجاء في صورة دراسة موضوعية جيدة.

ومنها (اليوم الآخر في ظلال القرآن) لأحمد فائز أيضاً، حيث جمع ما ورد في الظلال عن اليوم الآخر، وصور النعيم والعذاب، ومزجه بالأحاديث النبوية والأقوال المأثورة عن اليوم الآخر. وقد جاء ـ لتصرفه فيه ـ أدنى من الكتاب الأول دلالة على فكر سيد قطب وأسلوبه.

ومنها (دستور الأسرة في ظلال القرآن) وهو الكتاب الثالث لأحمد فائز، الذي يبدو تصرفه في الكتاب واضحاً، والذي أورد فيه عدة نقولات من كتب مختلفة. وهو أدنى من الكتاب الثاني دلالة على فكر سيد قطب، حتى إنه

---

(١) حضارة الإسلام ـ السنة العشرون ـ العدد الأول ـ ربيع الأول ١٣٩٩ ـ صفحات: ١٧ ـ ٣٥.

(٢) هو فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات المشرف على رسالتيّ للماجستير وللدكتوراه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض.

اعتبر الكتاب من تأليفه، بينما اعتبر الكتابين الأولين من جمعه وإعداده[1]!!.

وقد ارتضى بعض التجار من الناشرين لأنفسهم أن يقتطعوا فقرات من الظلال وينشروها في وريقات، تحت عناوين جديدة توحي بأنها مؤلفات خاصة لسيد قطب، فيقبل عليها الآلاف من عشاق فكر الشهيد، ويصب ثمنها في جيوب هؤلاء ربحاً حراماً فاحشاً!!!.

من هذه الوريقات (تفسير سورة الشورى) و(تفسير آيات الربا) و(قصة الدعوة) و(إسلام أو لا إسلام) و(الصلاة) و(إلى المتثاقلين عن الجهاد) وآخر ما صدر منها (استعلاء الإيمان ومعالم الطريق إلى الله) عن دار وهمية تسمى (دار الشهيد).

ولا أدري إذا ما استمر الاتجار بالظلال على هذه الصورة وإخراج كتيبات منه بهذا الطريق، كم ستبلغ قائمة مؤلفات سيد قطب! وأثر هذا على ضياع الحقيقة العلمية وسط المطامح والرغبات المحرمة!!!.

---

(١) إن ما قام به أحمد فائز غير مقبول من الناحية المنْهجية والموضوعية، لأن معالجة سيد قطب في الظلال لأي موضوع، يعطي الكثير من إيحاءاته ومعانيه عندما يبقى مبثوثاً في التفسير ـ وإن تفرق فيه ـ ويفقد الكثير من تلك الأمور إذا انتزع من مواضعه. وإذا كان البعض حريصاً على خدمة قارىء الظلال ـ أو أي تفسير آخر ـ وتسهيل تناوله للموضوع الواحد فإن ذلك يتحقق في «الفهرسة الشاملة» للتفسير والإشارة فيها إلى مواضع الموضوع الواحد.. وهذا ما ننوي إعداده في كتاب قادم بإذن الله. فهذا في رأينا هو الطريق الصحيح لخدمة الظلال!!!.

الفصل الأول

كتب التفسير في مصر في العصر الحديث
لمحة موجزة

لو أردنا أن نحدد بداية زمنية للتفاسير التي ظهرت في مصر في العصر الحديث، فإننا سنبدأ من مطلع القرن الرابع عشر الهجري، حيث ابتدأ الشيخ محمد عبده يفسر القرآن الكريم في دروسه في الجامع الأزهر.

ولقد شهد العالم كله في هذا العصر تطورات عظيمة في مختلف المجالات. سواء في المجال السياسي أو الاجتماعي أو الفكري أو الاقتصادي أو الديني... أو غير ذلك.

ففي هذا العصر نشبت الحروب المدمرة، ومن أعظمها الحربان العالميتان الأولى والثانية، التي اشتركت فيها دول العالم، وقدمت الإنسانية فيها تضحيات كثيرة. وشهد هذا العصر تغيرات لكثير من الأوضاع السياسية، حيث زالت دول، وانقسمت أخرى، وظهرت دول جديدة تسلمت قيادة العالم!.

وظهرت في هذا العصر المذاهب الفكرية والفلسفية، والنظريات العلمية، والمناهج الاجتماعية والاقتصاديُة والسياسية والنفسية... مثل الوجودية والداروينية، والماركسية والقومية، والتفسيرات المادية والاقتصادية والجنسية للحياة والتاريخ.. وظهر رجال نادوا بأفكار، اعتبروا بها علماء وفلاسفة، وصار لهم مدارس وأتباع، من أمثال: هيجل وماركس ودوركايم وداروين وفرويد ونيتشه... وغيرهم.

وقد تمخض هذا العصر عن تمكُّن المادية الغربية وسيطرتها، وسيادة قيمها ومناهجها. فاستلمت قيادة الإنسانية.. حيث قادتها إلى هاوية الجاهلية.. فانتكست البشرية في حمأة الفساد والرذيلة...

أثرت الأحداث العالمية على العالم الإسلامي، الذي كان معظمه خاضعاً لسلطان الخليفة العثماني، والذي كان يعاني من ركود تام في مختلف مجالات الحياة... بينما كان العالم الغربي المادي يعيش مرحلة انبعاث علمي ومادي أوصَلته إلى تسلم مركز القيادة للبشرية!!

فتح العالم الإسلامي عينيه، وإذا بالعالم الغربي الجاهلي قد تداعى عليه تداعي الأَكلَة إلى قصعتها، فغزاه من كل جانب غزواً منظماً، غزواً فكرياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً واجتماعياً وعلمياً... وغير ذلك... وسقط العالم الإسلامي فريسة سهلة، وتقاسم العالم الجاهلي الغنيمة. واستُعمرت أقطار المسلمين استعماراً مباشراً.

وأمام هذا الواقع المؤلم قام المخلصون والمصلحون والدعاة، وقد أصابتهم الدهشة وتملكتهم الحيرة. من أين يبدأون؟ وما هي الطريق التي يسلكونها لمقاومة المادية الجاهلية المستعمرة، وبعث الأمة الإسلامية من جديد!...

... فبعضهم وجه وجهه نحو المادية الغربية نفسها، يستعير منها مناهج الإصلاح، ويحاول تطبيقها على أمته، لعلها تقتدي بالغرب في تقدمه المادي والعلمي!!.

وبعضهم وجه وجهه نحو عقيدة الأمة ودينها، فدعا إلى بعث جديد على أساس الإسلام، وأدخل القرآن الكريم المعركة مع الجاهلية، حيث بيَّن أن للقرآن مهمة أساسية وحيوية، وعملية وحركية، في قيادة الأمة الإسلامية، وفي تبيين معالم طريقها في الحياة، وأنها به - فقط - تتمكن من الانتصار على أعدائها، وتحقيق وجودها وكيانها، وتبوء مركز القيادة الإيمانية الهادية للبشرية...

أقبل هؤلاء العلماء الدعاة على القرآن الكريم يدرسونه ويفسرونه، ويبينون ما حواه من مناهج ونظم، ومن مبادىء وتشريعات، ويرشدون الأمة إلى طريقته في الإصلاح، ويدعونها إلى الإقبال عليه والتمسك به، وتطبيق توجيهاته ومبادئه على حياتهم الفردية والجماعية[1].

ومن ثم ظهرت تفاسير مختلفة للقرآن الكريم، يركز كل منها على لون من ألوان التفسير، ويلتزم فيه صاحبه منهجاً خاصاً وطريقة معينة، بحسب المدرسة التي ينتمي إليها، والتيار الذي يسير معه.

فكان من اتجاهات التفسير في العصر الحديث: الاتجاه السلفي، والاتجاه العلمي، والاتجاه العقلي، والاتجاه الاجتماعي، والاتجاه الأدبي، والاتجاه التوفيقي، والاتجاه الروحي الوجداني، والاتجاه الحركي[2]. . .

الشيخ محمد عبده وجهوده قبل التفسير:

يكاد يتفق دارسو تاريخ التفسير في العصر الحديث، على أن أول رجل أقبل على القرآن يفسره في نهاية القرن التاسع عشر، هو الشيخ محمد عبده، حيث اتخذ تفسير القرآن طريقاً، يعرض من خلاله منهجه في الإصلاح، ودعوته إلى التجديد الديني والاجتماعي.

وقد تضاربت أقوال الباحثين في حقيقة محمد عبده، واختلفت أحكامهم عليه:

فهو في رأي كبير تلاميذه الشيخ محمد رشيد رضا: (أستاذ الإسلام الأكبر) و(حكيم الإسلام في هذا العصر) و«إمام المسلمين في كل بادية ومصر» و(مولانا الأستاذ الأكبر)[3] وغير ذلك.

(١) انظر (اتجاهات التفسير في العصر الحديث) للدكتور عبد المجيد المحتسب: ٦ ـ ٣٩.

(٢) ممن تحدث عن بعض هذه الاتجاهات: الدكتور محمد حسين الذهبي في (التفسير والمفسرون) والدكتور عبد المجيد المحتسب في (اتجاهات التفسير في العصر الحديث) والدكتور فضل عباس في (تيارات التفسير في مصر والشام في العصر الحديث).

(٣) انظر (التعبير الفني في القرآن) للدكتور بكري شيخ أمين: ١٣٢.

وقد صدرت عدة كتب من تلاميذه، أو المعجبين به ذكروا فيها حياته، وأبرزوا نواحي الإصلاح التي قام بها، وأثره في الفكر الإسلامي المعاصر. . (فالأستاذ أحمد أمين عدّه من زعماء الإصلاح، والدكتور عثمان أمين اعتبره رائد الفكر المصري، والأستاذ عباس العقاد عدّه عبقري الإصلاح والتعليم، والأستاذ محمد حسين الذهبي صاحب كتاب (التفسير والمفسرون) عده رائد اللون الأدبي الاجتماعي للتفسير في عصرنا الحاضر[1].

بينما يراه المحققون من الباحثين مؤسساً للمدرسة العقلية التوفيقية في التفسير، وهي التي (تعتمد على دعامتين: تحكيم العقل تحكيماً مبالغاً فيه في فهم مراد الله تعالى، والتوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية. .)[2].

بالإضافة إلى التساؤلات العديدة، والشبهات القائمة، حول حياته الشخصية، وانتماءاته السياسية، وصِلاته المريبة بجمال الدين الأفغاني والجمعيات الماسونية، وعلاقته الحميمة بأقطاب الاستعمار الانجليزي في مصر، وعلى رأسهم اللورد (كرومر) مما يجعلهم يجزمون بأن له دوراً هداماً في تخريب الفكر الإسلامي، وإخضاعه للتصور الغربي الجاهلي[3].

نتاج الشيخ محمد عبده في التفسير ينقسم إلى قسمين رئيسيين:

الأول: ما كان له بلفظه ومعناه، وبأفكاره وصياغته: ومن هذا القسم (تفسير جزء عم) الذي ألفه بمشورة من بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية ليكون مرجعاً لأساتذة مدارس الجمعية في تفهيم الطلاب معاني ما يحفظون من سور هذا الجزء. . . وقد أتم الأستاذ الإمام تفسير هذا الجزء في سنة ١٣٢١ هـ في بلاد المغرب.)[4].

---

(١) اتجاهات التفسير في العصر الحديث للمحتسب: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) المرجع السابق: ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٣) من أصحاب هذا الرأي ـ على سبيل المثال ـ الدكتور محمد محمد حسين، أنظر أدلته المادية في إدانة محمد عبده في (الإسلام والحضارة الغربية) ٦٣ ـ ١٠٧. وانظر كتاباً آخر يدافع عن الأفغاني ومحمد عبده هو كتاب «جمال الدين الأفغاني: المصلح المفترى عليه» للدكتور محسن عبد الحميد.

(٤) التفسير والمفسرون للمرحوم الدكتور محمد الذهبي ٣: ٢١٨.

ومن هذا القسم أيضاً كتاب (مشكلات القرآن الكريم) فسر فيه سورة الفاتحة وذكر فيه مقدمة في أصول التفسير، وأجاب عن ثلاث مسائل مشكلة في القرآن، وهي: نسبة الأفعال في النصوص القرآنية إلى العبد تارة وإلى الله تارة، وقصة الغرانيق المكذوبة على رسول الله ﷺ، وقصة زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش[1].

القسم الثاني: ما كان له منه الأفكار والمعاني دون الصياغة اللفظية: وهو دروسه في التفسير التي كان يلقيها في الجامع الأزهر على تلاميذه ومريديه (وقد ابتدأ الأستاذ الإمام بأول القرآن في غرة المحرم سنة ١٣١٧ هـ، وانتهى عند تفسير قوله تعالى في الآية (١٢٦) من سورة النساء ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض، وكان الله بكل شيء محيطاً ﴾ وذلك في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣، إذ توفي ـ رحمه الله ـ لثمانٍ خلون من جمادي الأولى من السنة نفسها..)[2].

(كذلك ألقى دروساً في التفسير بمدينة الجزائر. كما ألقى دروساً في التفسير أيضاً في مساجد بيروت... في المسجد الكبير، وفي مسجد الباشورة)[3].

وقد ترك محمد عبده آثاراً واضحة على نتاج تلاميذه، الذين فسروا القرآن الكريم كله أو بعضه، حيث ترسموا خطى شيخهم، وساروا على طريقته ومنهجه. ومنهم الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ محمد مصطفى المراغي، وشقيقه الشيخ أحمد، والشيخ عبد القادر المغربي، والشيخ عبد العزيز جاويش، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ محمد المبارك عبد الله، والشيخ محمود شلتوت.. وغيرهم[4].

---

(١) انظر كتاب (مشكلات القرآن الكريم) طبعة دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ٣: ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٣) اتجاهات التفسير في العصر الحديث: ١٠٨.

(٤) في التعريف بهؤلاء وبيان تأثرهم بمحمد عبده، أنظر (اتجاهات التفسير في العصر الحديث) للمحتسب: ٢٠٨ ـ ٢٤٣.

ومن أشهر التفاسير التي ظهرت في هذا العصر:

أولاً: تفسير المنار للمرحوم محمد رشيد رضا:

يعتبر الشيخ محمد رشيد رضا من أكثر أعضاء مدرسة محمد عبده نتاجاً في التفسير، فقد ابتدأ الكتابة في تفسير القرآن في مجلة (المنار) ثم صار يجمع المنشور فيها في كتاب خاص، أطلق عليه اسم (تفسير القرآن الحكيم) وهو الذي اشتهر بتفسير (المنار).

وأصْل تفسير المنار، أن الشيخ رشيد كان يحضر دروس أستاذه محمد عبده في التفسير في الجامع الأزهر، وكان يكتب بعض كلام أستاذه وأفكاره في مذكرات. ولما عزم على نشر التفسير في مجلة المنار، كان يُطلع أستاذه على ما أعده للنشر: (كلما تيسر له ذلك، بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة، أو حذف كلمة أو كلمات... وقال الشيخ رشيد: ولا أذكر أنه انتقد شيئاً مما لم يره قبل الطبع، بل كان راضياً بالمكتوب، معجباً به[1].

ثم رأى الشيخ رشيد أن يُصدر التفسير في كتاب مستقل، فصار يصدره في أجزاء متتابعة.. (ابتدأ بأول القرآن، وانتهى عند قوله تعالى في الآية (١٠١) من سورة يوسف: ﴿رب قد آتيتني من الملك، وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ ثم عاجلته المنية قبل أن يُتم تفسير القرآن كله. وهذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلداً ينتهي المجلد الثاني عشر عند قوله تعالى في الآية (٥٣) من سورة يوسف: ﴿وما أبرىء نفسي...﴾ الآية.

وقد أكمل الشيخ الأستاذ بهجت البِيطار تفسير سورة يوسف، وطبع تفسير هذه السورة بتمامها، في كتاب مستقل، يحمل اسم الشيخ رشيد رحمه الله)[2].

---

(١) تفسير المنار ١: ١٥.

(٢) التفسير والمفسرون ٣: ٢٤٣.

وقد عرَّف الشيخ رشيد بتفسيره، وبيَّن منهجه وطريقته في تأليفه، وأشار إلى هدفه الذي يسعى إلى تحقيقه من خلاله، وذلك بكلام أثبته في صفحة العنوان، قال فيه (تفسير القرآن الحكيم، تفسير سلفي أثري، مدني عصري، إرشادي اجتماعي سياسي، هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول، وتحقيق الفروع والأصول، وحل جميع مشكلات الدين، ودحض شبهات الماديين والجاحدين، وإقامة حجج الإسلام، وبيان سياسته المثلى في إصلاح الأيام، مع حِكَم التشريع وسنن الله في الاجتماع، وكون القرآن هداية عامة للبشر في كل زمان ومكان، وحجة الله البالغة، وآيته المعجزة الخالدة. ويوازن بين هدايته، وما عليه المسلمون في هذا العصر، من الضعف والعجز، وقد أعرض أكثرهم عنها. وما كان عليه سلفهم من السيادة والعزة، إذ كانوا معتصمين بحبلها، بما يثبت أنها هي السبيل لسعادة الدنيا والدين.

مراعى فيه السهولة في التعبير، مجتنباً كثرة مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون، بحيث تهتدي به العامة، وهو منتهى طلبة الخاصة، وهذه هي الطريقة التي توخاها في دروسه في الأزهر حكيم الإسلام، الأستاذ الإمام محمد عبده، قدس الله روحه...)[1].

ثانياً: تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي:

هو شقيق شيخ الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي، الذي كان تلميذاً مقدَّماً عند شيخه محمد عبده، والشيخ محمد لم يفسر القرآن كله، ولكن كانت له محاولات في التفسير، على صورة دروس ألقاها في بعض مساجد القاهرة والاسكندرية، طبعت باسم (الدروس الدينية).

أما الشيخ أحمد المراغي فقد قام بتفسير القرآن كاملاً، سماه (تفسير المراغي) ابتدأ تفسيره عام ١٣٦١، وصدرت طبعته الأولى عام ١٣٦٥.

وقد بيَّن في مقدمته الباعث له على التفسير، وهو أنه كثيراً ما كان يُسأل

---

(١) تفسير المنار ١٢: ١ صفحة العنوان.

من قبل طلابه: (أي التفاسير أسهل منالاً، وأجدى فائدة للقارىء في الزمن القليل؟ فكان يقف واجماً حائراً، لأن التفاسير على ما فيها من فوائد جمّة، وأسرار دينية عظيمة فإنها حشيت بالكثير من مصطلحات الفنون، من بلاغة ونحو وصرف، وفقه وأصول وتوحيد إلى نحو ذلك، مما كان يقف عقبة كأداء، أمام قارئيها. . .)[١].

بالإضافة إلى ما فيها من أقاصيص باطلة. أو تفسير للقضايا العلمية التي أشار إليها القرآن، بحسب المستوى العلمي لتلك العصر السالفة، والتي صارت ساذجة بالقياس إلى مكتشفات العلم الحديث.

لذلك أحس الشيخ المراغي بمسيس الحاجة (إلى وضع تفسير للكتاب العزيز يشاكل حاجة الناس في عصرنا، في أسلوبه وطريق رصفه ووضعه، ويكون داني القطوف، سهل المأخذ، يحوي ما تطمئن إليه النفس من تحقيق علمي تدعمه الحجة والبرهان، وتؤيده التجربة والاختبار. . . .)[٢].

أما منهجه في التفسير فإنه يقوم على النقاط التالية: -

١ - إيراد الآيات في صدر البحث.
٢ - شرح المفردات.
٣ - بيان المعنى الجملي للآيات.
٤ - بيان أسباب النزول.
٥ - الأعراض عن ذكر مصطلحات العلوم.
٦ - كتابة التفسير بأسلوب سهل يناسب العصر.
٧ - تمحيص روايات كتب التفسير[٣].

وطريقته في التفسير تقوم على تقسيم الآيات إلى مقاطع جزئية، كل آيتين أو ثلاث تكوّن مقطعاً، ويبدأ كلامه حولها بتفسير الكلمات الغريبة - إن

---

(١) تفسير المراغي. مقدمة الجزء الأول ١: ٣.
(٢) المرجع السابق: ١: ٤.
(٣) انظر بيان الشيخ المراغي لقواعد منهجه هذه في مقدمة الجزء الأول من تفسيره ١: ١٦ - ٢٠.

وجدت ـ ثم يُثَنِّي ببيان المعنى الجملي ـ على حد قوله ـ ويُثلث بالإيضاح المفصل لها، وتفسيرها تفسيراً تحليلياً.

وهو تفسير سهل المأخذ، واضح العرض، جاء دون ما أمَّله صاحبه في مقدمته، وهو يلبي حاجة المسلمين العاديين في فهم ساذج لآيات القرآن الكريم.

ثالثاً: الجواهر في تفسير القرآن الكريم: للشيخ طنطاوي جوهري:

يُعتبر الشيخ طنطاوي جوهري، هو أول من فسر القرآن الكريم كله، على ضوء العلم الحديث، وتناول آيات القرآن على أساس معطياته، ووفق آخر أخباره ونظرياته واكتشافاته، فقدم لنا تفسيراً علمياً شاملاً للقرآن، وهذا التفسير يلبي غرض صاحبه، ويدل على اهتماماته العلمية، فقد كان (مغرماً بالعجائب الكونية، معجباً بالبدائع الطبيعية، مشوقاً إلى ما في السماء من جمال، وما في الأرض من كمال..)[1] على حسب كلامه هو عن نفسه.

وسمّى تفسيره (الجواهر في تفسير القرآن الكريم، المشتمل على عجائب بدائع المكونات، وغرائب الآيات الباهرات)[2].

ابتدأ تفسير القرآن عندما كان مُدرساً بمدرسة دار العلوم، يُلقي تفسير بعض الآيات على طلبتها، وبعضه كان يكتبه في مجلة (الملاجيء العباسية)[3] ثم والى عمله في التفسير، حتى أتم تفسير القرآن كله.

يقرر الشيخ طنطاوي أن في القرآن من آيات العلوم، ما يربو على سبعمائة وخمسين آية. في حين أن علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة على مائة وخمسين[4].

وسمّى تفسيره (الجواهر) لأنه جعل الجوهرة بدل الباب أو الفصل،

---

(١) الجواهر في تفسير القرآن للشيخ طنطاوي جوهري ١: ٢.
(٢) المرجع السابق صفحة العنوان ١: ١.
(٣) المرجع السابق ١: ٣.
(٤) المرجع السابق ١: ٣.

والجوهرة يتفرع عنها الماسة الأولى والماسة الثانية، وهكذا[1]. . . .

وقد وضع في تفسيره كل ما يحتاجه المسلم من الأحكام وما لا يحتاجه، وملأه بعجائب الكون والخلق، وغرائب العلوم والاكتشافات.

وأشار طنطاوي إلى أن الله ألهمه إلى تأليف تفسيره على هذا المنهج العلمي ووفقه في السير فيه، فجاء ـ بالصورة التي ظهر بها ـ نفحة ربانية!! قال: « إن هذا التفسير نفحة ربانية، وإشارة قدسية، وبشارة رمزية، أُمرتُ به بطريق الإلهام وأيقنت أن له شأناً سيعرفه الخلق، وسيكون من أهم أسباب رقي المستضعفين في الأرض »[2].

وجاء تفسير الجواهر موسوعة علمية بحتة، تَحدث فيه صاحبه عن مختلف فنون العلم وألوانه، ومباحثه وأخباره، من فلك أو طب، أو زراعة أو صناعة، أو علوم طبيعية أو كونية، أو نظريات واكتشافات، أو فروض علمية، أو حقائق علمية ثابتة، حتى إنه ليَصْدق فيه القول المعروف (فيه كل شيء إلا التفسير)[3].

وقد كان الشيخ طنطاوي جوهري ـ مع مخالفتنا له في منحاه ـ حَسَن النية، إذ وجد أن الطريق الذي سار عليه في التفسير، يحقق بعث الأمة الإسلامية بعثاً جديداً في ميدان العلم الحديث.

ولبعض المؤلفين المصريين محاولات في التفسير العلمي لبعض آيات القرآن مثل: الدكتور حنفي أحمد، والدكتور محمد أحمد الغمراوي، والدكتور أحمد عبد السلام الكرداني، والدكتور عبد الرزاق نوفل، والدكتور عبد العزيز إسماعيل. . . . وغيرهم[4].

---

(١) اتجاهات التفسير للمحتسب: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) الجواهر ١: ٣ ولم يحدث ما توقعه المؤلف لكتابه. بل إنه لم يطبع إلا طبعة واحدة.

(٣) هو قول أُطلق ـ ظلماً ـ على تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) والأَوْلى أن يقال عنه (فيه كل شيء مع التفسير).

(٤) انظر تعريف الدكتور المحتسب ببعض نتاجهم وتقويمه له في: (اتجاهات التفسير: ٢٦ ـ ٢٩٥).

رابعاً: الهداية والعرفان في تفسير القرآن: لأبي زيد الدمنهوري:

ظهر هذا التفسير عام ١٣٤٩ هـ، عن مكتبة مصطفى الحلبي. وقد أحسن الدكتور محمد حسين الذهبي عندما صنفه ضمن قائمة اللون الإلحادي للتفسير في العصر الحاضر. فقد أحدث الكتاب ضجة في الأوساط العلمية والإسلامية، إذ عجبوا لجرأة صاحبه على الإلحاد في دين الله، وتحريفه معاني كتاب بالله. وكثرت الردود عليه في الصحف والمجلات، وشكّل الأزهر لجنة من العلماء للنظر فيه والحكم عليه.

وبعد النظر فيه، أصدرت حكمها عليه، ومما جاء في حكمها وصف صاحب التفسير بأنه (أفّاك خراص، اشتهى أن يُعرف، فلم يرَ وسيلة أهون عليه، وأوفى بغرضه، من الإلحاد في الدين، بتحريف كلام الله عن مواضعه، ليستفز الكثير من الناس إلى الحديث في شأنه وترديد سيرته)[١] ثم صودر الكتاب واختفى عن أعين الناس ﴿ فأما الزبد فيذهب جُفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾[٢].

خامساً: أوضح التفاسير لمحمد محمد عبد اللطيف ـ ابن الخطيب:

ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٣٥ وفق ١٣٥٤ هـ.

وقد اعتَبر ابن الخطيب تفسيره، كتاباً رئيسياً في كتب التفسير، ولا يستغني عنه قارىء لكتاب الله! وقد غالى في اعتبار قيمته وقدره، عندما وصفه بقوله: (يُغني عن جل التفاسير، حيث لا تغني كلها عنه)[٣].

وبيَّن في مقدمة تفسيره أنه كان شغوفاً بالقرآن منذ صغره، ويُكثر من توجيه أسئلة إلى العلماء، ولم يكن يقتنع بإجابات كثير منهم، وبيَّن أن هذا كان دافعاً له إلى أن يفسر القرآن الكريم. كما أشار إلى دافع آخر، وهو أنه تصفح أغلب كتب التفسير وأمهاتها، فوجد (أن جُلها ـ إن لم يكن كلها ـ قد

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ٣: ١٩٨. وانظر بيان الذهبي لكثير من أخطائه ٣: ١٩٨ ـ ٢١٢.

(٢) الرعد: ١٧.

(٣) أوضح التفاسير: صفحة العنوان.

يُجمع على ضلالة!!)[1] وهذا ادعاء عريض، وتَجنٍ ظالم، واتهام صارخ لكافة المفسرين، وسببه هو مبالغته في نظرته إلى تفسيره، ومغالاته في تقويمه.

وذكر طريقته في التفسير، وأنها تقوم على إطلاعه على نتاج السابقين من المفسرين وأخذ آرائهم المقبولة، وطرح غير المقبول منها. وقد توخّى في بعض المواطن الإقلال غير المخل، وفي بعضها الآخر الإكثار غير الممل. وبيَّن أنه لم يتوسع في تصريف الألفاظ، أو تحميلها ما لم تحتمله. وأنه أطال في المواضع التي جعلها المستشرقون والمبشرون شبهات ضد الإسلام، ورد على شبهاتهم فيها وفندها.

وأخبرنا أنه توجد بعض المواطن لم يوفق إلى حلها: (وقد أغفلت بضع مواطن، لم أوفَّق لحلها، ولم أهتدِ لتأويلها، ولم أجد فيما قاله فيها المتقدمون والمتأخرون، ما يرتاح إليه الضمير، وينشرح له الصدر، فتركته راغماً لا راضياً، وهذا نهاية عزمي، وقصارى جهدي)[2].

وقد وضع ابن الخطيب تفسيره على هامش صفحات المصحف الشريف. وهو في مجمله لا يعدو أن يكون تفسيراً لفظياً لكلمات القرآن، مع بيان موجز لبعض القضايا والجزئيات.

ويبدو ـ من خلال اتهامه للمفسرين السابقين أنهم أجمعوا على ضلال ـ أن ابن الخطيب بالغ في تقدير كتابه مبالغة واضحة، كما جاء في حكمه له بقوله: (قد جاء ـ رغم صغر حجمه ـ كبير النفع، جزيل الفائدة، ولا بدع في ذلك، فالمثقال من الماس يفضل القناطير من النحاس[3].

سادساً: صفوة العرفان في تفسير القرآن: لمحمد فريد وجدي:

بيَّن فريد وجدي في مقدمة تفسيره ـ الذي صدرت طبعته الأولى عام

---

(1) المرجع السابق: المقدمة. صفحة: س.
(2) المرجع السابق حرف: ص.
(3) المرجع السابق: حرف: ق.

١٣٢١ هـ ـ الباعث له على تأليفه، وهو أن المسلمين في العصر الحديث، لا يفهمون مرامي القرآن وأهدافه، وكثيرين منهم يتلونه بدون فهم أو تدبر، ويجهلون تفسير كلماته، ولا يعرفون أسباب نزوله، فأقدم هو على (وضع تفسير للقرآن الكريم، مستمد من كتب التفسير المعتبرة، لا باللفظ ولكن بالمعنى الحقيقي، لنتمكن من وضع المعنى في أبسط وأرق القوالب العربية العصرية، التي اعتادها الناس، وصارت ملكة فيهم).

أما طريقته في التفسير فقد بيَّن أن السابقين بلغوا في تفسير القرآن الغاية، ولهذا جاء بأفكارهم هم، بأسلوب عصري. قال: (إننا لم نضع من فكرنا الخاص في المعنى الجوهري للآيات شيئاً، لأنا رأينا بالاختبار أن سلفنا الصالح، قد بلغ من ذوق المعاني القرآنية، والسيح في مغازيها الصحيحة، الغاية القصوى)[١].

وجهد الرجل في تفسيره (صفوة العرفان) يظهر في وضع مقدمة مطولة في تاريخ القرآن، وكيفية نزوله وقراءاته، وجمعه وترتيبه، وحفظه من التبديل والتحريف. ثم حل الألفاظ اللغوية، وتفسير الكلمات الغريبة. كذلك بيان أسباب النزول، وبيان الناسخ والمنسوخ[٢].

ووعد بأن يجعل في نهاية تفسيره فهرساً لآيات الفقه والفرائض والأحكام. وفهرساً آخر لآيات القرآن وتصنيفها بحسب موضوعاتها. وفهرساً ثالثاً للقراءات. يورد فيه وجوه قراءة كل آية، وتوجيه كل وجه منها. ولكنه ـ للأسف الشديد ـ لم يعد هذه الفهارس ولو أعدها لقدم خدمة ـ مبكرة ـ لقارئي القرآن، ودارسي تفسيره[٣].

وهو في تفسيره لم يفسر جميع الآيات، ولا كل كلمات الآية، وإنما كان يفسر الكلمات الغريبة في الآية، وإحياناً يشير إلى القراءات فيها، ثم

---

(١) صفوة العرفان لوجدي: ١٠.

(٢) انظر المقدمة ـ كاملة ـ في (صفوة العرفان): ١٠ ـ ١١.

(٣) المرجع السابق: ١١.

يبين معنى الآية الإجمالي. وكان ينتقي آية أو آيتين من آيات الصفحة الواحدة، يفسرها على هذه الطريقة، ويترك الآيات الأخرى بدون تفسير.

وقد وضع تفسيره على هامش صفحات المصحف الشريف.

سابعاً: المصحف المفسر: لمحمد فريد وجدي:

هذا تفسير آخر لمحمد فريد وجدي، ويبدو أنه اعتبر تفسيره الأول (صفوة العرفان) لا يفي بغرضه، ولا يحقق غايته، فعدل عنه وألف تفسيره الجديد.

أما الباعث له على تأليف هذا التفسير فقد بيَّنه في مقدمته، إذ كان يحتاج إلى بيان بعض معاني الآيات، ويبحث في التفاسير كلها، فلم تسعفه بما يريد (من أقرب الطرق وأسهلها) لأن المطولات لا يتسع وقته لها، والمختصرات قصد منها وضع حلول للمسائل الفنية المختصرة. بينما كان مراده هو (تفسيراً يُعطي الألفاظ العربية حقها من البيان، ويعرض للمعنى بعبارة خالية من المسائل الفنية، مع بيان أسباب نزول الآيات).

وبما أنه لم يجد طلبته في التفاسير، لذلك شرع يضع لنفسه تفسيراً يحقق الأغراض التي يريدها، يكتبه على هامش المصحف، ويجعله عمدة له في تلاوته للقرآن. وقبل أن يُتمه أدرك أن هذا طلبة كل تال للقرآن، فأتمه وطبعه ليعم به النفع.

أما طريقته في التفسير ـ كطريقته في صفوة العرفان ـ فقد بيَّن أنها تقوم (على استخلاصه من الآراء المجمع عليها لدى أئمة المفسرين، وأقطاب أهل السنة) فإذا خرج عن هذا، عزاه إلى صاحبه.

وقد اعتنى في تفسيره باللغة (عناية لم يعن بها مفسر من السابقين)!! ـ على حد قوله! ـ لأنهم: (فيما يظهر ـ لغزارة مادتهم اللغوية ـ لم يلموا من لغة القرآن إلا بالغريب، الذي يعلو عن متناول كثير من الخاصة) بينما القرآن الكريم (جمع أوجه كلمات اللغة العربية، وعقائل مفرداتها...).

وتظهر عنايته باللغة بقوله (فشرحنا المفردات، شرحاً وافياً، ودللنا على أصولها، وأتينا بمشتقاتها، والتزمنا أن نشرح اللفظ حيث وجدناه، ولو صادفناه في كل صفحة من صفحات المصحف. . .)[1].

ثامناً: صفوة البيان لمعاني القرآن: لحسنين محمد مخلوف:

ظهر هذا التفسير عام ١٩٥٦ وفق ١٣٧٥ هـ. وهو تفسير سهل ميسر للقرآن، أشبه ما يكون بتفسير كلمات، ووقفات سريعة حولها.

وقد بيَّن مخلوف في مقدمته، أنه استخار الله تعالى في عمل التفسير، بعدما رغب اليه كثير من طلبة العلم في تأليفه، وتمنَّوا أن لو كان (واضح العبارة، داني المجتنى، مقتصراً على ما لا بدّ من تفسيره من الآيات والمفردات، يستغنى به عن استيعاب المطولات، كما يستغنى به عن المختصرات التي يدق على الأذهان فهمها. . .) فوضعه ليحقق تلك الأمنيات.

وللمؤلف كتاب مختصر ومفيد، في تفسير مفردات القرآن، تفسيراً لفظياً، حسب معناها في سياق الآيات. وهو كتاب (كلمات القرآن تفسير وبيان).

ويبدو أنه وضعه قبل تفسير (صفوة البيان) ثم (لدى إعادة النظر فيه، وجدتُ الحاجة ماسة، إلى تفسير آيات أخرى، على النحو الذي قصدت، وإن لم تشمل غريب القرآن، فضممت تفسيرها إلى ما بدأت به، واكتمل من الجميع هذا التفسير. .)[2].

تاسعاً: التفسير الواضح: لمحمد محمود حجازي:

ابتدأ تأليفه عام ١٩٥١ وفق ١٣٧٠ هـ. وأشار في مقدمته إلى اختلاف تفاسير القرآن، بحسب اختلاف مناهج وأهداف أصحابها. وأصبح الكثير منها

(١) انظر مقدمة (المصحف المفسر) لمحمد فريد وجدي.
(٢) انظر مقدمة (صفوة البيان لمعاني القرآن) لحسنين محمد مخلوف: ١ ـ ٦.

موسوعات لا يستفيد منها إلا من كان ملماً بقدر كبير من اللغة والأدب والأحكام والاصطلاحات العلمية.

لذلك أصبحت الحاجة ماسة في العصر الحديث إلى وضع تفسير للقرآن الكريم، يُكتب (بلغة سهلة واضحة، لا تَعمق فيها ولا إبعاد، خالية من الاصطلاحات العلمية الفنية، تفسر للشعب كل ما فيه، من صوغ المعنى الإجمالي للآية بلغة العصر، مع البعد عن الحشو والتطويل والخرافات الإسرائيلية، والاعتدال في الرأي...) وأشار إلى أنه (لا طاقة للناس الآن بالإطالة فيما لا شأن له بأصل الغرض من التفسير، إذ المهم أن يفهم القرآن أكبر عدد من المسلمين...)[1].

أما غاية الشيخ حجازي من تفسيره، فهي (وجه الله، في إفهام ما ينطوي عليه القرآن من معنى ظاهر، بأوجز لفظ، وأسهل أسلوب، ليغزو شعاعه كل قلب، ويعمر هداه كل نفس...)[2].

عاشراً: تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم: للشيخ عبد الجليل عيسى:

هكذا سمّى المؤلف تفسيره، الذي انتهى منه في مطلع عام ١٣٧٧ هـ. وقد بيّن الشيخ عبد الجليل عيسى في مقدمته لتفسيره، أن الدافع الأساسي، الذي دفعه لتأليف تفسيره، هو اختلاف الثقات من المسلمين المعاصرين، في جواز كتابة القرآن وفق قواعد الإملاء الحديث، هذا وإن الحق كان مع من منع ذلك ـ على حسب قوله ـ والصواب كان حليفهم (لأن القرآن هو عمدة هذا الدين، وطرق الإملاء الحديثة تختلف باختلاف أقطار المسلمين، بل قد تختلف باختلاف جوانب القطر الواحد، فإذا فُتح باب كتابته بالإملاء الحديث، تسرب له ما تسرب للكتب السابقة من التحريف والتغيير...).

(١) التفسير الواضح: لمحمد حجازي ١: ٥.

(٢) المرجع السابق: ١: ٧.

لذلك فكر الشيخ عبد الجليل مع نفر من المسلمين الغيورين، في الوصول إلى طريق مشروعة، يذللون بها تلك الصعوبة التي يجدها بعض قراء القرآن، من بعض قواعد الرسم العثماني. . . وبعد طول تفكير، اهتدوا إلى تلك الطريق التي تجمع بين المصلحتين (مصلحة القارىء في التسهيل عليه، ومصلحة المحافظة على الرسم العثماني الذي توارثه المسلمون هذه القرون الطويلة. . . .).

ولما عزم على تنفيذ ما اهتدى إليه، رغب إليه بعض إخوانه (أن ينضم إلى تسهيل قراءة القرآن تيسير فهمه على القارىء العادي، ولو باختيار تفسير مختصر من التفاسير الكثيرة، يوضع على هامش المصحف).

فاستعرض الشيخ كل التفاسير، ولم يجد من بينها واحداً يفي بالمطلوب، ويحقق الغرض!! إذ أن منها ما وضع للعلماء، ومنها ما ارتفع به صاحبه عن مستوى القارىء العادي، ومنها ما أطال فيه صاحبه تطويلاً مملاً، ومنها ما اختصره صاحبه اختصاراً مخلاً، ومنها ما ملأه صاحبه بغرائب الحكايات، وأباطيل الإسرائيليات.

وأمام هذا الحال، رأى نفسه أنه هو المرشح للقيام بالمهمة المطلوبة، ووضع التفسير المأمول. قال: (بعد ذلك استقر الرأي على أن يُعهد إلينا بوضع تفسير مختصر، يوضح معنى اللفظ الغريب، وما لا بدّ منه في فهم التركيب. على أن نُبعد عنه ما استطعنا العبارات الاصطلاحية، والخلافات الطائفية والمذهبية، وإذا اضطررنا لذكر بعض الاصطلاحات، فإننا لا نذكرها إلا في مقدمة الصفحة بين تفسير المفردات. ولكن عندما نقول (المعنى) فإننا حرمنا على أنفسنا ذكر شيء من ذلك مطلقاً. . . .).

وأخبرَنا أن كل الذي فعله في تفسيره المختصر، هو (أننا أعددنا مصباحاً صغيراً يكشف بعض معالم الطريق، لمن أراد استجلاء بعض أسرار كتاب الله).

إن من أظهر مزايا هذا التفسير هو الجمع بين المحافظة على الرسم

العثماني للقرآن، وبين تسهيل قراءته على القارىء، وذلك أن صاحبه كان يضع بالإملاء الحديث - على هامش صفحة المصحف - رسماً للكلمات الموجودة في صفحة المصحف بالرسم العثماني المخالف لقواعد الإملاء الحديث[1].

أحد عشر: التفسير القرآني للقرآن: لعبد الكريم الخطيب:

ظهرت الطبعة الأولى لهذا التفسير في مطلع عام ١٩٦٧.

وقد أشار في مقدمته إلى الجفوة الغليظة المستحكمة بين المسلمين وبين القرآن في هذا الزمان، وأنها قد تداعت عليها دواعٍ عديدة.. فصار القرآن في نظرنا تراثاً من مخلفات الآباء والأجداد، وصرنا بعيدين كل البعد عن القرآن...

ويرى أن أهم عاملين صرفانا عن كتاب الله: (الخلافات السياسية والمذهبية بين المسلمين، منذ الخلافة الراشدة. والتعويل على الفقه تعويلاً كاملاً، وربط المسلمين به ربطاً محكماً، حيث تحول الفقه والفكر الإسلامي إلى قوالب جامدة، لا تؤثر في حياة المسلمين...)[2].

ودعا - في مقدمة تفسيره - إلى الفهم الصحيح السليم لكتاب الله، عن طريق إطالة التأمل والتدبر لآياته، والتذوق لأساليب بيانه، والوقوف على بعض أسراره... وبيّن أن هذا الطريق يحقق لنا أمرين: اتصالنا بكتاب الله اتصالاً وثيقاً مباشراً. وتصور مسائل الدين تصوراً واضحاً محدداً، بلا ذيول ولا معلقات (!!!)[3].

وبيّن في مقدمته أنه صحب - أثناء إعداد تفسيره - القرآن الكريم فقط، ولم ينظر إلى غير كلماته وآياته. قال: (ومن أجل هذا كانت صحبتنا هذه

---

(١) انظر مقدمة التفسير كاملة.

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ١: ٨ - ٩.

(٣) المرجع السابق ١: ١١.

لكتاب الله على هذا الوجه، الذي لا ننظر فيه إلى غير كتاب الله، وإلى تدبر آياته، بعيداً عن طنين المقولات الكثيرة، التي جاءت إلى القرآن من كل صوب، وكادت تخفت صوته. . . إننا في صحبتنا هذه للقرآن لا نقيم نظرنا إلى غير كلماته وآياته، ولا نخط على هذه الصفحات غير ما يسمح لنا به النظر في كلماته وآياته. . .)[١].

إن تركيزه الشديد على أنه لا ينظر إلا إلى القرآن، وتأكيده المستمر على أنه لا ينظر إلى غيره، لَيثير الشكوك حول موقفه من السنة، ومن مصادر التشريع الأخرى، ومن الفقه الإسلامي، ونتاج الفقهاء في مختلف العصور!!

ولم يعتبر الخطيب كتابه هذا تفسيراً للقرآن بالمعنى المعروف، وإنما هو نتاج صحبته له، وترتيله لآياته[٢].

وبيَّن في مقدمته طريقته في التفسير بقوله: (نحن نرتل آيات الله ترتيلاً. . آية آية، أو آيات آيات. . ثم نقف لحظات نلتقط فيها أنفاسنا المبهورة، لما تطالعنا به الآية أو الآيات من عجب ودهش وروعة، ثم نمسك القلم، لنمسك به على الورق بعض ما وقع في مشاعرنا من صور العجب والدهشة والروعة. . .)[٣].

ويلاحظ أن تفسيره تفسير أدبي عاطفي، صاغه بأسلوبه الأدبي الخاص به، وليس به علم غزير. أو فوائد مجزية!!

وقد أجرى ـ أثناء تفسيره ـ بعض دراسات قرآنية، جاءت كمباحث من التفسير الموضوعي وذلك كحديثه عن الجن وإبليس والشيطان[٤]، وعن آدم وزوجته وجنته وشجرته[٥]، وعن النسخ في القرآن[٦].

---

(١) المرجع السابق ١ : ١١.
(٢) المرجع السابق ١ : ١١.
(٣) المرجع السابق ١ : ١١ ـ ١٢.
(٤) المرجع السابق ١ : ٥٤ ـ ٥٨.
(٥) المرجع السابق ١ : ٥٨ ـ ٧٧.
(٦) المرجع السابق ١ : ١٣٩ ـ ١٦١ وانظر دراسة جيدة أعدها الدكتور عبد المجيد المحتسب =

اثني عشر: التفسير الفريد للقرآن المجيد: للدكتور محمد عبد المنعم الجمّال:

وهو تفسير للقرآن على أسس التفسير العلمي، ويتبع المدرسة العلمية في التفسير، إذ يرى مؤلفه أن معجزات القرآن العلمية لا زالت تكشف يوماً بعد يوم، كلما تقدمت العلوم والاكتشافات. ويرى أن الكثير من كنوز القرآن العلمية ما زالت مذخورة، لم يوفَّق أحد إلى بيانها حتى الآن!! ولكن (سيأتي اليوم - بمشيئة الله تعالى - الذي يحاول فيه العالِم استخراج كنوز العلوم والفنون من بين كلمات القرآن ومعانيه. . .).

وقرر أن هناك شطراً كبيراً من القرآن الكريم ما زال بغير تفسير ولا فهم ولا بيان!! (ولئن لم يبرز من رجالنا العدد الوافر الذي يجمع بين تقوى الله، وفقه الدين، والعلوم المختلفة. فسيظل ذلك الشطر الكبير من القرآن الكريم بغير تفسير يليق به، وستظل الدعوة إلى الله تعالى في هذا العصر العلمي، محرومة من أمضى أسلحتها. . .)

أما الباعث له على تأليف تفسيره، فهو أنه كان يلتقي في بريطانيا ببعض الانجليز الذين أسلموا، وكانوا يلحون عليه في أن يوافيهم ببعض تفاسير القرآن، ولكنه رأى أن جميع ترجمات معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية لا تفي بالغرض، لأنها لا تستوعب النواحي العلمية، فرأى نفسه أنه المرشح لإداء هذه المهمه. . (لذلك سألت الله أن يوفقني إلى تفسير القرآن الكريم على ضوء العلم الحديث، مسترشداً في ذلك بـأقوال العلمـاء، الشرقيين منهم والغربيين. . .)[١].

ثلاثة عشر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم:

وضع واختيار لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر.

= حول التفسير، ضمن كتابه (اتجاهات التفسير في العصر الحديث) وضمَّنها ملاحظاته عليه ونقده له: ٧١ - ٩٩.

(١) انظر المقدمة كاملة في الجزء الأول من التفسير.

وقد بيَّنت اللجنة في مقدمة المنتخب أن التفاسير القديمة اختلفت باختلاف أنظار المفسرين وطرقهم ومشاربهم، وأنها تنوعت ما بين تفسير مطول ممل، أو مختصر مخل. وأن الضرورة تقضي وضع تفسير عصري يعالج مشكلات العصر، ويلبي حاجة المعاصرين. ولذلك شكلت لجنة من (جهابذة العلماء، وفطاحل الباحثين والمفكرين، ليتوفروا على تأليف هذا التفسير، بأسلوب عصري سهل ميسر، واضح العبارة، وجيز لا يخل ولا يمل، بعيد عن الخلافات المذهبية، والمصطلحات الفنية، والحشو، والتعقيدات اللفظية. حتى يكون على حالة مُرضية من الصلاحية لترجمته إلى اللغات الأجنبية..).

هذا.. وهناك تفاسير أخرى مختصرة منها: تفسير الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي، الذي أطلق عليه اسم (تفسير خفاجي) وتفسير (الترتيب والبيان عن تفصيل آي القرآن) لمحمد زكي صالح. ومصحف الشروق المفسر الميسر، الذي صدر عن دار الشروق وهو اختصار تفسير الطبري.

وهناك مفسرون معاصرون من خارج مصر، طبعوا تفاسيرهم في مصر، مثل الشيخ جمال الدين القاسمي، صاحب تفسير (محاسن التأويل) والسيد محمد عزة دروزة، صاحب (التفسير الحديث).

وممن شرع في تفسير القرآن ولم يتمه من المصريين المعاصرين، الشيخ محمود شلتوت في كتابه (تفسير القرآن الكريم) الذي وصل فيه إلى نهاية سورة التوبة. ولم يفسر الآيات كلها تفسيراً تفصيلياً. وإنما تفسيره ـ كما يقول الدكتور محمد البهي في تقديمه له ـ (تفسير مشكلات التفسير) أو (أجدر أن يسمى تعقيباً على تفسير المفسرين).

ومنهم الشيخ أحمد شاكر، الذي اختصر تفسير ابن كثير في كتابه (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير) وكان له فيه جهد آخر غير الاختصار، وهو التحقيق والبيان لكثير من القضايا التفسيرية، وتخريج الأحاديث والأقوال، والتكلم على رجال الإسناد، وإضافات في بعض المواضع على

كلام ابن كثير، وصياغته بأسلوب عصري مقبول، وحذف المكررات من الأقوال والروايات.

وقد انتقل الشيخ أحمد شاكر إلى رحمة الله، أثناء اختصاره تفسير ابن كثير لسورة الأنفال.

والدكتور محمد البهي فسر كثيراً من سور القرآن الكريم، كل سورة في كتاب مستقل تحت عنوان (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) وهو ليس تفسيراً بالمعنى الحرفي، ولم يتناول تفسير الآيات كلها تفسيراً تفصيلياً، وإنما تسجيل لخواطره وآرائه حول الآيات. وللدكتور البهي آراء جريئة في بعض القضايا التفسيرية. مثل موقفه من الجن ووجودهم، ومحاولته تعليل وجودهم تعليلاً مادياً، وميله إلى إنكار وجودهم كعالم مستقل في تفسيره لسورة الجن.

والشيخ محمد متولي الشعراوي، أصدر تفسيراً لبعض قصار السور، كل عدة سور في كتيب صغير.

ومن المصريين مَن فسر بعض أجزاء من القرآن. مثل الشيخ عبد القادر المغربي في تفسيره لجزء تبارك والسيد أحمد حسين في تفسير (الفاتحة وجزء عم).

ومنهم من فسر بعض موضوعات القرآن، كتفسير موضوعي. مثل الدكتور حنفي أحمد في كتابه (التفسير العلمي للآيات الكونية) والدكتور يوسف القرضاوي في كتابه (الصبر في القرآن) والدكتور محمد جميل غازي في كتابه (من مفردات القرآن).

ومنهم من فسر سورة واحدة من سور القرآن كالدكتور مصطفى زيد في تفسيره لسورة الأنفال. بل إن منهم من اقتصر على تفسير آية واحدة من آيات القرآن، وأصدره في كتاب كبير الحجم. مثل الشيخ عباس الجمل في كتابه (تفسير آية البر من القرآن الكريم)!!.

.. من هذا الاستعراض السريع، والتعريف الموجز، بكتب التفسير في العصر الحديث، نلاحظ أن هذه التفاسير تتفاوت.. فمنها ما هو مختصر

موجز، كتفاسير ابن الخطيب وفريد وجدي وحسنين مخلوف، ومنها ما هو وسيط كتفاسير عبد الكريم الخطيب وأحمد المراغي ومحمد حجازي، ومنها ما هو مطول كتفسير المنار لرشيد رضا الذي فسر القرآن من أوله وحتى منتصف سورة يوسف في اثني عشر جزءاً كبيراً.

كما نلاحظ أن هذه التفاسير تأثرت بمدرسة محمد عبده في التفسير، وتفاوت تأثرها بها، فمنها ما سار على منهج محمد عبده في التفسير كالشيخ رشيد رضا في الأجزاء الأولى من المنار. ومنها ما بدا تأثره به واضحاً كالشيخ أحمد المراغي في تفسيره، وعبد الكريم الخطيب في التفسير القرآني للقرآن. ومنها ما كان تأثره به أقل كابن الخطيب في أوضح التفاسير.. ومعروف أن المتعمقين من الباحثين وجهوا ملاحظات وانتقادات جوهرية على مدرسة محمد عبده الفكرية.

كما يلاحظ أن هذه التفاسير كلها لا تعدو أن تكون تفسيراً نظرياً للقرآن الكريم يهدف أصحابها إلى (تثقيف) المسلم المعاصر، وتزويده بزاد ثقافي نظري بأسلوب عصري.

والذين تعرضوا للمادية الجاهلية المعاصرة في تفاسيرهم، تعرضوا لها من موقف (الدفاع) عن الإسلام ومناهجه، والقرآن وتشريعاته، ونقض شبهاتها حول الدين الإسلامي ومبادئه وقيمه.... ومنهم من نقدها وهو (مضبوع) بها، مبهور بتقدمها، مأخوذ برقي أصحابها المادي والعلمي، مما ترك ظلالاً سلبية على (دفاعه) علاوة على أن موقف المدافع موقف ضعيف.

... لذلك ما زالت الحاجة ماسة لتأليف تفسير معاصر للقرآن الكريم، يستدرك ما قصر عنه المفسرون المعاصرون، ويراعي الملاحظات السابقة على تفاسيرهم المعاصرة..

وما زال المسلمون ينتظرون تفسيراً للقرآن لكريم، يهدف فيه صاحبه إلى تحقيق الغرض الأساسي للقرآن الكريم، الذي يهدف إلى هداية الإنسانية إلى خيري الدنيا والآخرة، وإلى صياغة الشخصية المسلمة،

وتربيتها بالقرآن، وإلى إنشاء الأمة المسلمة، وإخراجها على نصوصه الكريمة. تفسير يهدف إلى التربية العملية للمسلم. وليس عرض الثقافة النظرية... تفسير يضع بين يدي المسلم دليلاً عملياً مكتوباً، إلى تربية نفسه، وتعرُّف ملامح مجتمعه، وتبيُّن معالم طريقه، وليس دليلاً ثقافياً لعلوم القرآن والتفسير، أو (تثقيف) المسلم بزاد ثقافي ضخم!!

تفسير يهاجم المادية الجاهلية في صميم أفكارها ومناهجها، ويبيِّن بواعث هجمتها الشرسة على الأمة المسلمة، ويعرِّف على طبيعة المعركة معها، ويقدم الإسلام ومناهجه بأصالة ذاتية، ومعاصرة متعمقة، ويقود الفكر الإسلامي من مرحلة (الدفاع على استحياء) إلى مرحلة الهجوم المحدد المباشر...

تفسير يتعرف على مهمة القرآن الحركية العملية، يُدخل القرآن المعركة الحالية بين الإسلام والجاهلية، ويطبق نصوصه الحية على الواقع المعاصر، ويعطي معانيها حياة وحيوية وبُعْداً تفسيرياً معاصراً...

تفسير يتجاوز فيه صاحبه عصر الخلاف المذهبي والفقهي... ويتلقى مباشرة من معين القرآن، بعد حياته الطويلة في ظلاله، ومعايشته الحية لمعانيه.. ويدخل فيه عالم القرآن الرحيب، بدون مقررات فكرية مسبقة.. وإنما يطلب من القرآن أن يصوغ له فكره، ويُنشىء له فكره ومناهجه، يسجل إيحاءات القرآن، ويستخرج دلالاته، ويعرض مبادئه وقيمه، ويبيِّن مهمته الحية الحركية المعجزة....

تفسير يخوض صاحبه معركة واقعية مع الجاهلية، ويعيش تجربة واقعية مع نصوصه ويحيا حياة فعلية في ظلاله...

تفسير يكتبه صاحبه من الميدان.. لا من وراء المكاتب أو خلف الجدران!!!

وبقيت النفوس تنتظر، والساحة شاغرة، حتى جاء سيد قطب بظلال القرآن، فملأ الشاغر، وتبوأ المكانة، ولبى الرغبة، وحقق الحاجة....

الفصل الثاني

في ظلال القرآن
لماذا هذا العنوان؟

قد يتساءل الباحث: لماذا اختار سيد قطب لتفسيره هذا العنوان المثير (في ظلال القرآن)؟؟ وهل لهذا العنوان صلة بحياته التي عاشها مع القرآن؟ وهل له صلة برأيه في القيم الشعورية والقيم التعبيرية في العمل الأدبي[1]؟ وهل له صلة برأيه في دور ظلال الألفاظ والعبارات في دلالاتها في العمل الأدبي؟

أخبرنا في مقدمة الطبعة الأولى من الظلال أن هذا العنوان لم يتكلفه، ولكنه يمثل حقيقة عاشها مع القرآن: (عنوان لم أتكلفه، فهو حقيقة عشتها في الحياة. . . . . فبين الحين والحين كنت أجد في نفسي رغبة خفية في أن أعيش في ظل القرآن فترة، أستروح فيها ما لا أستروحه في ظل سواه. . . .)[2].

فهو ـ وإن لم يتكلف إطلاق هذا العنوان على تفسيره ـ يرتبط ارتباطاً مباشراً بصلته الحية مع القرآن، ويعتبر تسجيلاً لأهم مكاسبه من هذه الحياة، وتدويناً لمختلف خواطره حول نصوص القرآن، وبياناً لما كان يخالج نفسه وهو يستروح الجو العلوي اللطيف، في ظل القرآن الوريف!

---

(١) انظر فصل «القيم الشعورية والقيم التعبيرية في العمل الأدبي» في كتاب النقد الأدبي لسيد قطب.

(٢) في ظلال القرآن ـ الطبعة الأولى ـ ١ : ٥.

ولذلك فهو يعتبر الحياة في ظلال القرآن نعمة، ترفع العمر وتباركه وتزكيه، وحمَد الله الذي منّ عليه بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذاق فيها من نعمته ما لم يذق قط في حياته[1]. وقد بينّ في مقدمة الطبعة المنقحة للظلال أهم مكاسبه من الحياة في ظلال القرآن. وأهم النتائج التي خرج بها منها[2].

ومن أجل هذا كم كان رائعاً وصحيحاً وصف محمد قطب للظلال بقوله: (الكتاب الذي عاشه صاحبه بروحه وفكره وشعوره وكيانه كله.. وعاشه لحظة لحظة.... وفكرة فكرة.. ولفظة لفظة.. وأودعه خلاصة تجربته الحية في عالم الإيمان..)[3].

القيم الشعورية والقيم التعبيرية في العمل الأدبي:

وحتى نعرف إيحاءات هذا العنوان «في ظلال القرآن» في نفسه وهو يطلقه على تفسيره، لا بدّ أن نبين الصلة بينه وبين القيم الشعورية والقيم التعبيرية في العمل الأدبي، وكذلك الصلة بينه وبين رأيه في ظلال الألفاظ والعبارات ودورها في الدلالة المتكاملة للعمل الأدبي!

إن سيد قطب يرى ـ في كتابه النقد الأدبي أصوله ومناهجه ـ أن «العمل الأدبي وحدة مؤلفة من الشعور والتعبير، وهي وحدة ذات مرحلتين متعاقبتين في الوجود بالقياس الشعوري... ولكنهما بالقياس الأدبي متحدتان في ظرف الوجود»[4].

ولهذا توجد صعوبة مادية في تقسيم العمل الأدبي إلى لفظ ومعنى، أو شعور وتعبير.

أما القيم الشعورية ـ أو المعنى في اصطلاح النقاد القدماء ـ فإنها

(١) المرجع السابق ـ الطبعة المنقحة ١: ١١.
(٢) انظر مقدمة الطبعة المنقحة كاملة ١: ١١ ـ ١٨.
(٣) المرجع السابق ١: ٩.
(٤) النقد الأدبي لسيد قطب: ١٩.

تحمل طابع الذاتية الشخصية للأديب، الذي لا يفارق صاحبه في لحظة من اللحظات. .[1] وأخص هذه القيم الشعورية في رأيه هي (الخصوصية في الشعور، ومدى العمق والشمول في الاتصال بالكون والحياة، وصحة الشعور، وصدق الاتصال. . .)[2].

ونظراً للارتباط الوثيق بين القيم الشعورية والقيم التعبيرية، فإن الأخيرة تؤثر في الصورة التي تنقل بها القيم الشعورية للآخرين، بحسب الطريقة التي تنقلها بها، وذلك لأن «وظيفة التعبير في الأدب لا تنتهي عند الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات بل تضاف إلى هذه الدلالة مؤثرات أخرى يكمل بها الأداء الفني، وهي جزء أصيل من التعبير الأدبي. هذه المؤثرات هي: الإيقاع الموسيقي للكلمات والعبارات، والصور والظلال التي يشعها اللفظ وتشعها العبارات زائدة على المعنى الذهني، ثم طريقة تناول الموضوع والسير فيه. . . . .)[3].

فالتعبير تابع للشعور ومرتبط به، وقيمة التعبير لا تكمن في الألفاظ أو معانيها فقط ـ على الخلاف بين القدماء حول اللفظ والمعنى لأيهما المزية والفضل ـ وإنما يضاف إليهما الإيقاع والصور والظلال.

الصور والظلال في العمل الأدبي:

إن سيد قطب يكاد يكون صاحب نظرية فريدة في النقد الأدبي، حيث تجاوز نظرية اللفظ ونظرية المعنى، إلى نظرية الصور والظلال، فللَّفظ والمعنى دور في النقد الأدبي، وأثر في العمل الأدبي، لكنه ليس كل شيء. وإنما للصور التي ترسمها الألفاظ والعبارات، والظلال التي تلقيها دور أساسي في العمل الأدبي، وأثر مباشر في بَلاغته وتقويمه.

إن الألفاظ كما تدل على معانيها الذهنية، فإنها تدل على الصور

(١) المرجع السابق: ٢٠ ـ ٢١.
(٢) المرجع السابق: ٣٢.

والظلال المصاحبة لها، سواء تلك التي صاحبتها عند إطلاقها أول مرة أو التي صاحبتها أثناء رحلتها عبر القرون والأجيال.

إن جَرْس اللفظ ـ الناشيء من مخارج حروفه ـ له حسابه في الدلالة المعنوية للَّفظ، ويضاف إليهما صورة المشهد أو الحادث الذي صاحب إطلاق اللفظ، والتي استحالت إلى ذكرى شعورية ترد على الخيال كلما ذكر اللفظ، ورن جرسه في السمع[1]. . . كذلك للَّفظ ظلال خاصة لها أثرها في الدلالة، وهي التي تتكون من الملابسات والمشاعر الكثيرة التي صاحبته على مدى الأجيال والقرون. والملابسات والمشاعر التي صاحبته في نفس الأديب وهو يطلقه[1]. .

هذه الظلال ـ أو الملابسات والمشاعر ـ تختلف من فرد إلى فرد بحسب المشاهد والتجارب التي مرت بهذا الفرد وبحسب استجابة كل فرد لما يمر به من هذه المشاهد والتجارب. ويكون المجال مفسوحاً لظلال شتى، وأنماط لا تحصى من الانفعالات والمشاعر، عند استعمال لفظة من الألفاظ[2].

أما كيف يستخدم الأديب الألفاظ ـ مع جرسها وإيقاعها وصورها وظلالها ـ للدلالة على تجاربه الشعورية الكامنة؟ ونقل تجربته وما يحسه للآخرين؟ يجيب سيد قطب بأن هذا لا يتحقق إلا عند الانفعال! وكلما تحقق لهذا الانفعال توهج وحرارة وإشراق يغمر إحساسه ويجعله في شبه نشوة، أو في شبه غيبوبة، كلما كان صادقاً في التعبير به عما يحسه، ناجحاً في بيانه للآخرين، مؤثراً فيهم تأثيراً ساحراً عجيباً[3].

وفي هذه الحالة يتم التعبير عن الحالة الشعورية بنصف وعي! (أي أن اختيار الألفاظ وتنسيقها لا يتم بإرادة كاملة الصحو، إنما تقفز الألفاظ

---

(١) النقد الأدبي: ٣٤ ـ ٣٥.
(٢) المرجع السابق: ٣٥.
(٣) المرجع السابق: ٣٦.

والعبارات وتتناسق وتتناغم، وكأنها تصنع ذلك بدون اختيار، وقد يُتم الشاعر عمله في هذه الحالات الفذة ثم يراجعه، فيعجب لنفسه، كيف واتته القدرة على صوغ هذه العبارات، وقد يقف أمام بعضها معجباً متعجباً، كما لو كان يشهدها أول مرة. . .»[1].

وليست هذه الحالة خاصة بالشعر فقد توجد في القصة. وفي البحث حين يرتفع إلى المستوى الشعري. . .

ويعترف سيد قطب أن هذه الحالة الشاعرية المؤثرة كان يعانيها وهو يعد بحوثه القرآنية: «وقد عانيت بنفسي حالات من هذا النوع كثيرة، وأنا أكتب «التصوير الفني في القرآن» وأنا أكتب «في ظلال القرآن» في بعض الأحيان»[2].

ويبين سيد قطب أن هذه حالات قليلة يمر بها الأديب عادة، إذ أنه في الغالب من حالاته، يتمتع بقسط أكبر من الوعي والمعاناة والاختيار، ليطابق بين القيم الشعورية والقيم التعبيرية، ووظيفته حينئذٍ (أن يهيء للألفاظ نظاماً ونسقاً وجواً، يسمح لها بأن تشع أكبر شحنتها من الصور والظلال والإيقاع. وأن تتناسق ظلالها وإيقاعاتها مع الجو الشعوري الذي تريد أن ترسمه، وألا يقف بها عند الدلالة المعنوية الذهنية. . .) والدلالة المعنوية الذهنية التجريدية تميت اللفظ وتجعله رمزاً فقط، لأنها تسلب منه تلك الحياة التي كانت له وهو يطلَق أول مرة ليصور حالة حية!!. . . (والأديب الموهوب هو الذي يرد عليه حياته، فيجعله يشع صورة وظلاً، ويرسم حالة ومشهداً. . .)[3].

---

(١) النقد الأدبي: ٣٦.

(٢) المرجع السابق: ٣٦ - ٣٧.

وهذا النص يحمل عدة دلالات موحية! منها: إنه يدل على حالته النفسية والشعورية، وانفعاله الشاعري المؤثر وهو يفسر القرآن الكريم. كما يدل على تأثره الواضح بالقرآن وتأثير آياته المعجزة في كيانه. كذلك يدل على أسلوبه الشاعري في التفسير، وعرضه الحيّ في الظلال.

(٣) المرجع السابق: ٣٧.

وللتمثيل على أثر الصور والظلال في دلالة الألفاظ وحياتها وتأثيرها، عرَض نماذج من آيات القرآن الكريم يستقل فيها اللفظ برسم صورة، إما بجرسه الذي يلقيه في السمع، أو بظله الذي يلقيه في الخيال، أو بالجرس والظل معاً، وبين ما فيها من جمال وتصوير وتأثير في كتابه «التصوير الفني في القرآن»[1].

وكما أن للصور والظلال صلة مباشرة وأثراً واضحاً في دلالة الألفاظ، كذلك لها هذه الصلة وهذا الأثر في دلالة العبارات إذ أن العبارة تستمد دلالتها (من مفردات الدلالات اللغوية للألفاظ، ومن الدلالة المعنوية الناشئة عن اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسق معين، ثم من الإيقاع الموسيقي الناشىء من مجموعة إيقاعات الألفاظ متناغماً بعضها مع بعض، ثم من الصور والظلال التي تشعها الألفاظ متناسقة في العبارة. . .) هذا التنسيق هو الذي يسمح لكل لفظ بأن يشع شحنته من الصور ومن الإيقاع، وهو الذي يؤلف إيقاعاً فنياً منسقاً بين الألفاظ، وظلالاً متناسقة كذلك من ظلال الألفاظ[2].

هذه العناصر لا بدّ منها في الدلالة المتكاملة للعبارة في العمل الأدبي. بل إن ميزة التعبير الأدبي هي «الظلال التي يخلعها وراء المعاني، والإيقاع الذي يتسق مع هذه الظلال. . .)[3].

وعند تقويم العمل الأدبي من خلال العبارة (لا يجوز أن نكتفي بدلالتها المعنوية فهذه عنصر واحد من عناصر دلالتها، فلا بدّ أن نضم إليها عنصري الإيقاع والظلال، فهي بمجموعها تدل على القيمة الكاملة لهذا العمل. .)[4].

وكما عرض نماذج من آيات القرآن بيّن فيها وظيفة الصور والظلال في دلالة الألفاظ. كذلك عرض نماذج قرآنية وبيّن فيها وظيفة الصور والظلال والإيقاع في العبارة، ومقدار اشتراكها ـ كلها ـ في الدلالة الأدبية، وفي تصوير

(١) المرجع السابق: ٣٨ ـ ٤٠.
(٢) مجلة العالم العربي: المجلد الأول، العدد الثاني. عام ١٣٦٣ هـ صفحة: ٥٢.
(٣) النقد الأدبي: ٤٢.

الجو العام لآيات القرآن، والإطار العام الذي عرضت من خلاله![1].

بلاغة الألفاظ والعبارات وفصاحتها ـ إذن ـ لا تكمن في اللفظ فقط، ولا في المعنى فقط، ولا فيهما معاً فقط! وإنما هي فيهما وفي عناصر أخرى مهمة وأساسية أيضاً وهي: الصور والظلال والإيقاع.

ونستطيع أن نُجمل رأي سيد قطب في عناصر الدلالة الأدبية للعمل الأدبي ـ لمعرفة مدى اهتمامه بالصور والظلال، ومدى اعتباره لها وتركيزه عليها، ودعوته إلى وجوب معايشتها وملاحظتها ـ وهذه العناصر هي:

١ ـ مفردات الدلالات اللغوية للألفاظ.
٢ ـ الدلالة المعنوية الناشية من اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسق معين.
٣ ـ الإيقاع الموسيقي الناشيء من مجموعة إيقاعات الألفاظ متناغماً بعضها مع بعض.
٤ ـ الصور والظلال التي تشعها الألفاظ متناسقة في العبارة.
٥ ـ طريقة تناول الموضوع والسير فيه. أو الأسلوب)[2].

من هذا العرض ـ الموجز ـ لرأي سيد قطب في الصور والظلال، وأثرها كعنصر من عناصر الدلالة الأدبية، وتركيزه عليها في النقد الأدبي. يظهر لنا أنها عنده ذات مهمة أساسية في العمل الأدبي، وذات اعتبار بالغ في النقد الأدبي. ولو تابع بحوثه النقدية لأرسى دعائم نظرية جديدة في النقد الأدبي هي نظرية «الصور والظلال» لتحل محل نظريتي «اللفظ» و«المعنى» ولكنه غيَّر وجهته، وبدَّل اهتماماته، واتجه نحو عالم القرآن الرحيب، واستصحب معه في حياته في هذا العالم، آراءه في الصور والظلال، وعاش بها حياة هانئة في هذا العالم، وبيّن لنا الكثير من كنوز القرآن المذخورة في صوره وظلاله.

---

(١) المرجع السابق: ٤٤ ـ ٤٦.

(٢) أنظر هذه العناصر في: الرسالة: سنة ١٤ مجلد ٢. عدد ٦٩٦. تاريخ ٤ نوفمبر ١٩٤٦ صفحة ١٢١٦. وكذلك مجلة العالم العربي: مجلد ١: عدد ٢. سنة ١٣٦٣ هـ صفحة: ٥٢. وكتاب النقد الأدبي لسيد قطب: ٣٢ ـ ٥١.

في ظلال القرآن:

ولعله لأجل هذه المعاني التي بيناها، آثر أن يختار لتفسيره هذا العنوان المثير «في ظلال القرآن» فإطلاق هذا الاسم على التفسير ليس فلتة عابرة، ولا مصادفة موافقة، وإنما له ظلال في نفسه وكيانه، وإيحاءات في شعوره ووجدانه، فمن أجل هذه الظلال، أسماه (الظلال)!!!

إنه يريد أن يقول لنا - من خلال عنوانه - إن آيات القرآن الكريم لها ظلال وارفة وراء معانيها، وهذه الظلال فيها كثير من إيحاءات القرآن ودلالاته وتوجيهاته، التي لا بدّ من الالتفات إليها وملاحظتها، وهذه الإيحاءات والتوجيهات والدلالات لا تُدرك إلا من خلال ملاحظة ظلال الآيات، ولا يلاحظها إلا باحث متذوق، يلحظها بحسّه البصير، وخياله العامل، وتعرضه لتلك الظلال، وحياته بها ومعها وفيها.

وإنه - باختياره هذا العنوان الموحي - يريد أن يقوم بهذه المهمة، وأن يتعرض لهذه الإيحاءات، وأن يعيش بتلك الظلال، وأن يبين للناس بعضاً مما يحسه ويتذوقه، وشيئاً من إيحاءات تلك الظلال ودلالاتها.

لذلك اعتبر أن الحياة في هذه الظلال نعمة - نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها - وهي نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه، وقد منّ الله عليه بالحياة في هذه الظلال فذاق فيها ما لم يذق قط في حياته[1].

إنه - بسبب ملاحظته تلك الظلال، وحياته بها - صار يرى القرآن حياً، وكأنه كائن حي، له كل صفات الأحياء، يؤانسه ويعاطفه ويصادقه، كما يؤانس الصديق صديقه ويعاطفه[2].

وسور القرآن الكريم صارت - بهذا الاعتبار - كلها أصدقاء، كل سورة تمثل صديقاً أليفاً حبيباً ممتعاً، لها شخصية متفردة، وملامح متميزة، ومصاحبتها رحلة ممتعة متميزة، رحلة في عوالم ومشاهد، ورؤى وحقائق،

---

(١) انظر مقدمة الطبعة المنقحة للظلال ١: ١١.

(٢) انظر (الظلال) ٥: ٢٩٥٨. و٥: ٣١٧٦.

وتقريرات وموحيات[1]. وعندما ننظر في حياته في سجنه ـ بهذا المنظار ـ نرى مقدار الأنس والسعادة والانشراح، والرضى والطمأنينة واليقين، الذي كان يستشعره ويحياه هناك، وهو يعيش بين مائة وأربعة عشر صديقاً أليفاً حبيباً ممتعاً، وأنّى لمن يكون مع هؤلاء، أن يتطرق إلى نفسه قلق أو انقباض، أو يتدسس إلى مشاعره يأس أو قنوط، أو تسيطر عليه العُقد والأمراض!!

ولقد كان يعيش في ظلال القرآن، ويحيا معها حياة هانئة مباركة، غنية وافرة، يتلقى إيحاءاتها وإيقاعاتها، وتغمره فيوضاتها الكريمة، ولكنه عندما يأتي لتفسير الآيات، ويسجل تلك الإيحاءات، وترجمة ما يحسه ويتذوقه منها للناس، فإنه يقف متهيباً متحرجاً، لأنه يرى استحالة هذه الترجمة الشاملة، وأن ألفاظه وتعبيراته عاجزة عن بيان ما يحسه منها: (ومع هذا كله يصيبني رهبة ورعشة كلما تصديت للترجمة عن هذا القرآن! إن إيقاع هذا القرآن المباشر في حسّي محال أن أترجمه في ألفاظي وتعبيراتي، ومن ثم أحسّ دائماً بالفجوة الهائلة بين ما استشعره منه، وما أترجمه للناس في هذه الظلال)[2].

إنه يرى استحالة ترجمة ما يحسّه ويستشعره لأن لغة الكتابة البشرية لها قيود وأوضاع، تغض من حرارة الإيحاءات والموحيات في صورتها الحية المباشرة، التي دخلت بها الكيان والشعور، وأحدثت به ما أحدثت من آثار.

وإذا لاحظْنا الإبداع الفريد الذي أبدعه سيد قطب في (ظلاله) وهو يترجم بعض ما يحسّه ويستشعره من إيحاءات الآيات وظلالها، ولاحظْنا اعترافه باستحالة الترجمة الكاملة لما يحسّه، وعجز ألفاظه وتعابيره عن تسجيل كل ما يستشعره، ومن ثم إحساسه بالفجوة الهائلة بين حالته وهو يعيش في ظلال القرآن، وبين كلامه المبدع الفريد في الظلال؛ إذا لاحظنا هذا كله نستطيع أن نتخيل حياته الهانئة المباركة في ظلال القرآن، التي رفعت عمره وباركته وزكته!!.

---

(1) المرجع السابق ٣: ١٢٤٣. و ٤: ٢٠٧٧.

(2) المرجع السابق ٤: ٢٠٣٨. وانظر ـ على سبيل المثال ـ ١: ٢٧٨. و٤: ٢٠٦٠ و٥: ٣١٧.

إنه كثيراً ما كان يقف في الظلال، ليسجل عجز ألفاظه وتعبيراته - وهو الأديب الموهوب البليغ - عن تسجيل كل ظلال ألفاظ القرآن الكريم، وتدوين إيحاءاتها وحياتها، وبيان ما يتذوقه منها، ونقل ذلك بكلماته، لأنها لا تنقل بالكلمات، ولا يبلغها التعبير البشري القاصر الفاني، ولذلك يكتفي بأن يشير إليها إشارة، كما يشار إلى النجم البعيد من بعيد، لا تبلغ الإشارة مداه، ولكنها فقط تلفت العين إلى سناه[1].

وقد كانت تراوده نفسه أن يترك السور القرآنية بدون تفسير، حتى لا يشوبها بتعبيره البشري القاصر الفاني، يتركها لتدخل إلى القلوب والمشاعر، وتتفاعل معها الأخيلة والأحاسيس[2].

كما كان يقف ليعترف بعجزه عن تسجيل كل ظلال النصوص القرآنية ولهذا يتركها كما هي[3]، أو التعليق على بعض المشاهد التي ترسمها النصوص[4]، فيتركها كما هي أيضاً، كما يسجّل انفعاله ببعض النصوص والمشاهد، وتأثيرها على مشاعره وكيانه[5].

لقد كثرت وقفاته لتسجيل ظلال الألفاظ في النصوص القرآنية وموحياتها ودلالاتها وإيحاءاتها، لأن الوقوف عند هذه الظلال وبيانها، يتفق مع طبيعة (الظلال) نفسه، ويحقق الهدف الذي يرجوه صاحبه منه[6].

---

(١) انظر - على سبيل المثال - الظلال ٤: ٢٠٦٠ و ٤: ٢٠٨٦ و٦: ٣٤٠٢ و٦: ٣٩٥٣.
(٢) انظر الظلال ٤: ٢٠٣٨ و ٦: ٣٨٣٧.
(٣) على سبيل المثال: الظلال ٤: ٢٠٤٩.
(٤) للتمثيل، أنظر الظلال ٣: ١٣٥٣.
(٥) انظر: الظلال ٣: ١٧١٧ و ٤: ٢٠٣٦ و ٥: ٣١٧٠ و ٦: ٣٤٢٠ - ٣٤٢١.
(٦) انظر: الظلال: ٤: ٢٠٩٩ و ٤: ٢٣٣٣ و ٥: ٢٥٦٩ و ٦: ٣٢٨٠ و ٦: ٣٦٠٥.

الفصل الثالث

أَهْدَافُ الظِّلَال

عندما أقبل سيد قطب على القرآن الكريم يفسره للناس، كان يهدف إلى تحقيق أهداف من خلاله، ولهذا كان يركز عليها كثيراً في مواطن كثيرة من الظلال.

فهو لم يرد أن يضيف تفسيراً جديداً إلى مكتبة تفسير القرآن الضخمة ولم يرد أن يضاف اسمه إلى طبقات المفسرين فقط، لم يرد التفسير للتفسير بمعنى أنه لم يجعل التفسير غاية بحد ذاته، وإنما جعل التفسير وسيلة لغاية شريفة، وأداة لأهداف سامية، أراد تحقيقها في عالم الفكر والتصور، وفي عالم التربية والحركة.

نقول هذا لأن بعض المفسرين من السابقين ومن المعاصرين كذلك ـ جعل التفسير غاية أراد به خدمة كتاب الله تعالى، بإضافة تفسير إلى التفاسير، وإضافة اسمه إلى طبقات المفسرين، فتراه يكرر ما قاله السابقون تكراراً مملاً، أو يختصره اختصاراً مخلاً، أو ينقله نقلاً مشوشاً مضطرباً، ولا تكاد ترى له في تفسيره جديداً إلا بعض العبارات. . .

فها هو أبو القاسم بن جُزَيّ ـ محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي ـ الغرناطي يقول في مقدمة تفسيره (التسهيلُ لعلوم التنزيل) مبيناً هدفه من تأليفه: (فرغبت في سلوك طريقهم «المفسرين» والانخراط في مساق فريقهم، وصنفت هذا الكتاب في تفسير القرآن العظيم، وسائر ما يتعلق به من العلوم، وسلكت مسلكاً نافعاً، إذ جعلته وجيزاً جامعاً. . .)[1].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الغرناطي ١ : ٤.

وها هو الشوكاني ـ محمد بن علي بن محمد ـ يقول في مقدمة تفسيره «فتح القدير» (ولما كان هذا العلم «علم التفسير» بهذه المنزلة الشامخة الأركان، العالية البنيان، المرتفعة المكان، رغبت إلى الدخول من أبوابه، ونشطت إلى القعود في محرابه، والكون من أحزابه، ووطنت النفس على سلوك طريقة، هي بالقبول عند الفحول حقيقة)[1].

ورغم اعترافه بأنه أخذ تفسيره من كتب التفسير السابقة المأثورة والبيانية، إلا أنه اعتبره «قد كثر علمه، وتوفر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه، واشتمل على ما في كتب التفسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فوائد وقواعد شوارد)[2] ولهذا يُصْدر حكمه على تفسيره، ويزكي عمله (بنفسه، بمبالغة واضحة فيعتبره لب اللباب، وعجب العجاب، وذخيرة الطلاب، ونهاية مأرب الألباب)[3].

وها هو الشيخ أحمد مصطفى المراغي ـ من المعاصرين ـ بيّن أن من أهدافه في تأليف تفسيره أنه خدم اللغة العربية نحو نصف قرن، درساً وتدريساً، وتأليفاً وتصنيفاً، لهذا أراد أن يؤلف تفسيره كتتويج لهذه الخدمة. قال: (حتى وجدتني كلفا، بأن أتوج خدمتي لهذه اللغة، بتفسير آي الذكر الحكيم. . .)[3].

الأغراض الأساسية للقرآن الكريم:

وقبل أن نبين الأهداف التي كان سيد قطب يبغي تحقيقها بتأليف الظلال، لا بدّ أن نشير إلى الأغراض الأساسية للقرآن الكريم، التي يسعى إلى تحقيقها في الأفراد والجماعات، والأمم والمجتمعات، في عالم الفكر والتصور، وعالم الحياة والحركة. نشير إلى هذه الأغراض لنعرض أهداف

---

(١) فتح القدير للشوكاني ١: ١٢.
(٢) فتح القدير للشوكاني: ١: ١٢.
(٣) المرجع السابق ١: ١٣.
(٤) تفسير المراغي ١: ١٦.

سيد قطب عليها، ونُقيِّمها من خلالها، لنعرف هل هو على صواب في جعلها أهدافاً له أولاً، وهل تتفق مع أغراض القرآن الأساسية ثانياً، وهل أدى الظلال ـ بها ـ المهمة المطلوبة في الحياة الإسلامية المعاصرة ثالثاً.

القرآن الكريم ليس تـراتيل تتلى في المنـاسبات فقط، ولا وسيلة للحصول على الأجر والثواب فقط، ولا كتاباً علمياً مفصلاً شاملاً فقط، ولا موسوعة للمعرفة النظرية العقلية فقط، ولا مناسبة لتثقيف المسلم، وتزويده بزاد ثقافي في الفقه والأصول واللغة والأدب، والتاريخ والسيَر فقط. وإن الذي يقبل على القرآن من أجل تحقيق بعض من الأغراض السابقة، يحصل على ما يريد، لكنه لا يدرك المهمة الرئيسية للقرآن. ولا يحقق بذلك الغرض الأساسي له. ولهذا يخطىء النظرة إلى القرآن، والتعامل معه، وللأسف نقول إن كثيراً من المسلمين المعاصرين ينظرون إليه من زاوية من إحدى الزوايا السابقة، ولذلك لم يعد القرآن ـ بالنسبة إليهم ـ تلك القوة الموجهة المحركة، الفاعلة المؤثرة!!.

الغرض الأساسي للقرآن يتلخص فيما يلي:

١ ـ هداية الإنسان إلى الخير العميم في دنياه وآخرته، وتعريفه على كل ما يحقق ذلك، وتحذيره من كل ما يسبب شقاءه وعذابه وخسارته في الدنيا والآخرة ـ وتحديده القاطع أن هذا لا يكون إلا في سلوك طريق الله الواضح وصراطه المستقيم.

٢ ـ تكوين الشخصية الإسلامية المتكاملة المتوازنة، وذلك بتربية الفـرد المسلم تربية شاملة متوازنة، وصياغة أفكاره وتصوراته الصائبة، والتأثير في سلوكه الحياتي المتميز، وبمعنى آخر يجعله الصورة العملية الواقعية لمبادئه ونصوصه، بحيث يظهر في حياته وكأنه قرآن حي متحرك!

٣ ـ إقامة مجتمع إسلامي بمناهج وقيم فريدة، وبناء أمة إسلامية متميزة بخصائصها ومميزاتها، وإنشاء جيل قرآني رباني فريد، على قواعد خاصة من التربية القرآنية المتكاملة.

٤ ـ قيادة هذه الأمة في معركتها مع الجاهلية، وتبين معالم طريقها، وبيان

طبيعة تلك المعركة وبواعثها وأسلحتها، والكشف عن أعدائها ببيان أهدافهم وكشف بواعثهم، وإحباط مكرهم، وتصوير نماذجهم، لتكون هذه الأمة على بصيرة من أمرها، وعلى هدى في حياتها، ووضوح في طريقها، وانتصار في معاركها......

وقد نجح القرآن نجاحاً باهراً في تحقيق هذه الأغراض في جيل الصحابة الكرام، الذي جاء جيلاً قرآنياً ربانياً فريداً، وقد نجح الصحابة في التعامل مع القرآن والتفاعل به، لأنهم كانوا حريصين على ألا يستقوا إلا من نبعه الرباني الصافي، ولأن الرجل منهم كان يخلع على عتبة القرآن كل ماضيه، ويدخل عالم القرآن بدون مقررات مسبقة، لتتم صياغته صياغة قرآنية فريدة. ولأنهم تلقوه للتنفيذ والعمل، لا للثقافة والمتاع، أو التذوق... والإطلاع[1]..

ولذلك يدعو سيد قطب إلى أن نقبل على القرآن (بشعور التلقي للتنفيذ والعمل، لا بشعور الدراسة والمتاع، نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون، لنكون. وفي الطريق سنلتقي بالجمال الفني في القرآن، وبالقصص الرائع في القرآن. وبمشاهد القيامة في القرآن. وبالمنطق الوجداني في القرآن. وبسائر ما يطلبه أصحاب الدراسة والمتاع. ولكننا سنلتقي بهذا كله، دون أن يكون هو هدفنا الأول. إن هدفنا الأول أن نعرف: ماذا يريد منا القرآن أن نعمل؟ ما هو التصور الكلي الذي يريد منا أن نتصور، كيف يريد القرآن أن يكون شعورنا بالله؟ كيف يريد أن تكون أخلاقنا وأوضاعنا، ونظامنا الواقعي في الحياة؟..)[2].

الظلال وأغراض القرآن:

هل لاحظ سيد قطب هذا وهو يكتب الظلال؟ وهل تتفق أهدافه منه مع أغراض القرآن؟ وهل نجح في التركيز عليها فيه؟

---

(١) انظر فصل (جيل قرآني فريد) في كتاب (معالم في الطريق).

(٢) معالم في الطريق: ٢٢ ـ ٢٣ طبعة دار دمشق.

لقد أدرك أغراض القرآن الأساسية ومهمته الحياتية، ووظيفته العملية، أدركها وتذوقها، ونظر في نصوص القرآن من خلالها، وجعل «الظلال» تمثيلاً لها، وتطبيقاً لمبادئها.

استمع إليه يقول (هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة، هو روحها وباعثها، وهو قوامها وكيانها، وهو حارسها وراعيها، وهو بيانها وترجمانها، وهو دستورها ومنهجها، وهو في النهاية المرجع الذي تستمد منه الدعوة ـ كما يستمد منه الدعاة ـ وسائل العمل، ومناهج الحركة، وزاد الطريق. . .)[1].

وبيّن أنه ستظل فجوة عميقة بين المسلمين اليوم وبين القرآن إذا لم يستحضروا هذه المهمة، ولم يدركوا هذه الأغراض.

ودعا إلى تصحيح نظرتنا إلى القرآن، وتعاملنا معه، فلا نتلوه تراتيل تعبدية فقط، أو نعتبره مجالاً للثواب فقط، ولكن نعتبره «نزل لمواجهة واقع معين في حياة أمة معينة، في فترة من فترات التاريخ محددة، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها، ولكنه ـ مع هذا ـ يعايش ويواجه، ويملك أن يوجه الحياة الحاضرة، وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية، وفي صراعها الراهن مع الجاهلية من حولها، وفي معركتها كذلك في داخل النفس، وفي عالم الضمير بنفس الحيوية، ونفس الواقعية التي كانت له هناك يومذاك)[2].

وبيّن أننا بهذه النظرة سنرى القرآن حياً عاملاً مؤثراً في حياة الصحابة الكرام، وهو يملك ـ بأداء حركي بارز ـ أن يعمل في حياتنا نحن أيضاً، ونحس أنه معنا اليوم وغداً، موجهاً مربياً، وحياً متحركاً، وسيحقق فينا أغراضه، وستعود إليه جِدَّته، وسيؤدي مهمته التي أداها من قبل. .

---

(١) في ظلال القرآن: ٣٤٨/١.

(٢) في ظلال القرآن: ١: ٣٤٨، وانظر «الظلال»: ٢: ١٠١٦ ـ ١٠١٧. وعلوم القرآن «للدكتور عدنان زرزور: ٤٢٥ ـ ٤٢٧.

الأهداف الأساسية للظلال:

إن أهم أهداف الظلال هي:

أولاً: إزالة الفجوة العميقة بين المسلمين المعاصرين، وبين القرآن الكريم، وردم الحاجز السميك بين قلوبهم وبين القرآن، ولذلك اعتبر الظلال وسيلة لتقربهم إليه، ليتعرفوا ـ من خلاله ـ على كنوزه المذخورة، وإيحاءاته وإيماءاته، وصوره وظلاله، ليتم الانفعال المباشر، وتتحقق الاستجابة المطلوبة، فإذا ما تحقق هذا الهدف، فليطرحوا (الظلال) وليقبلوا على القرآن مباشرة: يقول: (وإنني لأهيب بقراء هذه الظلال، ألا تكون هي هدفهم من الكتاب، إنما يقرؤونها ليدنوا من القرآن ذاته. ثم ليتناولوه عند ذلك في حقيقته، ويطرحوا عنهم هذه الظلال. وهم لن يتناولوه في حقيقته إلا إذا وقفوا حياتهم كلها على تحقيق مدلولاته، وعلى خوض المعركة مع الجاهلية باسمه وتحت رايته)[1].

إنه يعتبر الظلال ضرورة للجيل المعاصر من المسلمين. ليفهم به مهمة القرآن، لأنه لا يعيش حياة عملية حركية في جو القرآن، كما عاش المسلمون الأوائل[2]، ويُفهم من هذا أن المسلمين اليوم لو أدركوا التعامل المؤثر مع القرآن، ولو أحسنوا فهمه، وتطبيقه، لما كانوا بحاجة إلى الظلال، بل لما أقدم هو على كتابته ـ وبخاصة في طبعته المنقحة ـ.

ولذلك نراه يصرح ـ أحياناً ـ بأنه لولا هذا لخلّى بين المسلمين وبين القرآن يأخذون منه مباشرة، ولا يحول بينهم وبينه بهذه الظلال. . . (ولولا أن في التعبير ألفاظاً لم تعد مألوفة ولا واضحة للقارىء في هذا الزمان، لآثرت ترك السورة (سورة التكوير) تؤدي بإيقاعها وصورها وظلالها، وحقائقها ومشاهدها، ما لا تؤديه أية ترجمة لها في لُغة البشر، وتصل بذاتها إلى أوتار القلوب فتهزها من الأعماق. ولكن لا بدّ مما ليس منه بد. . .)[3].

---

(١) الظلال: ٤: ٢٠٣٩.

(٢) الظلال ٤ : ٢٠٤١.

(٣) الظلال ٦ : ٣٨٣٧.

وفرق شاسع بين نظرة صاحب الظلال ـ المتواضعة ـ إلى ظلاله، وبين نظرة بعض المفسرين السابقين إلى تفاسيرهم، ومغالاتهم في تقويمها وتقديرها، كما في نظرة الزمخشري إلى كشافه، والشوكاني إلى تفسيره، وابن الخطيب إلى كتابه[1].

ثانياً: تعريف المسلمين المعاصرين على المهمة العملية الحركية للقرآن الكريم، وبيان طبيعته الحية الجهادية، واطلاعهم على منهجه في الحركة والجهاد في وجه الجاهلية، ورسم الطريق التي يسيرون بها على هديه، وبيان المنهج السليم وتذوقه والتعامل معه، ووضع أيديهم على المفتاح الذي يستخرجون به كنوزه المذخورة فيه: (ونحن نؤكد على هذه السمة في هذا القرآن.. سمة الواقعية الحركية... لأنها في نظرنا «مفتاح» التعامل مع هذا الكتاب، وفهمه وفقهه، وأدراك مراميه وأهدافه...

إنه لا بدّ من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية، التي صاحبت نزول النص القرآني... لا بدّ من هذا لإدراك وجهة النص، وأبعاد مدلولاته، ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي، ويواجه حالة واقعة، كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده... وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها، كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية...)[2].

وبيّن أنه بدون هذا الاستصحاب، وبدون هذه النظرة وهذا الإدراك، وبدون الحركة العملية بالقرآن، ومواجهة الجاهلية مواجهة جهادية به؛ بدون هذا فلن نعرف القرآن ولن نفسره ـ على الوجه الأمثل ـ ولن نتذوقه. فها هو يجهر برأيه قائلاً: (إن هذا القرآن لا يتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة،

---

(1) انظر ـ على سبيل المثال ـ هذه الدراسة: الفصل الأول عن كتب التفسير في مصر في العصر الحديث «وافتتاحية حديثنا عن «أهداف الظلال» في هذا الفصل.

(2) الظلال ٤: ٢١٢١ ـ ٢١٢٢.

ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل فيها ليواجهها ويوجهها، والذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون، يدرسونه دراسة بيانية أو فنية، لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً في هذه القعدة الباردة الساكنة، بعيداً عن المعركة، وبعيداً عن الحركة.. إن حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبداً، وإن سره لا يتجلى لمن يؤْثرون السلامة والراحة مع العبودية لغير الله..)[1].

ثالثاً: تزويد المسلم المعاصر بدليل عملي مكتوب إلى سمات الشخصية الإسلامية المنشودة، وملامح المجتمع الإسلامي القرآنية. ولذلك كان يركز ـ عند تفسيره للآيات ـ على الجانب العملي لمعناها، والإيحاءات الحية التي تقود خطى العاملين في طريق الدعوة والإصلاح، ومن أجل هذا نجده حريصاً في الظلال على أن يَبقى ـ ويُبقي القارىء معه ـ في جو النص العملي، وأن لا يحجبه بمباحث موسعة حول الفقه والتفسير والتاريخ واللغة وغير ذلك، فإذا توسع فإلى الإيحاءات العملية الحركية، كما كان حريصاً على عدم تكرار ما قاله المفسرون السابقون، حريصاً على أن يأتي بجديد، وأن يضيف أفكاراً ومعاني لا يجدها القارىء عند السابقين.

لقد اعتبر توسع الكثير من المفسرين السابقين في تناول مباحث ثقافية إسلامية موسعة، مأخذاً يؤخذ عليهم، لأنهم بعملهم هذا يحجبون القارىء عن إيحاءات القرآن الحركية، ويُحوِّلون القرآن عن أغراضه الأساسية ـ التي أشرنا إليها قبل قليل ـ إلى موسوعة ثقافية إسلامية تزود العقل بزاد ثقافي، لكنها لا تقود الشخص في مسيرته الحياتية على هدي القرآن بنور العقيدة والإيمان...

ولذلك صرح ـ في الطبعة الأولى للظلال ـ بأنه لاحظ هذا فقال: (كل ما حاولته ألا أغرق نفسي في بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية، تحجب القرآن عن روحي، وتحجب روحي عن القرآن، وما استطردت إلى غير ما يوحيه

---

(١) الظلال ٤: ١٨٦٤ و ١: ٢٦١.

النص القرآني ذاته، من خاطرة روحية أو اجتماعية أو إنسانية.. وما أحفل القرآن بهذه الإيحاءات...)[1].

ولهذا نراه يُكثر في الظلال من إيحاءات نصوصه ويبينها في كل مناسبة، ويستخرج منها دلالات شتى، وقد يورد في الصفحة الواحدة أكثر من إيحاء[2].

أما إذا كان في الآية دلالات على أحكام فقهية، أو قضايا تاريخية، أو أمور تشريعية، أو مسائل لغوية، فإنه يشير إلى أن الخوض فيها والتعمق والتوسع في بحثها ليس من طبيعة الظلال. ولا من أهدافه، ويتجاوز هذه المباحث ـ التي احتلت حيزاً ضخماً في بعض التفاسير السابقة ـ إلى التركيز على ما يريده.

فعندما فسر الآيات التي فيها صلاة الخوف من سورة النساء، لم يتوسع في كيفيات الصلاة التي اختلف فيها الفقهاء. وإنما أشار إليها إشارة سريعة، ثم وقف يبين الحِكَم من تشريعها، وما فيها من إيحاءات في التربية والتوجيه والتعليم والإعداد للمسلمين.

وعندما تعرض لقضاء الصلاة الفائتة أشار إلى رأي الجمهور الذي يوجب القضاء وإلى رأي الظاهرية الذين لا يجيزونه، ولم يدخل في تفصيلات الفروع، لأن هذا لا يتفق مع طبيعة الظلال، ولا يتناسب مع الهدف الذي يرجوه منه[3].

كذلك لم يذهب في «تيه التأويلات» عن الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف «حذر الموت» من هم؟ وفي أي أرض كانوا؟ وفي أي زمان خرجوا؟ فلو كان الله يريد بياناً عنهم لبيَّن[4]. وتجاوز هذا إلى بيان الهدف من إيراد

---

(١) الظلال ـ الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية ـ ١ : ٦.
(٢) انظر ـ على سبيل المثال ـ الظلال ١ : ١٣٨ و ١ : ٢٦٢. و ٢ : ٧٢٥.
(٣) الظلال ٢ : ٧٤٨ ـ ٧٤٩.
(٤) الظلال ١ : ٢٦٣.

قصتهم في القرآن. كذلك لم يبين كيف قال لهم الله موتوا ثم أحياهم (لأن ذلك كذلك لم يرد عنه تفصيل، فلا ضرورة لأن نذهب وراءه في التأويل، لئلا نتيه في أساطير لا سند لها كما جاء في بعض التفاسير)[١].

وإذا ما أراد أن يقف عند الآيات الفقهية - مثلاً - فإنه يقف لبيان الحِكَم من الأحكام، ويعللها ويوجهها، ويسجل إيحاءاتها الحركية والدعوية والنفسية والاجتماعية وغير ذلك[٢]. . .

ولذلك نراه دائماً حريصاً على أن يبقى في جو النص وألا يدع أية قضية تخرجه عن هذا الجو. وتراوده خواطره أحياناً أن يتوسع في بعض الجوانب، فيقصرها على أن تطيعه، ويعود بها إلى الجو العام الذي يتفق مع هذا الهدف.

عندما فسر قوله تعالى: ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾[٣] أشار إلى وجود (موافقات عجيبة كامنة وراء اتخاذ التلاقح وسيلة للإكثار. . .) ولكنه لم يقف ليبين هذه الموافقات. فقال: (ولا نملك هنا في الظلال أن نبعد في عرض هذه المسألة بكل تفصيلاتها لجلاء هذه الموافقات - فهي في حاجة إلى بحث متخصص -)[٤].

وعندما أشار إلى استقرار حقيقة أن الله ﴿ كتب على نفسه الرحمة. . ﴾[٥] في تصور المسلم، بين أنه ينشىء (في حسّه وفي حياته وفي

---

(١) الظلال ١: ٢٦٤. وانظر كذلك الظلال ٣: ١٣٧٠. و٣: ١٣٩٧ و٣: ١٥٣١ و٣: ١٥١٨ - ١٥١٩.

(٢) كما في آية القبلة وسر اختصاص المؤمنين بها والحكمة من تحويلها في الظلال ١: ١٣٦ - ١٢٩. وآيات الإيلاء في الظلال ١: ٢٤٤ - ٢٤٥ وآيات الطلاق وأحكامه في الظلال ١: ٢٤٥ - ٢٥٣.

(٣) الأنعام: ٩٨.

(٤) الظلال ٢: ١١٥٩ - ١١٦٠.

(٥) الأنعام: ١٢.

خلقه آثاراً عميقة يصعب كذلك تقصيها، ولا بدّ من الاكتفاء بالإشارة السريعة إليها، كي لا نخرج من نطاق الظلال القرآنية، إلى قضية مستقلة. . .)[1].

يتبين لنا مما سبق أن سيد قطب كان حريصاً - في ظلاله - على أن لا يكرر ما قاله السابقون، وإنما أن يأتي بالجديد الفريد المفيد، الذي يحتاجه المسلم المعاصر في حركته بإسلامه.

إنه كان يتحرك في الظلال من منطلق إدراكه لأغراض القرآن الأساسية - التي سبق أن أشرنا إليها - فلم يكن يهدف إلى (تثقيف) المسلم المعاصر في شتى مجالات الثقافة الإسلامية، ولا تزويد الأمة الإسلامية بتحقيقات ومباحث فكرية وثقافية. وإنما يهدف إلى أن يقودها في سيرها إلى الله.

إننا نستطيع أن نردد مع الدكتور عدنان زرزور قوله عن الظلال - في هذه المناسبة - (الظلال - إذن - دليل عملي مكتوب - إن صح مثل هذا التعبير - إلى المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية، وليس دليلاً ثقافياً لعلوم القرآن أو علوم التفسير، أو علوم الثقافة الإسلامية من فقه وأصول وتاريخ جدل أو خلاف. . .)[2].

رابعاً: تربية المسلم تربية قرآنية إسلامية متكاملة، وإنشاء الشخصية الإسلامية المؤثرة، وبيان ملامحها وسماتها، وعوامل تكوينها وحياتها، وأثرها في الحياة الواقعية، وصياغة هذه الشخصية صياغة قرآنية بأفكارها وتصوراتها، وإعطاء المسلم المعاصر خطة عملية، لفهم القرآن ووضع يديه على (مفتاح) التعامل مع القرآن، وبيان كيفية الدخول إلى عالم القرآن الرحيب والإطلاع على كنوزه المذخورة في شتى المجالات.

لهذا نراه يركز على هذه المعاني عندما يرى أن الفرصة سانحة، فتطول وقفاته التربوية، وتتعمق توجيهاته الحركية. ويلمس مواضع التأثير والانفعال

---

(١) الظلال ٢: ١٠٥٢ وانظر الظلال ٣: ١٢٩٦ - ١٢٩٧، و٤: ١٩٩٣ و٦: ٣٨٧٩ - ٣٨٨٠ و٦: ٣٩١٩.

(٢) علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور: ٤٢٦.

في مشاعر الإنسان، ويخاطب قلبه ووجدانه خطاباً مباشراً، فيتفاعل معه تفاعلاً حياً.

إنه يدعو المسلم إلى أن يعيد نظرته إلى إيمانه وعقيدته، ليتحول الإيمان إلى حركة دافعة مؤثرة في الخارج، ولتتحول العقيدة إلى قوة تمده بعوامل الثبات والسير على منهج الله. كما أنه يدعوه إلى توثيق صلته بربه، وإحسان الاعتصام بحبله، وحسن التوكل عليه. إنه يدعوه إلى الاستعلاء بإيمانه، والاعتزاز بعقيدته، والثقة واليقين بوعد ربه، والصبر والمصابرة والمرابطة على طريقه اللاحب الطويل، الذي يوصله إلى غايته المرجوة.

ولهذا نراه يركز كثيراً على بيان طبيعة الإيمان وحقيقته[1]، وقيمته ومقوماته في الحياة الإنسانية[2] وآثاره في النفس والسلوك والحياة، حياة الفرد والمجتمع على السواء.

إنه يعتبر العمل الصالح صورة عملية ظاهرة للإيمان، وثمرة طبيعية له، فالإيمان (حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح) إنه يعتبر الصلة بين الإيمان والعمل كالصلة بين الزهرة وأريجها الذي ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً[3].

يدعو المؤمنين إلى أن يتحركوا بإيمانهم، وأن يحولوه من حالة الخمول في أعماق القلب، وزوايا الشعور، أو الادعاء باللسان، إلى حالة العمل والتأثير لأنه حركة وعمل وبناء. ولهذا يعتبر العمل الصالح متمماً للإيمان ونتيجة طبيعية له، ويستدل لرأيه بحديث رسول الله ﷺ الذي يرويه أنس رضي الله عنه (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل)[4].

---

(١) الظلال ١: ٣٩ - ٤١ و ٣٤٢ - ٣٤٣ و ٦: ٣٩٦٤ - ٣٩٦٧.

(٢) الظلال ٦: ٣٩٦٥ - ٣٩٦٦.

(٣) ٦: ٣٩٦٧.

(٤) الظلال ٣: ١٤٧٤. وقد خرَّج سيد هذا الحديث في الحاشية بقوله «أخرجه الديلمي في مسند =

وإذا تحدث عن أركان الإيمان بيّن إيحاءاتها وآثارها الإيجابية الفاعلة[1] وإذا تحدث عن العقيدة، بيّن خصائصها وركز على آثارها الإيجابية الفاعلة في الحياة، ولقد وفقه الله إلى إدراك وتذوق وبيان سر تركيز القرآن على العقيدة، وربط الأحكام والتشريعات بها، وطريقة القرآن الفريدة في عرضها وبيانها، وبيّن أن الهدف التربوي هو وراء كل هذا، وقد نجح القرآن في تحقيق غرضه التربوي من خلال ذلك أيما نجاح[2].

وانطلاقاً من هذا الهدف كان سيد قطب حريصاً على بيان تطبيق الرسول ﷺ وصحابته الكرام لنصوص القرآن، وتنفيذهم لأوامره وواجباته، واجتنابهم لمحرماته ونواهيه، وتفاعلهم الإيجابي معه، وحركتهم العملية من خلاله. . وبيّن هذا ليعطي القارىء المعاصر صورة فريدة من تربية القرآن لجيله الفريد من الصحابة، ونجاحه في التربية نجاحاً كبيراً، لتكون هذه الصورة نموذجاً يحتذى، ومثالاً يُقتدي به، وأملاً يراود مشاعر الناس لتحقيقه أو الاقتراب منه[3].

خامساً: بيان ملامح وسمات المجتمع الإسلامي الذي ينشئه القرآن الكريم، والتعريف بالأسس القويمة التي يقوم عليها، ورسم الطريق الحركي الجهادي لإنشائه، والدعوة المخلصة إلى إقامته، واستنهاض همم العاملين

= الفردوس عن أنس». والحديث مذكور في «الفتح الكبير للنبهاني ٣: ٥٧، ونسبه إلى الديلمي في مسند الفردوس وابن النجار في تاريخ بغداد. كما أنه مذكور في الجامع الصغير للسيوطي ٢: ١٣٤ ورمز له بحرف ض (وقد أورد المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٥: ٣٥٥ ـ ٣٥٦) قول الحافظ العلائي في تخريج الحديث: حديث منكر، تفرد به عبد السلام بن صالح العابد. قال النسائي: متروك. وابن عديٍّ: مُجْمَع على ضعفه. وقد روى معناه بسند جيد عن الحسن من قوله: وهو الصحيح. وقد أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «الإيمان» (٢٧٨ ـ ٢٧٩) من كلام الحسن البصري. ولبيان الصلة بين الإيمان والعمل أنظر: شرح العقيدة الطحاوية: ٣٧٣ ـ ٣٧٧ ولبيان حقيقة الخلاف في اشتراط العمل للإيمان وفائدته أنظر: الإيمان حقيقته وأركانه ونواقضه) ١٤٦ ـ ١٥١.

(١) الظلال ١: ٣٤٠ ـ ٣٤٢. و٢: ٧٧٧ ـ ٧٧٨.

(٢) انظر: الظلال ٢: ١٠٠٤ ـ ١٠١٥. وكتاب خصائص التصور الإسلامي.

(٣) انظر الظلال ١: ٥٨٩ و٢: ٦٩٧ ـ ٧٠٠ و٢: ١١٤٢ ـ ١١٤٣ و٣: ١٧١٧.

لهذا الهدف، والحديث المفصل عن المجتمع الإسلامي الأول الذي أقامه الرسول - ﷺ - على نصوص القرآن وبتوجيهاته ومناهجه، كصورة عملية تصلح قدوة ومثالاً ونموذجاً للعاملين.

إنه يدعو - في ظلاله - الأمة الإسلامية إلى التميز بخصائصها ومميزاتها التي بينها القرآن، وإلى أن تكون صورة عملية واقعية لمبادىء القرآن وقيمه، وإلى أن تقوم بمسؤوليتها، وتؤدي مهمتها التي رسمها القرآن، وإلى تبوء مكانتها القيادية في واقع البشرية.

يدعو إلى هذا، ويبين هذا في كل فرصة سانحة، وكل مناسبة ممكنة، يدعو إلى هذا بقوة وانفعال، وتأثر وإلحاح، وتكرار وإسهاب.

ففي مقدمة الطبعة المنقحة بيّن أهم نتيجة خرج بها من حياته في ظلال القرآن: وهي «لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة. . إلا بالرجوع إلى الله. .»[1].

وهذا الرجوع لا يتحقق إلا بالاحتكام إلى منهج الله، وتحكيم كتاب الله في الحياة كلها، ورد الحاكمية إلى الله. وبيّن أن شقاوة البشرية الآن سببها الوحيد هو تنحية الإسلام عن قيادة البشرية، ولهذا يدعو - بحرارة وإلحاح - الأمة المسلمة إلى الرجوع إلى ربها، والعودة إلى تعاليم دينها، وتبوء مكانتها المرموقة[2].

ولما تحدث عن الحكمة من اختصاص المسلمين بقبلة خاصة، ودلالتها على تميز الأمة المسلمة ركز على تميز الأمة بطبيعتها ووظيفتها ومكانتها. (والجماعة المسلمة التي تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه، إن القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة في الصلاة، فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز، رمز للتميز والاختصاص، تميز

(١) الظلال ١: ١٥.
(٢) الظلال ١: ١٥ - ١٦.

التصور، وتميز الشخصية، وتميز الهدف، وتميز الاهتمامات، وتميز الكيان. . . .)[1] ولذلك فإن الأمة المسلمة اليوم في حاجة ماسة إلى التميز بشخصيتها الخاصة، وتصورها الخاص، ورايتها وعلامتها، كيف لا وهي الشهيدة على الأمم!!.

وكمظهر لتميزها، وكطريق لقيامها بمهمتها في حياة البشرية، يدعوها إلى التلقي في كل حياتها عن الله وحده، وعدم التلقي عن أحد من البشر، وطاعة الله وحده، وعدم طاعة أحد من البشر، واتباع طريق الله وحده، وعدم اتباع طريق أحد من البشر. لأنها إن أخذت في شيء من ذلك عن أحد من البشر فإنها ستسقط من عين الله، ولا تمثل الأمة التي يخرجها القرآن كما يريد الله[2].

إنه يعتبر نشأة الأمة المسلمة - بسماتها المتميزة - وظهور الجماعة المسلمة - بواجبها المتميز - ضرورة من ضرورات المنهج الإلّهي ذاته، علاوة على كونه شرطاً أساسياً لوجودها الفعلي كأمة ذات شخصية وكيان، وطبيعة وحضارة. إن وجود هذه الأمة ضرورة لحياة الإسلام كمنهج لله سبحانه، فهي (الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية. .)[3] لأن التصور الإسلامي عن الوجود والحياة لا يعيش إلا في وسط حي متفاعل معه، وهكذا عاش في الجماعة المسلمة الأولى، وأثر من خلالها.

فالجماعة ضرورية لتربية الأفراد تربية قرآنية ناجحة (لأن المسلم لا يُبنى فرداً إلا في جماعة) وضرورية لأداء الإسلام مهمته المنوطة به إداءً حياً مؤثراً فاعلاً، لأنه «لا يُتَصور الإسلام قائماً إلا في محيط جماعة منظمة، ذات ارتباط، وذات نظام، وذات هدف جماعي، منوط في الوقت ذاته بكل فرد فيها. . .)[4] وهذا ما فهمه المسلمون الأوائل - رضوان الله عليهم - فمنذ

---

(١) الظلال ١: ١٢٩.
(٢) الظلال ١: ٤٣٧ - ٤٤٠.
(٣) الظلال ١: ٤٤٤.
(٤) الظلال ٦: ٣٥٥٢ و ٦: ٣٦٠٥.

اليوم الأول للدعوة: (قام مجتمع إسلامي - أو جماعة مسلمة - ذات قيادة مطاعة هي قيادة الرسول - ﷺ - وذات التزامات جماعية بين أفرادها، وذات كيان يميزها عن سائر الجماعات حولها، وذات آداب تتعلق بضمير الإنسان تُراعى فيها - في الوقت ذاته - حياة هذه الجماعة، وذلك كله قبل أن تقوم الدولة المسلمة في المدينة بل إن قيام تلك الجماعة كان هو وسيلة إقامة الدولة في المدينة..)[1].

سادساً: **بيان معالم الطريق الذي تسلكه الجماعة المسلمة إلى ربها**، ورسم سماته، وتحديد مراحله، والتحذير من الفتن والمغريات والمعوقات فيه، وتزويد الأمة بألوان الزاد الضرورية فيه، وبيان الصعوبات والمشقات التي تنتظر السالكين فيه، والتعريف المحدد للأعداء الراصدين فيه، وبيان أسلحتهم وفئاتهم، وتصوير نماذجهم الشائهة، وعداوتهم الدفينة، وطبيعة العداوة، وأهدافهم منها، وتحديد طبيعة الدعوة وخطها ومنهجها وهدفها، ومعالجة أمراض تصيب السالكين - أحياناً - فيه، ودعوة الأمة لسلوكه، وترغيبها فيه، وقيادة خطواتها فيه خطوة خطوة، وربط أنظارها بالجنة، وتجردها - المطلق - لربها، وتشويقها بالحديث عن الشهادة والشهداء، وتعريفها بحقيقة النصر وطبيعته وعوامله، والاستشهاد لما يقول بنصوص القرآن الكريم - وفقهه الفريد لها، وتمثيل الرسول - ﷺ - وصحابته الكرام للسالكين في الطريق، وحديث مفصل عن سيرهم فيه، ليضع أمام السالكين اليوم صورة عملية لسلفهم الصالح، ونموذجاً واقعياً، وقدوة حية تحتذى وتقتدى.

لقد أصبحت الطريق واضحة، وقامت على المسلمين الحجة، بفضل بيان سيد قطب - المفصل المسهب المكرر - لها، وأصبح القرآن الكريم قائد الأمة في طريقها، وأصبحت المعركة الشرسة الحتمية التي تشنها الجاهلية عليها، واضحة الطبيعة، بينة الدوافع والأسباب، والوسائل والأسلحة،

---

(١) الظلال ٦: ٣٥٥٢.

والأساليب والخفايا، والأهداف والغايات، والقوى والفئات، على اختلاف الزمان والمكان . .

لقد كان حديثه عن طريق الدعوة مفصلاً مسهباً، واضحاً بيناً، أكثر منه في كل موضع رآه مناسباً، وكرره كلما رأى هذا ضرورياً: فجاء منهجاً محدداً - من حيث النوع - وجاء كثيراً موسعاً - من حيث الحجم - وقد أقبل أحد الباحثين على كلام سيد قطب - عن طريق الدعوة - فأعده ورتبه، وأصدره في كتاب من جزأين[1].

بل لقد كان سيد قطب ينوي إصدار سلسلة عن معالم الطريق، التي بينها القرآن الكريم، وقد ظهرت المجموعة الأولى منها بعنوان «معالم في الطريق» - الذي عجَّل الطغاة بإزهاق روح صاحبه بسببه - وقد استخرج أربعة فصول منه من الظلال وباقي فصوله تتفق مع طبيعة الظلال وهدفه، لأنها «مكتوبة في فترات، حسبما أوحت به اللفتات المتوالية إلى المنهج الرباني الممثل في القرآن الكريم»[2] وكان قد أعد المجموعة الثانية من المعالم، التي لم ترَ النور لأن الطغاة أعدموا أصولها بإعدامه[3] كما كان ينوي إصدار مجموعات أخرى من هذه السلسلة.

وبعد إعدامه استخرج أحمد حسن[4]، مجموعة أخرى من لفتات سيد قطب في الظلال، تصلح أن تكون أيضاً معالم في الطريق، وسماها (فقه الدعوة: موضوعات في الدعوة والحركة . .).

لقد أدرك سيد قطب - بثاقب نظراته ونفاذ بصيرته وتوفيق الله له - أن القرآن الكريم هو الذي قاد جيل الصحابة في معركتهم مع الجاهلية وقواتها، وأنه كان دائماً في تلك المعركة الشاملة. ولهذا دعا الأمة المسلمة اليوم إلى

---

(١) هو السيد أحمد فائز في كتاب (طريق الدعوة في ظلال القرآن).

(٢) معالم في الطريق. طبعة دار دمشق: ١٢.

(٣) سيد قطب الشهيد الحي: ٢٦٠.

(٤) هو الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات الذي تفضل بالإشراف على رسالتي للماجستير وللدكتوراه. وقد صدر كتابه المشار إليه عن مؤسسة الرسالة.

أن تُدْخل القرآن الكريم المعركة مع أعدائها، لأن «أعداء الأمة المسلمة هم أعداؤها. والقرآن حاضر. ولا نجاة للنفس البشرية ولا للأمة المسلمة، إلا بإدخال هذا القرآن في المعركة، ليخوضها حية كاملة كما خاضها أول مرة.. وما لم يتيقن المسلمون من هذه الحقيقة فلا فلاح لهم ولا نجاح...

وأقل ما تنشئه هذه الحقيقة في النفس... أن تُقبل على هذا القرآن بهذا الفهم وهذا الإدراك وهذا التصور... أن تواجهه وهو يتحرك ويعمل وينشىء التصور الجديد، ويقاوم تصورات الجاهلية، ويدفع عن هذه الأمة ويقيها العثرات.)[1].

طبيعة المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي «معركة العقيدة» لا غير، وسببها هو العقيدة، وهذا ما بينه سحرة فرعون عندما آمنوا بموسى - عليه الصلاة والسلام - حيث حاول فرعون أن يطمس هذه الطبيعة ويخفي هذا السبب، فاتهمهم بأنهم يسيرون مع موسى - عليه السلام - لتخريب مصر وإخراج أهلها منها «إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها»[2] ولذلك كان السحرة المؤمنون من الذكاء والوعي بحيث أبطلوا مكره، ودلوا على السبب المباشر لعدائه الشرس لهم فقالوا له: ﴿ وما تنقم منا إلّا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا.. ﴾[3].

ولذلك ركز سيد قطب على بيان هذه الطبيعة، وتحديد هذا السبب، وكرر ذكره في أكثر من موطن في الظلال[4].

إن المعركة بين الحركة الإسلامية وبين الجاهلية: حتمية واقعة، وضرورة طبيعية، وبدهية يقينية، ولا تنتهي إلا بأحد حلين: إما أن يسلم الجاهليون ويكونوا عبيداً لله وحده، وإما أن يتخلى المسلمون عن إسلامهم،

---

(١) الظلال ١: ١٨٠ وأنظر الظلال ٢: ٧٩٣.

(٢) الأعراف: ١٢٣.

(٣) الأعراف: ١٢٦.

(٤) انظر - على سبيل المثال - الظلال ١: ١٠٨. و ١: ٣٥٤. و ٢: ٩٢٤ - ٩٢٦. و٣: ١٣٥١.

ليلتقوا مع الجاهليين في منتصف الطريق على حساب إسلامهم[1].

وهدف الأعداء جميعاً من المعركة واحد، إنهم يتواصون على تحقيق هدف متفق عليه، إنهم يختلفون فيما بينهم في قضايا أخرى، أما في عدائهم للحركة الإسلامية، وحربهم لها، فهم متفقون على قلب رجل واحد لتحقيق هذا الهدف، وهو صرف المسلمين عن دينهم، وردتهم عن إيمانهم، وقطع صلتهم بربهم، وإضلالهم عن طريقهم إليه.

وقد حدد القرآن هذا الهدف تحديداً واضحاً: فهو هدف المشركين ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[2] وهو هدف المنافقين ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء... ﴾[3] وهو هدف أهل الكتاب - يهود أو نصارى - ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم.. ﴾[4] و﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.. ﴾[5].

سابعاً: بيان الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم:

لاحظ سيد قطب الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، وقال بها، وحرص على بيانها في الظلال، إن كل سورة تمثل عنده وحدة متناسقة واحدة، وإن القرآن كله يمثل وحدة موضوعية متناسقة، وقارىء الظلال يخرج بهذه النتيجة. لقد كان سيد قطب موهوباً - أولاً - في القول بأن القرآن وحدة واحدة، وموهوباً - ثانياً - في القول بأن كل سورة فيه لها شخصية واحدة، وموهوباً - ثالثاً - في بيان التناسق في آيات السورة كلها، ولقد وقف متفرداً - بين جميع المفسرين - في بيان هذه الوحدة الموضوعية، ولذلك نردد مع

---

(١) الظلال ٣: ١٣١٨ - ١٣١٩. و ٣: ١٦٢٠. و ٤: ٢٠٩٢.
(٢) البقرة: ٢١٧.
(٣) النساء: ٨٩.
(٤) البقرة: ١٢٠.
(٥) البقرة: ١٠٩ وانظر تفسير سيد في الظلال للآيات السابقة. وانظر مبحث (الإعجاز الحركي) في كتابنا (نظرية التصوير الفني عند سيد قطب).

الدكتور عدنان زرزور قوله: (لعله كذلك أول مفسر في تاريخ القرآن الكريم، أبرز الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية المفردة، طالت أم قصرت، أبرزه بشكل عملي مكتوب، أو طبقه أروع تطبيق وأعمقه في كتابه العظيم..)[1].

إن القرآن الكريم كما يراه سيد قطب ـ وكما توحي به نصوصه المعجزة ـ عَليٌّ حكيم إن له (لروحاً، وإن له لصفات الحي الذي يعاطفك وتعاطفه، حين تصغي له قلبك، وتصغي له روحك، وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك، وخلصت له بروحك، وإنك لتشتاق منه إلى ملامح وسمات، كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته، حين تصاحبه فترة وتأنس به وتستروح ظلاله..)[2].

وكيف من كانت هذه صفاته لا يكون وحدة موضوعية، وكُلًّا متناسقاً؟ لا سيما وأنه كلام رب العالمين، وروح من أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ونوره الذي يهدي به من يشاء: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا... ﴾[3].

ولقد وُفق سيد قطب إلى إدراك الوحدة الموضوعية في القرآن وبيانها، لأنه لاحظ الأغراض الأساسية للقرآن، والأهداف العملية الحركية، والمهمة الحية الحيوية، إنه لاحظ أن (مجال البناء الأصلي في القرآن هو البناء الفكري والعقيدة، وأن سلوك الإنسان وتصرفاته العملية هي النتيجة الطبيعية لأحكام هذا الجانب الفكري والعقدي، بحيث ينطلق في كل أمر توحيه

---

(١) علوم القرآن لزرزور: ٤٣١ هذا وقد لفت نظري فضيلة الأستاذ ـ المشرف ـ الدكتور أحمد حسن فرحات إلى نظرية «النظام» التي نادى بها المعلم عبد الحميد الفراهي وأقام عليها تفسيره «نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان» وقد تحدث عن نظريته في نظم القرآن في كتاب «دلائل النظام» بتفصيل وافٍ وطبقها في تفسيره، ولكن لم أتمكن من الإطلاع على تفسيره للوقوف على تطبيقه لها.

(٢) الظلال ٥: ٢٩٥٨ وانظر كذلك في ٥: ٣١٧٦.

(٣) الشورى: ٥٢.

الفكرة والعقيدة، أو تمليه الحركة، من أصول وقواعد راسخة، ومن ربط واضح محكم بين الفكرة ومقتضياتها العملية، وبين العقيدة ولوازمها السلوكية. .)[1].

وانطلاقاً من هذه النظرة الشاملة الموحدة للقرآن الكريم، ونتيجة لطول صحبته ـ في محبسه ـ لسوره المعجزة، فقد رأى أن كل سورة تمثل وحدة موضوعية متناسقة، وأنها على تنوع معانيها وكثرة موضوعاتها، وتعدد مقاطعها، لها شخصية موحدة، وملامح متميزة.

إنه يجهز برأيه هذا، في تحديد بليغ واضح يقول: «إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة.

إنها كلها تتجمع على الموضوع والغاية، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة، وطرائقها المتميزة، ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع، وتحقيق هذه الغاية.

إن الشأن في سور القرآن ـ من هذه الوجهة ـ كالشأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة. . كلهم إنسان، وكلهم له خصائص الإنسانية، وكلهم له التكوين العضوي والوظيفي الإنساني، ولكنهم بعد ذلك نماذج منوعة أشد التنويع، نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح، وفيها الأغيار التي لا تجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامة!!

هكذا عدت أتصور سور القرآن. وهكذا عدت أحسها، وهكذا عدت أتعامل معها، بعد طول الصحبة، وطول الألفة، وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته، وملامحه وسماته!

وأنا أجد في سور القرآن ـ تبعاً لهذا ـ وفرة بسبب تنوع النماذج، وأنساً

---

(١) علوم القرآن لزرزور: ٤٣١ ـ ٤٣٢.

بسبب التعامل الشخصي الوثيق، ومتاعاً بسبب اختلاف الملامح والطباع، والاتجاهات والمطالع.

إنها أصدقاء ـ كلها صديق ـ وكلها أليف.. وكلها حبيب.. وكلها ممتع.. وكلها يجد القلب عنده ألواناً من الاهتمامات طريفة، وألواناً من المتاع جديدة وألواناً من الإيقاعات، وألواناً من المؤثرات، تجعل لها مذاقاً خاصاً، وجواً متفرداً.

ومصاحبة السورة من أولها إلى آخرها رحلة.. رحلة في عوالم ومشاهد، ورؤى وحقائق، وتقريرات وموحيات، وغوص في أعماق النفوس، واستجلاء لمشاهد الوجود... ولكنها كذلك رحلة متميزة المعالم في كل سورة، ومع كل سورة....)[1].

إن كل سورة لها (شخصيتها) الخاصة ولها (ملامحها، ومحورها، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي، والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض، والصور والظلال والجو الذي يظللها، والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها..)[2].

لقد كان سيد قطب حريصاً ـ قبل البدء بتفسير السورة ـ على إدراك الوحدة الموضوعية فيها، ومعرفة شخصيتها المتفردة، والوقوف على موضوعها الرئيسي، ولذلك كان يقرأ السورة الكاملة عدة مرات، وربما عاود قراءتها والنظر فيها يوماً بعد يوم، حتى يهتدي ـ رحمه الله ـ إلى موضوعها الرئيسي، ومحورها العام الذي تدور حوله سائر موضوعاتها الفرعية الأخرى...)[3].

وحتى تتجلى الوحدة الموضوعية للسورة، وتبدو متناسقة متناسبة، فقد كان يبين الألوان التالية من التناسق:

١ ـ التناسق بين مفردات الآية وجزئياتها وبخاصة إذا كانت طويلة كآية الديْن.

(١) الظلال ٣: ١٢٤٣.
(٢) الظلال ٢: ١٠١٥.
(٣) علوم القرآن لزرزور: ٤٣٣.

٢ ـ التناسق بين آيات المقطع الواحد الذي يضم مجموعة موحدة من الآيات.

٣ ـ التناسق بين مقاطع الدرس الواحد، الذي يحوي عدة مقاطع جزئية متناسقة.

٤ ـ التناسق بين دروس السورة الواحدة، التي تشتمل على عدة دروس موضوعية متناسقة.

وتبدو موهبة سيد قطب ـ في هذا المجال ـ في معرفة موضوع السورة العام الذي يربط موضوعاتها الجزئية به، والوقوف على شخصيتها المتفردة التي تحتوي على دروسها، كما كان موهوباً في تقسيم السورة إلى دروس أو جولات، وتقسيم الدرس أو الجولة إلى مقاطع أو فقرات، وتقسيم المقطع إلى جزئيات تمثلها الآيات، وتوزيع الآيات توزيعاً متناسقاً على الدروس والمقاطع!! ثم بيان الربط بين هذه الوحدات المتدرجة، وإظهار التناسق في صياغتها وألفاظها وصورها وظلالها، والتناسب في موضوعاتها ومعانيها وأغراضها. فما أن ينتهي القارىء من قراءة تفسير السورة من الظلال، حتى تبدو أمامه متميزة موحدة، وسوية مستقيمة، ومتناسقة متكاملة، ووحدة موضوعية معجزة!!

ثامناً: الوقوف في وجه المادية الجاهلية المعاصرة، وتحطيم «هالتها» في نفوس المسلمين، وإغراء المسلمين بها، وإطماعهم في مقاومتها وتحديها، وإزالة آثار «الهزيمة الداخلية» في نفوسهم أمامها، وقيادة الفكر الإسلامي في المعركة معها، من الدفاع «على استحياء» الذي قام به بعض المفسرين المعاصرين، والكُتّاب والمؤلفين، إلى مرحلة الهجوم المباشر عليها في صميم أفكارها، ونقد مبادئها، وبيان زيف حياتها وقيمها، وتعرية مواقفها ومواقعها.

فما أن ينتهي المسلم المعاصر من قراءة الظلال حتى يزول «استضباعه» أمام هذه الجاهلية، وتنتهي هزيمته الداخلية أمامها، لأنه يكون قد عرفها ـ كما عرفها سيد قطب ـ «على حقيقتها» وعلى انحرافها... وعلى

ضآلتها.. وعلى قزامتها ـ وعلى جعجعتها وانتفاشها.. وعلى غرورها وادعائها كذلك!!)[1].

أنظمتها شوهاء شاذة، ورجالها نماذج شائهة ضالة، وحضارتها «حضارة عميان»، وأفكارها وتصوراتها، وقيمها ومناهجها مصادمة للفطرة وتقود للضياع والشقاء، وفلاسفتها ومفكروها وعباقرتها في أبحاثهم وتصوراتهم مجموعة أطفال صغار سذج يحاولون «حل معادلة رياضية هائلة» واهتمامات دولها ورسالتها عبث وخلط وخوض، وشعوبها ـ على اختلاف فئاتهم ـ في أمر مريج، لأنهم في خوض يلعبون!![2].

ولهذا يصرح لنا في مقدمة ظلاله بتقويمه للجاهلية ووزنه لها، ويدعونا إلى أن يكون هذا تقويمنا أيضاً. قال: (وعشت ـ في ظلال القرآن ـ أنظر من علوّ إلى الجاهلية التي تموج في الأرض، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة.. أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال، وتصورات الأطفال، واهتمامات الأطفال، كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال، ومحاولات الأطفال ولثغة الأطفال.. وأعجب..: ما بال هؤلاء الناس؟ ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل، النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه)[3].

إن سبب الاختلاف بين نظرة سيد قطب إلى الجاهلية المادية، وبين نظرة كثير من المسلمين المعاصرين ـ وبخاصة المتنفذين والمتزعمين والمترئسين منهم ـ هو اختلاف الزاوية التي ينظرون منها، والمنظار الذي ينظرون من خلاله، والحالة التي ينظرون فيها!! إنه نظر إليها من زاوية العقيدة الإسلامية، التي تحدد أن الله سبحانه وتعالى هو المالك للكون والمتصرف فيه، والفاعل فيه لما يشاء، وجُميع قوى العالم «عبيد نواصيهم بيد الله سبحانه» لقد نظر إليها بمنظار القرآن، عندما كان يعيش في ظلاله،

---

(١) معالم في الطريق: ١٧٦.

(٢) انظر الظلال ٦: ٣٣٩٤ ـ ٣٣٩٥.

(٣) الظلال ١: ١١.

مغموراً بفيضه، معتزاً بالحياة معه، ولهذا رآها على حقيقتها، وأعطاها وصفها الذي ينطبق عليها.

أما غيره من «المضبوعين» بها، من المفكرين والسياسيين والموجهين والمربين والاقتصاديين فإنهم نظروا إليها من زاوية «التقدم المادي» والقوة الظاهرية، وبمنظار التصور البشري القاصر للقُوى والقيم، عندما هُزموا أمامها هزيمة منكرة، ولذلك جاء حكمهم عليها ظالماً قاصراً، ضعيفاً عاجزاً، «فضبعتْهم» بجعجعتها وانتفاشها وادعائها وغرورها، «واستضبَعوا» شعوبهم لها، استضباعاً لا زال الناس يعيشونه، ويدفعون ضريبته المخزية، ضريبة الذل والضياع والاستعباد!!

لقد كان سيد قطب حريصاً في كل موطن مناسب من الظلال على الوقوف في وجه المادية الجاهلية الطاغية، وبيان عيوبها وكشف سوءاتها، وتعرية حضارتها وحياتها «البهيمية» ويحذر المسلمين من الطريق الشهواني المدمر الذي تسير هي فيه، وتقود شعوبها إليه، وتدعو المسلمين للسير فيه، ويستشهد في هذا بأقوال رجال منهم، وكلام بعض الواعين منهم، وصيحات الخطر والتحذير التي يطلقها المشفقون منهم[1].

وكان يفند أفكار الجاهلية المعاصرة: ويبين زيف وخطأ وضلال أقوال مفكريها وفلاسفتها، في تصورهم للوجود والحياة، والإنسان ووظيفته، وحياته وقيمه ومناهجه، ويربط في هذا بين الجاهليين المعاصرين والجاهليين السابقين، فهم إخوة في طريق الضلال والضياع[2].

وكان يقود الفكر الإسلامي - في صراعه الفكري. مع الفكر الجاهلي - من مرحلة الدفاع على استحياء إلى مرحلة الهجوم المباشر، وكان يعرض مبادىء الإسلام وتصوراته ومناهجه، بثقة وتحديد ووضوح، سواء مفهوم

(١) انظر - على سبيل المثال - الظلال ١: ٦٠١ - ٦٠٢ و٢: ٦٣٢. و٣: ١٢٧٧ - ١٢٨٠.
(٢) انظر الظلال ٢: ١٠٣٤ - ١٠٣٥ و٢: ١٠٨٧ - ١٠٨٨. و٢: ١١١١ - ١١١٩ و٣: ١٢٧٠ - ١٢٧٣.

الجهاد في سبيل الله[١]، أو حقيقة أهل الكتـاب[٢]، أو ضرورة التميـز والمفاصلة، وقصر الـولاء على الله ورسولـه والمؤمنين[٣]، أو إفراد الله بالحاكمية كإفراده بالألوهية والربوبية[٤]، أو غير ذلك.

ولذلك نراه يصرح في كتاب «معالم في الطريق» - الذي يعتبر متمماً للظلال، ومحققاً لأهدافه - بأن الإسلام تصور مستقل للوجود والحياة، يخالف تصور الجاهلية، فليست وظيفته (إذن أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض..)[٥] ولذلك فهو (لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية لا من ناحية التصور، ولا من ناحية الأوضاع المنبثقة من هذا التصور.. فإما إسلام وإما جاهلية..)[٦].

فوظيفته إذن هي (إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية، وتولي هذه القيادة على منهجه الخاص، المستقل الملامح، الأصيل الخصائص..)[٧] ولذلك يتحدث باسم دعاة الإسلام، مبيناً طريقة وأسلوب تقديم الإسلام - بثقة وقوة وعطف ورحمة - للجاهليين (لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسساً، ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة، سنكون معهم صرحاء غاية الصراحة.. هذه الجاهلية التي أنتم فيها نجس والله يريد أن يطهركم... هذه الأوضاع التي أنتم فيها خبث، والله يريد أن يطيبكم.. هذه الحياة التي تحيونها دون، والله يريد أن يرفعكم.. هذا الذي أنتم فيه شقوة وبؤس ونكد، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويسعدكم.. الإسلام سيغير تصوراتكم وأوضاعكم وقيمكم...)[٨].

---

(١) الظلال ٣: ١٤٣١ - ١٤٥٢.
(٢) الظلال ٢: ٩٢٤ - ٩٢٦.
(٣) الظلال ٢: ٩٠٧ - ٩٢٢.
(٤) الظلال ٣: ٨٨٨ - ٨٩١.
(٥) معالم في الطريق: ٢٠٠.
(٦) المرجع السابق: ٢٠١.
(٧) المرجع السابق: ٢٠٢ - ٢٠٣.
(٨) معالم في الطريق: ٢٠٦ وانظر فصل «نقلة بعيدة» من المعالم.

تاسعاً: **ربط النصوص القرآنية بالواقع المعاصر**، حيث رأيناها ـ وقد دبت فيها الحياة ـ تصف واقعنا وتتحدث عن قضايا نعيشها، وأمور نتعامل معها، إن مدلول النص القرآني عند سيد قطب واسع، يتخطى قيود المكان وحدود الزمان، ليشمل واقعنا وواقع القادمين في المستقبل، إنه يتسع ليشمل مساحة مكانية وزمانية فسيحة، ولذلك نراه لم يفسر النص بجزء من الأجزاء التي يشملها ـ كما فعل مفسرون سابقون ـ ولم يتحدث في تفسيره عن أمور ومباحث ماضية ـ كما فعلوا أيضاً، وإنما يركز على بيان انطباق النصوص ـ الصادق المعجز ـ على حياتنا، وحلها لمشكلاتنا وتبيينها لمعالم طريقنا.

ولعل هذا من أهم العوامل التي بوأت الظلال مكانته السامقة في الفكر الإسلامي المعاصر، وبين كتب التفسير في القديم والحديث.

والأمثلة على هذا كثيرة جداً في الظلال[١].

ويصل سيد قطب الذروة في هذا الربط، وهو يتحدث عن الدعوة وقضاياها[٢]، وهو يتحدث عن طبيعة المعركة مع أعدائها[٣]، وهو يرسم نماذج بشرية لهؤلاء الأعداء[٤] كذلك وهو يبين معالم الطريق إلى الله[٥]، أو وهو يعالج أخطاء فكرية أو سلوكية للمسلمين المعاصرين[٦]، أو وهو يشير إلى واقع الحركة الإسلامية المعاصرة ومعركتها مع الجاهلية، وبخاصة في سجون الطغاة[٧]، ويبلغ حد الروعة وهو يتحدث عن الابتلاء والاستشهاد[٨]، وكأنما كان يسعى بخطى حثيثة للوصول إلى الشهادة، التي جاءته تسعى إليه في سجنه!!

---

(١) الظلال ١: ٤٢. و٢: ١١٠٦. و٣: ١٦٠٩ ـ ١٦١٠ و٤: ١٨٦٥ ـ ١٨٦٦.
(٢) الظلال ٤: ٢٠٩١ و٢١٠٠ ـ ٢١٠٢.
(٣) الظلال ١: ١٠٨ و٢: ٩٢٣ ـ ٩٢٦.
(٤) الظلال ١: ٤٥١ ـ ٤٥٣ و٣: ١٦٠٧ ـ ١٦١٠.
(٥) الظلال ١: ٤٤٤ ـ ٤٤٥ و٤: ١٨٨٥ ـ ١٨٩٣.
(٦) الظلال ٣: ١٣٩٧ ـ ١٣٩٩ و١: ٤١٩.
(٧) الظلال ٣: ١٦٤٨ ـ ١٦٥٠ و٦: ٣٥٧٩.
(٨) الظلال ١: ٤٨٠ ـ ٤٨٢ و٣: ١٧١٦ ـ ١٧١٧.

عاشراً: تقديم صورة عملية واقعية لتعامل المؤمنين مع نصوص القرآن، وتفاعلهم مع آياته والتزامهم بأحكامه، بهدف بيان الواقعية في أحكام القرآن ومبادئه، ومناهجه، فهي ليست مبدىء خيالية مثالية مجنحة لا تثبت على أرض الواقع، ولا تطبقها البشرية في حياتها، - كما يتهم الآن بعض العجزة مبادىء الإسلام هذا الاتهام - وإنما هي في وسع البشرية الجادة (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. .)[1].

هذه الصورة هي تعامل الرسول ﷺ وأصحابه الكرام - رضوان الله عليهم - مع نصوص القرآن، فكان حريصاً على إيراد ما نقل عن الصحابة حول الآية التي يفسرها، من تفاعل معها، والتزام كامل بمعناها، وإخضاع لسلوكهم وتصرفاتهم وحياتهم لأحكامها.

لقد سجل سيد قطب في الظلال معاني القرآن التي فهمها الصحابة واستلهموها وعاشوا تطبيقها العملي الواقعي، ولم يفرقوا بين المعرفة النظرية والتطبيق العملي. إنه يرى أن الصحابة كانوا جيلاً قرآنياً فريداً، تمثل فيهم الهدف العملي للقرآن، ولذلك استصحبهم في حياتهم بالقرآن، استصحبهم «بحسه المرهف، وإيمانه العميق، وثقافته الواسعة، وتجربته الطويلة، وحركته الدائبة في حقل الدعوة والأمة. .)[2] فأدرك أسباب تفردهم[3]، وعرف كيف يتلقى التفسير عنهم. لقد وسّع مفهوم التفسير المأثور عن الصحابة، فهو ليس ما روي عنهم من أقوال مأثورة تناثرت في كتب التفسير السابقة، لأن هذه الأقوال (لا تصور لنا الغرض الأساسي الذي نزل القرآن من أجله، والذي وعاه الصحابة رضوان الله عليهم وطبقوه، وعاشوه واقعاً وعملاً. . .)[4] ولكن هذا التفسير يتمثل في تفاعلهم بالقرآن وتطبيقهم العملي الواقعي له، وهذا التفسير لا يمكن تحصيله في كتب التفسير بالمأثور لأنها لا

---

(١) البقرة: ٢٨٦ وانظر تفسيرها في الظلال ١ : ٣٤٤.
(٢) علوم القرآن لزرزور: ٤٢٦.
(٣) انظر فصل «جيل قرآني فريد» من معالم في الطريق.
(٤) علوم القرآن: ٤١٨.

تحوي إلا أقوالهم التفسيرية القليلة فقط. وإنما يمكن تحصيله في تمثل الصحابة الكامل للقرآن (والذي تجلى في حياة الصحابة وسلوكهم وفهمهم عن الله سبحانه، ومن خلال روحهم العظيمة تلك التي سرت في العالم... بل ينبغي تحصيل هذا التفسير - قبل ذلك - من خلال السيرة النبوية الشريفة، وخلق النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه...)[1].

والأمثلة على بيانه هذا، كثيرة جداً في الظلال[2] بل إنه كان يعرض حلقات من السيرة النبوية[3]، ومغازي رسول الله ﷺ[4]، وتربية القرآن للصحابة بالأحداث[5]، كلما رأى أن الفرصة سانحة لذلك.

أحد عشر: بيان أسباب النزول وتصوير الجو العام الذي نزل فيه النص، وبيان مدى حاجة الصحابة إليه، ونجاحه في تلبية هذه الحاجة، ومن أجل هذا كان يورد - كثيراً - أكثر من سبب للنزول[6]، وأحياناً كان يقف ليناقش أسباب النزول المتعارضة ويوجه ما يختاره منها[7].

لقد كان يجتهد ويُجهد نفسه في محاولة معرفة تاريخ نزول النص وتحديد ملابسات نزوله، لتصور تلبيته لحاجة المسلمين إليه وتفاعلهم معه، وكان يُبدي أساه وأسفه لعدم الترتيب الزمني لنصوص القرآن، وعدم تسجيل الصحابة والتابعين لهذا الترتيب، لأن الوقوف عليه يحيط الباحث بالملابسات التاريخية لنزول القرآن، وبما أنهم لم يسجلوا ذلك - أو سجلوه ولم يصل إلينا - فإن الترتيب الزمني للنزول لا يمكن القطع فيه الآن بشيء إلا في بيان المكي والمدني - على ما فيه من خلاف - على وجه الإجمال.

---

(١) المرجع السابق: ٤١٩.

(٢) على سبيل المثال - الظلال ١: ٥٠٥ و٢: ٦٩٧ - ٧٠٠ و٣: ١٧٩٩ - ١٨٠٠ و٦: ٣٨٢٦ - ٣٨٣٠ و٣: ١٥٧٠ - ١٥٧٨.

(٣) الظلال ٦: ٣٥٧٥ - ٣٥٧٨ و٣٦٥٩ - ٣٦٦١. و١: ٢٨ - ٣٣.

(٤) الظلال ١: ٤٦٠ - ٥٣٣ و٤: ٢٤٩٥ - ٢٥٠٦.

(٥) الظلال ٣: ١٧٢٧ - ١٧٣٣ و٦: ٣٣٣٨ - ٣٣٤٢ و٦: ٣٥٣٧ - ٣٥٣٩.

(٦) الظلال ١: ٢٤٨ - ٢٤٩. و٣: ١٧٠٦ - ١٧٠٧.

(٧) الظلال ١: ١٤٨ - ١٤٩. و١: ١٩٣ - ١٩٤.

ويعترف بالقيمة العظيمة من تتبع هذا ـ لو كان ممكناً ـ (وعلى كل ما في محاولة تتبع آيات القرآن وسوره وفق الترتيب الزمني للنزول من قيمة، ومن مساعدة على تصور منهج الحركة الإسلامية ومراحلها وخطواتها، فإن قلة اليقين في هذا الترتيب تجعل الأمر شاقاً، كما أنها تجعل النتائج التي يتوصل إليها تقريبية ظنية، وليست نهائية يقينية. . وقد تترتب على هذه النتائج الظنية التقريبية نتائج أخرى خطيرة. . .).

ولذلك بين أنه ـ أمام استحالة الجزم في هذا، وأمام مشقة البحث فيه، ونظراً لأهمية المحاولة في بيانه ـ حاول (الإلمام بالملابسات التاريخية لكل سورة ـ على وجه الإجمال والترجيح ـ والاستئناس بهذا في إيضاح الجو والملابسات المحيطة بالنص ـ على وجه الاحتمال والترجيح أيضاً. . .)[1].

وتعريفه بالسور في الطبعة المنقحة وتفسير آيات كل سورة منها، كان يلاحظ فيه هذا الأمر ويحرص على محاولة بيان ملابسات النزول، وتصوير الجو العام الذي نزل فيه[2].

لقد كان حريصاً على هذا البيان لأنه يعتقد (أن كل أمر أو نهي أو توجيه ورد في القرآن الكريم، كان يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي، وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة وإما إبطال حالة قائمة. . . وذلك دون إخلال بالقاعدة الأصولية العامة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومع ملاحظة أن النصوص القرآنية جاءت لتعمل في كل جيل وفي كل بيئة كما أسلفنا. وفي هذا تكمن المعجزة. . .)[3].

إثنا عشر: بيان حِكَم التشريعات وتعليل الأوامر والتوجيهات، فما يمر بحكم أو تشريع إلا ويقف ليسجل حكمته التي تبدو له، وما يأتي إلى أمر أو

---

(١) الظلال ٣: ١٤٢٩.
(٢) الظلال ١: ٢٨ ـ ٣٤ و١: ٣٤٩ ـ ٣٥٠ و١: ٥٥٥ ـ ٥٥٧ و٦: ٣٣١٤ ـ ٣٣١٦ و٣: ١٥٧٠ ـ ١٥٧٨.
(٣) الظلال ١: ٥٥٧.

توجيه إلا ويقف معللاً موجهاً مبيناً، لما فيه من مصلحة وخير للعباد[1].

وكثيراً ما يبين أكثر من حكمة ويسجل أكثر من علة[2] وتكون تعليلاته التي يبينها والحكم التي يظهرها فريدة ورائدة، تربوية أو ثقافية أو حركية. .

وهو لا يبين هذه الحكم حتى تنشىء الإيمان في قلوب الناس، لأنه يعلم أن بيان الحِكَم ـ بحد ذاته ـ لا ينشىء إيماناً، وإنما يسوقها لزيادة الإيمان واليقين في قلوب المؤمنين، وحصول مزيد من الثقة بكلام الله، والتصديق بخيرية أحكامه، وأنها تُحْدث في قلب المؤمن ما عبر عنه خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما سأله ربه قال: (أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي. . .)[3].

إنه لا يريد من بيان الحكمة أن يجعل من العقل البشري العاجز، حاكماً على كلام رب العالمين، ولا أن يحاكم أوامر الله وتوجيهاته إلى ثقافة هذا العقل الضئيلة الهزيلة، ولا أن يقيد الالتزام بأوامر الله بظهور الحكمة ـ كما يفعله بعض الذين يتبجحون في بيان حِكَم التوجيهات الربانية ـ إنه يدعو للتسليم بحقيقة (أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) وحقيقة أن (هذا الدين من عند الله) وبعد التسليم بهما يسلم المسلم (تلقائياً بكل ما ورد في هذا الدين، لا يهم عندئذٍ أن يدرك حكمته الخفية أو لا يدركها، فالحكمة متحققة حتماً ما دام من عند الله، ولا يهم عندئذٍ أن يرى المصلحة متحققة فيه في اللحظة الحاضرة، فالمصلحة متحققة حتماً ما دام من عند الله، والعقل البشري ليس ندا لشريعة الله ـ فضلاً على أن يكون الحاكم عليها ـ)[4].

وحتى يضع العقل البشري المؤمن في مكانه الطبيعي أمام أحكام الله ونصوص القرآن ـ بدون إفراط ولا تفريط ـ فإنه يدعوه إلى عدم الاندفاع في

---

(١) انظر على سبيل المثال الظلال ١: ٢٤٦ و٢: ٦٦٩ و٣: ١٥٨٦ ـ ١٦٨٧ و٤: ٢٤٨٧ و٦: ٣٥٤٦.

(٢) انظر الظلال ١: ١٢٦ ـ ١٢٨ و٢: ٧١٣ ـ ٧١٥.

(٣) البقرة: ٢٦٠.

(٤) الظلال ٢: ٧٢٣.

تعليل هذه الأحكام، أو ادعاء استقصاء بيان الحِكَم المحتملة، أو محاولة تعليل كل حكم، أو تحديد حكمة كل أمر، أو التمحل في بيان الحكم ولو بطريقة متهالكة، أو الجزم بأن هـذه هي الحِكَم المقصودة أو محـاكمة النصوص إلى «العلم الحديث». والمنهج الصحيح المقبول هو بذل الجهد في بيان الحِكَم الممكنة ثم نقول بعد ذلك ـ دائماً ـ (إن هذا ما استطعنا أن نستشرفه من حكمة النص أو الحكم، وأنه قد تكون دائماً هنالك أسرار من الحكمة لم يؤذن لنا في استجلائها...)[1].

ثلاثة عشر: تزويد القارىء بمنظار ينظر به في آيات الله في النفس والآفاق، ليتفكر في آيات الله ـ التي لا تحصى ـ وليحس مذاقاً جديداً لنعم الله، ليزداد إيمانه ويتعمق يقينه، ويتوجه إلى الله بالذكر والشكر بشعور الحياء من التقصير في شكره، والمراقبة المستمرة لربه.

هذا المنظار طبقه هو أولاً فرأى فيه عجباً من هذه الآيات والنعم، ومذاقاً عجيباً لهذه الآلاء الغامرة، لقد خلع منظار الألف والعادة في النظر إلى الكون وآيات الله فيه، لأنه يبدو آلياً رتيباً، ويفقد الكون تأثيره والآيات جِدَّتها، ولقد نظر في الكون وما فيه بمنظار «الجِدَّة» جدة المفاجأة لآيات الله، وتخيل أنه يرى الآية أول مرة في حياته.

ولقد دعا القارىء إلى خلع منظار الإلْف والعادة، والنظر بمنظار الجِدَّة والمفاجأة، ليتزود برصيد ضخم من الإيحاءات والمعاني: (ومشهد السموات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا. لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة. لو استنقذْنا حسَّنا من همود الألف، وخمود التكرار لارتعشت له رؤانا، ولاهتزت له مشاعرنا...)[2].

ولقد استجاب سيد قطب في هذا إلى دعوة القرآن الكريم، حيث دعا

---

(١) الظلال ٢: ٦٦٩ ـ ٦٧٠.

(٢) الظلال ١: ٥٤٥.

إلى النظر في الكون ومشاهده العظيمة بمنظار الجِدة والمفاجأة، وأيقظهم من همود الألف والعادة والتكرار فقال: ﴿قل: أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء؟ أفلا تسمعون؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إلَه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه؟ أفلا تبصرون؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[1].

وبهذا المنظار صار سيد قطب يرى آلاء الله ونعمه عليه جديدة جديدة، لها مذاق خاص، ويتفاعل كيانه معها، تفاعلاً يجعل لسانه ومشاعره متوجه إلى الله بالشكر الجزيل الجميل على ما أنعم، بل إنه يعتبر الشكر نفسه نعمة جديدة من نعم الله!! يوفق الله إليها من يستحقها بالتوجه والتجرد والإخلاص[2]!!.

بهذا المنظار ـ إن أحسنًا استعماله ـ يبدو الكون جديداً، وتبدو مشاهده فريدة موحية، ويبدو ـ كما يبين القرآن ـ كتاباً مفتوحاً لآيات الله، ومَعْرضاً حياً متحركاً عجيباً لخلق الله الجميل المعجز[3].

وبهذا المنظار «يبقى القرآن جديداً أبداً، لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس، وهي لا تنفد، ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود!!)[4].

أربعة عشر: ربط الأحكام والتشريعات بالعقيدة، وبيان أثر العقيدة في الالتزام بالشريعة وحدودها، وأحكامها ومبادئها، وبيان أهم أسباب الازدواجية اليوم بين الفكر والسلوك، وهو أن العقيدة لم تَعُد هي الفاعلة المؤثرة الموجهة للسلوك ومظاهر الحياة ودعوة المسلمين إلى إزالة هذه الازدواجية،

---

(١) القصص: ٧١ ـ ٧٣ وانظر تفسير الظلال لهذه الآيات ٥: ٢٧٠٨.

(٢) الظلال ٥: ٢٨٩٩.

(٣) انظر الظلال ٢: ١١٥٢ ـ ١١٥٣.

(٤) الظلال ٤: ٢٠٧٤.

والقضاء على هذا «الانفصام» بين ما يؤمنون به، وما يمارسونه في حياتهم، وإلى أن تكون حياتهم «صـورة عملية واقعيـة» لأحكام الإسـلام ونظمـه وتشريعاته. وذلك عن طريق إعادة العقيدة إلى مكانتها في كيانهم، وقيادتها لأنفسهم.

ولهذا يجهر بأن أحكام الإسلام وقوانينه ومبادئه لا يحميها نصوصها - المجردة - ولا يحميها حراسها من البشر. ولكن تحرسها (القلوب التقية، التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته..)[1] وهذا هو الفرق الجوهري الأصيل بين طريقة الإسلام في إقرار مبادئه ومناهجه وأحكامه، وبين طريقة البشـر - العاجزة الفاشلة - في إقرار مبادئها ومناهجها. وعقد مقارنة بين نجاح الإسلام في تحريم الخمر رغم تغلغل ظاهرة شربه في المجتمع الجاهلي - وبين فشل أمريكا في سن قانون بتحريمه، سُمِّي عند الأمريكيين «قانون الجفاف» تهكماً عليه، فشلت رغم ما بذلته وما أنفقت عليه وما ضحت في سبيله، بينما نجح الإسلام في تحريمه بكلمة! لقد نجح الإسلام لأنه أخذ النفس البشرية (بسلطان الله وخشيته ومراقبته، وبحضور الله سبحانه فيها حضوراً لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان. أخذها جملة لا تفاريق.. وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة..)[2].

ولذلك كان يتوقف أمام الآيات التي تختم الأوامر والنواهي بالأمر بتقوى الله ومراقبته وخشيته. يتوقف ليبين السر التربوي والتشريعي المعجز في هذا، وليؤكد على أهمية العقيدة في الالتزام بالشريعة، ووظيفة القلب في حراسة أحكام الإسلام. ويدعو المربين والموجهين إلى مـلاحظة هـذا والتركيـز عليه[3]!.

خمسة عشر: إبراز التوافق والانسجام بين الإنسان والكون، وبيان

---

(١) الظلال ٣: ١٣٨٤.

(٢) الظلال ٢: ٦٦٦ وانظر المقارنة: ٦٦٣ - ٦٦٧.

(٣) انظر - على سبيل المثال - الظلال ١: ١٦٦. و ٢٤٦. و٣٣٧ - ٣٣٨. و٦: ٣٥٩٤ - ٣٥٩٥.

التناسق بين خطوات الإنسان إلى الله وبين حركة الكون إلى الله، والتركيز على بيان «الوحدة» التي توحد سيرهما إلى الله، وإنني مع يوسف العظم في قوله: (أحسب أن الشهيد ـ بين المفسرين والمفكرين المسلمين أقدمين ومعاصرين ـ هو أول من بحث موضوع العلاقة بين «الإنسان والكون والحياة» بصورة واضحة مفصلة، وتعابير محددة معلنة)[1].

وقد بيَّن هذا ـ بوضوح وعمق ـ في عدة مواطن من الظلال[2]، كما خصص لها مساحة شاسعة من كتابه «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» ـ وهو أعمق كتبه ـ كما تحدث عنها حديثاً مركزاً متعمقاً في فصل «شريعة كونية» ـ وهو أوضح الفصول عمقاً ـ في كتاب معالم في الطريق.

ولتوضيح هذا الهدف يصرح في مقدمة الطبعة المنقحة من الظلال: «وعشت ـ في ظلال القرآن ـ أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله، وحركة هذا الكون الذي خلقه الله. ثم أَنظر... فأرى التخبط الذي تعانيه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي تملى عليها، وبين فطرتها التي فطرها الله عليها. وأقول في نفسي، أي شيطان لئيم هذا الذي يقود خطاها إلى هذا الجحيم؟ يا حسرة على العباد[3]!!!.

ستة عشر: العرض الأدبي الحي لصور القرآن الفنية المعجزة، ومشاهده المؤثرة الساحرة، وأساليب بيانه الفصيحة البليغة، وقصصه وحوادثه المروية، والتعبير عن إحساسه الفريد بالجمال الفني في القرآن، وإطلاع القراء على مظاهر الجمال المعجز و«السحر الحلال» في هذا القرآن، ودعوتهم لمعايشته وتذوقه والحياة ـ بخيالهم ـ معه.

---

(١) رائد الفكر الاسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب ليوسف العظم: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) انظر ـ على سبيل المثال ـ الظلال ١: ١٧ ـ ١٨. و٤٢١ ـ ٤٢٢. و٢: ٩٣٠ ـ ٩٣٦. و٤: ٢٠٩٤. و٦: ٣٤٩٢ ـ ٣٤٩٣.

(٣) الظلال ١: ١١.

لقد كان هذا هدفاً وحيداً في كتابيه «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن» وهدفاً أساسياً في طبعته الأولى من الظلال، حيث يقول في مقدمتها (كذلك حاولت أن أُعبِّر عما خالج نفسي من إحساس بالجمال الفني العجيب في هذا الكتاب المعجز، ومن شعور بالتناسق في التعبير والتصوير. . كانت إحدى أمانيَّ أن يوفقني الله إلى عرض القرآن في هذا الضوء. . . ثم كمنت هذه الرغبة أو توارت، حتى ظهرت مرة أخرى في هذه الظلال)[1].

وبقي هذا الهدف من بين أهدافه في الطبعة المنقحة ـ الحركية ـ للظلال ـ وإن ظن البعض عكس ذلك[2] ـ ولذلك كثيراً ما نراه يبين صور القرآن الفنية،[3] أو يعقد مقارنات فنية بين صور القرآن ومشاهده[4]، أو يعرضها في قالب أدبي حي ساحر[5].

---

(١) الظلال: الطبعة الأولى ١: ٦ ـ ٧.

(٢) انظر كتابنا «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب» مبحث «بين الظلال والتصوير».

(٣) انظر الظلال ١: ٨٦ و٣٠٨ ـ ٣١٠ و٢: ١١١١ ـ ١١١٣ و٣: ١٢٩٩ و٥: ٣١٢٥ ـ ٣١٢٦.

(٤) انظر الظلال ١: ٨٠ و٢٦٥ و٤: ٢٠٤٤ ـ ٢٠٤٨. و٤: ٢١٨٢ مع ٢١٨٧ و٦: ٣٨٠٠ ـ ٣٨٠٢.

(٥) الظلال ٢: ١٠١٥ ـ ١٠١٦ و٤: ٢٠٤٩ و٥: ٢٨٩١ ـ ٢٨٩٢ و٦: ٣٤١٥ ـ ٣٤١٦.

الفصل الرابع

مَوَارِدُ الظِّلَال

المصادر والموارد:

آثرنا كلمة (موارد) على كلمة (مصادر) لأن الموارد أشمل من المصادر، ولأنها أصدق في الدلالة على معناها في الظلال.

المصادر خاصة بالكتب التي أخذ منها، والمراجع التي رجع إليها، والمؤلفات التي نقل منها، أما الموارد فإنها تعني المصادر والمراجع والكتب، وتزيد على ذلك ألوان الثقافة الشاملة التي تثقف بها سيد قطب، والتي ظهرت في الظلال. إن موارده متنوعة، فمنها الإسلامية ـ بشتى فروعها من تفسير وسيرة وحديث وفقه ـ ومنها الغربية المترجمة في مختلف المجالات، الطبيعية والفلكية والنفسية والاجتماعية..

ويندرج تحت الموارد «الأساتذة» الذين أخذ عنهم سيد قطب، والذين «شكلت» أفكارهم وآراؤهم الخلفية الفكرية لسيد في بعض الأمور والقضايا، وبخاصة العقيدية والحركية منها، هؤلاء الأساتذة يبدو تأثره بهم في الظلال، إما بإيراد أفكارهم ونقل عباراتهم وإما بترديد أفكارهم وتبنيها، والاحتجاج لها وبيانها...

موارد الظلال ثانوية:

إن موارد الظلال تختلف عن موارد التفاسير الأخرى، بسبب اختلاف الظلال عن تلك التفاسير، بطبيعته والهدف منه.

إنها في الظلال ليست أساسية أو رئيسية وإنما هي ثانوية، إذ يورد ما يورده منها للتمثيل والاستشهاد لما يقول. وهذه من أهم مزايا الظلال!! إذ أن سيد قطب دخل عالم القرآن الرحيب بدون خلفية مسبقة أو مقرر فكري مسبق، حيث ألقى على «عتبته» أفكاره وآرءه وتصوراته، وترك للقرآن أن يصوغ له شخصيته، وأن يُنمي له فكره، ويوضح له تصوره، و«يشكّل» له خلفيته العلمية والثقافية.

القرآن الكريم ـ بهذا الاعتبار ـ هو المرجع الرئيسي والمصدر المباشر الذي تلقى منه، وتقريرات القرآن وتوجيهاته، وإيحاءاته وظلاله هي الموارد التي زودته بأفكاره وتصوراته، وآرائه ومواقفه، التي بيَّنها أحسن بيان في الظلال.

لقد كان «يستلهم» القرآن الكريم مباشرة ـ بعد الحياة في ظلال القرآن طويلاً ـ ويستحضر ـ بقدر الإمكان ـ الجو الذي تنزل فيه القرآن. أما منهجه في استلهام القرآن فبينه بقوله: «منهجنا في استلهام القرآن الكريم، ألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً، لا مقررات عقلية ولا مقررات شعورية ـ من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته ـ نحاكم إليها نصوصه، أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة.

لقد جاء النص القرآني ـ ابتداء ـ لينشىء المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر وأن تقوم عليها حياتهم، وأقل ما يستحقه هذا التفضل من العلي الكبير، وهذه الرعاية من الله ذي الجلال ـ وهو الغني عن العالمين ـ أن يتلقوها وقد فرغوا لها قلوبهم وعقولهم من كل غبش دخيل، ليقوم تصورهم الجديد نظيفاً من كل رواسب الجاهليات ـ قديمها وحديثها على السواء ـ مستمداً من تعْليم الله وحده..»[1].

غنى النص القرآني:

والقرآن الكريم يمد من يقبل عليه بهذه النيّة، بمدد عظيم لا ينفد، إنه

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: ١٦ ـ ١٧ وانظر الظلال ٤: ٢١٣٤ حاشية.

غَني في هذا غِنى معجزاً، كيف لا وهو كلمات الله سبحانه. والله عز وجل بيَّن غنى كلماته بقوله: ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر، ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم﴾[1].

ولقد سجل سيد قطب هذه الحقيقة في ظلاله، حيث بيَّن أن الدارس الواعي لهذا القرآن يجد فيه «وفرة من النصوص والتوجيهات يحار في كثرتها ووفرتها! فوق ما في هذه الوفرة من أصالة وصدق وعمق وإحاطة ونفاسة»[2].

ويقول عن نفسه قولاً كاشفاً يدل على طريقته في التفسير، وغناه بالقرآن، واستغنائه عن أقوال البشر من المصادر والمراجع، التي إنْ ذكرها فإنما يذكرها للاستشهاد، كما يدل على سلفيته «الخاصة» أيضاً.

(إنني لم أجد نفسي مرة واحدة - في مواجهة هذه الموضوعات الأساسية - في حاجة إلى نص واحد من خارج القرآن - فيما عدا قول رسول الله - ﷺ - وهو من آثار هذا القرآن - بل إن أي قول آخر ليبدو هزيلاً - حتى لو كان صحيحاً - إلى جانب ما يجده الباحث في هذا الكتاب العجيب. . .)[3].

أما الطريق الذي يقود إلى هذه الكنوز، فيدل عليه سيد قطب الباحثين بقوله: (إنها الممارسة الفعلية التي تنطق بهذه التقريرات، والصحبة الطويلة في ظل حاجات الرؤية والبحث والنظر في هذه الموضوعات. .)[1].

الموارد وطريقته في التفسير:

ونتيجة لهذا كان لسيد قطب طريقة فريدة في التفسير، لم يسلكها أحد قبله من المفسرين، قدامى ومعاصرين. إنه لم يُشغل نفسه بالإطلاع على التفاسير السابقة، وما فيها من خلافيات واحتجاجات في مختلف الموضوعات الإسلامية، ولم يتلق منها معلوماته الفكرية، ولم يدخل عالم القرآن بمقررات

---

(١) لقمان: ٢٧.

(٢) الظلال ٣: ١٤٢٢ وانظر الظلال ٣: ١٧٨٧ - ١٧٩٠.

(٣) الظلال ٣: ١٤٢٣.

فكرية مسبقة ـ كما فعل غيره ـ ولم يجعل النص القرآني تابعاً لمقرراته، ولم يلوِ أعناق النصوص القرآنية ليّاً ليستدل بها على ما يريد ـ كما فعل غيره ـ.

إن طريقته ناتجة عن حرصه على دخول عالم القرآن بدون مقررات فكرية مسبقة، ومن إيمانه بغنى القرآن ووفرة مدلولاته وإيحاءاته.

إن طريقته تقوم على مرحلتين:

المرحلة الأولى:

لا يتلقى فيها إلا من القرآن وحده، ولا دور للمراجع والمصادر والموارد في هذه المرحلة إطلاقاً، وهي المرحلة الأساسية والرئيسية والمباشرة. هذه المرحلة تتلخص في (قراءته للسورة القرآنية كاملة عدة مرات، وربما عاود قراءتها والنظر فيها يوماً بعد يوم حتى يهتدي ـ رحمه الله ـ إلى موضوعها الرئيسي، ومحورها العام الذي تدور حوله سائر موضوعاتها الفرعية الأخرى.. حتى إذا اهتدى إلى ذلك، وفتح الله تعالى عليه به، عكف على تفسيرها بأقل قدر ممكن من الجلسات، ولو أمكنه أن يفعل ذلك في مقام واحد لفعل...)[1].

المرحلة الثانية:

وهي ثانوية، ومكملة للأولى ومتممة لها، يستكمل بها ما في الأولى من نقص، أو يتلافى ما فيها من تقصير، أو يستدل لما فيها من آراء أو يستشهد لما فيها من أفكار، وهذه المرحلة تعتمد على الموارد والمصادر اعتماداً رئيسياً، لأنها تقوم على (النظر في كتب التفسير، يستدرك بها سبباً من أسباب النزول، أو يوضح من خلالها مسألة من مسائل الفقه، أو يستشهد منها بحديث أو رواية صحيحة وردت في تفسير بعض الآيات...).

وهذه المرحلة الثانية تدل ـ كما يقول الدكتور عدنان زرزور ـ على حرص سيد قطب (على عدم التأثر المسبق بأي لون من ألوان التفسير

---

(١) علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور: ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

والتأويل من جهة، كما تكفي للدلالة على حرصه في الوقت ذاته على عدم الخروج عن الروايات الصحيحة في التفسير بالمأثور..).

ويذكر الدكتور زرزور بأن هذه الإضافات والتوضيحات التي استقاها سيد قطب من المراجع والموارد (قلما بنى عليها تعديله أو إلغاءه لتفسير بعض الآيات، على النحو الذي سبق له تدوينه وكتابته...)[١].

إن رجوع سيد إلى المراجع والموارد في المرحلة الثانية يدل فيما يدل عليه - بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه - على أن كلام سيد قطب في الظلال ليس كلاماً أدبياً عاطفياً لا يتضمن علماً - كما فهم بعض المغرضين والجاهلين - كما يدل على طبيعة الظلال وأنه ليس مجرد إنشاء أو خواطر فقط - كما فهموا ذلك خطأ أيضاً -.

ويدل أيضاً على توفر العلمية والمنهجية في البحث عند سيد، وحرصه على الالتزام بها، وإن تفسير الظلال يقوم على هذه العلمية والمنهجية، ويخضع لأدق الشروط المطلوبة في البحث العلمي الرصين.

أخذه من الموارد على صورتين:

إن سيد قطب حريص في الظلال على العودة إلى المصادر، والأخذ من الموارد. وأخذه منها على صورتين:

الأولى: أن يأخذ منها أفكاراً عامة، أو توجيهات وتقريرات، ولا ينقل منها كلاماً محدداً، فهذه يكتفي بإحالة القارىء عليها.

الثانية: يأخذ منها كلاماً للاستدلال أو الاستشهاد أو التمثيل أو التوضيح، ونقله منها غالباً ما يكون بين علامتي التنصيص مع الإشارة إلى المرجع والصفحة - أحياناً - في الهامش! وإن عملية النقل والاقتباس هذه تتوفر فيها المنهجية العلمية بصورة واضحة.

كذلك تتوفر العلمية والمنهجية في كيفية الأخذ من الموارد والمصادر،

(١) علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور: ٤٣٣.

إن سيد لم يخبط منها خبط عشواء، ولم يكن فيها حاطب ليل ـ كما يحتطب محتطبون من كُتّاب ومؤلفين ـ ولكنه كان يصنف المصادر حسب موضوعاتها، ويأخذ في كل موضوع يطرقه من مراجعه المعتمدة الموثوقة عند أهله، إنه يأخذ في الموضوع عن أهل الاختصاص فيه.

ففي المباحث الإسلامية نجد عنده موارد منهجية بحسب الموضوع. في التفسير والحديث والتاريخ والسيرة والفقه، وفي المباحث الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والفلسفية له موارده الخاصة أيضاً، وفي النقل عن الغربيين ـ للاستشهاد ـ له مصادره الخاصة المعتمدة عند أقطابهم وعلمائهم هناك.

ولا بدّ ـ ونحن نتحدث عن موارد الظلال ـ أن نستصحب الحالة «الخاصة» التي كان يعيشها سيد وهو يؤلف الظلال. فقد كان يكتبه من السجن، والكتابة في السجن تخضع لشروط خاصة تفرضها إدارته في إدخال الكتب للسجين، وجو السجن له ظلال وآثار على الكتابة فيه. وحرص سيد على تزويده في محبسه بمراجع معتمدة دليل على منهجيته في البحث والتأليف.

وندعو من ينتقدون سيد في مراجعه أو نقولاته ـ من وراء مكاتبهم وبين كتبهم ومجلداتهم ـ إلى ملاحظة هذا، فهو لم يكن في مكتبة مركزية عامة فيها مئات المجلدات في كل موضوع، له الحرية في التنقل بينها، كلا لقد بذل جهداً شاقاً في توفير مراجعه له، وفي أخذه منها، وتكفي هذه لتضاف إلى مزاياه الكثيرة!!.

ونشير فيما يلي إلى أهم موارده، ونصنفها حسب الموضوعات والمباحث العامة:

الموضوعات والمباحث الإسلامية نصنف مواردها ومصادرها في الظلال إلى «الزُّمَر» التالية:

أولاً: مصادر مادة التفسير:

كان سيد قطب حريصاً على عدم الخروج على الروايات الصحيحة للتفسير بالمأثور ولذلك رجع إلى كتب التفسير بالمأثور، وصار يوازن بين عدة روايات ويجمع بينها، ويرجح منها ما يراه، ويورد أكثر من رواية في الحادثة الواحدة، ففيه عدة روايات حول سبب من أسباب النزول، أو بيان مكان النزول أو تفسير كلمة في الآية.

الظلال والروايات المأثورة:

ظن بعضهم أن الظلال خالٍ من التفسير بالمأثور، وهذا الظن ناتج من عدم الاطلاع على الظلال، إذ أن أدنى نظرة فيه تزيل هذا الظن!!

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام، لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون.. ﴾[1] أورد روايتين مأثورتين في تفسيرها، الأولى عن ابن عباس، والثانية مشتركة عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، رضي الله عنهم، كذلك أورد حديثاً لرسول الله ﷺ في الصحيحين[2]!.

كذلك أورد ثلاث روايات في تفسير قوله تعالى: ﴿ ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم.. ﴾[3] وعللها تعليلاً تربوياً حركياً[4].

وأحياناً يزيد على هذا في إيراد الروايات المأثورة، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا: هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهمُ فلا يصل إلى الله، وما كان لله

---

(١) البقرة: ١٨٨.

(٢) الظلال ١: ١٧٦.

(٣) البقرة: ١٩٨.

(٤) الظلال ١: ١٩٧ وانظر الظلال ٦: ٣٣٧٧.

فهو يصل إلى شركائهم، ساء ما يحكمون. . ﴾[1] أورد خمس روايات مأثورة: الأولى عن ابن عباس. والثانية عن مجاهد. والثالثة عن قتادة. والرابعة عن السدي. والخامسة عن ابن جرير الطبري[2]!!.

وكان حريصاً على إيراد روايات مأثورة تبين تعامل الصحابة مع القرآن وتفاعلهم به كما فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[3] حيث أورد ثلاث روايات مأثورة، أوردها ابن جرير الطبري في تفسيره بإسناده، تُصور خوفهم من مدلول الآية، وتحرجهم من كل أنواع الظلم، وفزعهم إلى رسول الله - ﷺ - حيث بيَّن لهم أن الظلم هنا هو الشرك[4].

وهو لا يورد الروايات هكذا، ولا يقبلها بدون قيود، بل يخضعها لنظراته أو تحفُّظه على الأقل، فإذا أخذها من غير كتب التفسير بالمأثور المعتمدة - كتفسيري ابن جرير وابن كثير - فإنه يتحفظ في قبولها، ويتشكك فيها. كما في تفسيره قوله تعالى: ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون. فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون. ﴾[5] أورد رواية ذكرها الزمخشري في تفسيره عن الأصمعي تُصور تأثر أعرابي بهذا النص، وجلال القسم من الله فيه تأثراً خرجت معه روحه!! وقدم لها بقوله: «وقد روى الأصمعي نادرة ذكرها الزمخشري في الكشاف، ونسوقها نحن لطرافتها - في تحفظ من جانب الرواية - وبعد ما أوردها عقب عليها قائلاً: «وهي نادرة تصح أو لا تصح. ولكنها تذكرنا بجلال هذا القسم من الله سبحانه، والقسم بذاته. .»[6].

---

(١) الأنعام: ١٣٦.

(٢) الظلال ٣: ١٢١٧ - ١٢١٨ وانظره في: ١٢٢٠ و١٢٢٥.

(٣) الأنعام: ٨٢.

(٤) الظلال ٣: ١١٤٢ - ١١٤٣ وانظر الظلال ٦: ٣٣٩٤.

(٥) الذاريات: ٢٢ - ٢٣.

(٦) الظلال ٦: ٣٣٨١ - ٣٣٨٢.

إنه يتحفظ على الرواية لأن - راويها - الأصمعي - ليس ثقة عند رجال الجرح والتعديل، ولأن الكشاف ليس كتاباً معتمداً في التفسير بالمأثور. ولا صاحبه - الزمخشري - من علماء الأثر!!

أما كتب التفسير بالمأثور التي اعتمد عليها، أو أخذ منها فهي:

١ - تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير:

وقد كان هو التفسير الرئيسي الذي يرجع إليه غالباً في قبول الروايات الصحيحة، ويبدو أنه كان بين يديه دائماً، ويظهر اعتماده عليه وأخذه منه، في مواطن كثيرة من الظلال.

أحياناً يعتمد الروايات التي يوردها ابن كثير[١] وتعليقه على رجالها. وأحياناً ينظر في هذه الروايات ويردها ويوجهها[٢].

وأحياناً يورد كلام ابن كثير نفسه في تفسير الآية بالنص - بين علامتي التنصيص - ويعتمده ويتبناه، كما فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم.. ﴾[٣] حيث أورد كلام ابن كثير مقدِّماً له بقوله: (يقول الإمام ابن كثير في التفسير..)[٤] ويلاحَظ أنه أطلق عليه لقب الإمام!!.

كذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه - وإنه لفسق.. ﴾[٥] حيث لخص كلام ابن كثير في تفسير الآية وأورد فقراته بالنص - بين علامتي التنصيص - قال: «فأما الحكم الفقهي المستفاد من قوله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق.. ﴾ فيما يتعلق بحل الذبائح وحرمتها عند التسمية وعدم التسمية فقد لخصها ابن كثير في

(١) الظلال ١: ١٧٦. و ٢٠٦.
(٢) الظلال ١: ١٦٥.
(٣) آل عمران: ٣١.
(٤) الظلال ١: ٣٨٧ وقارنه بتفسير ابن كثير ١: ٣٥٨ طبعة المكتبة التجارية بمصر.
(٥) الأنعام: ١٢١.

التفسير في هذه الفقرات...) وكان النقل الحرفي من ابن كثير حوالي صفحتين[1].

٢ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري:

لم يكتفِ سيد بالاعتماد على تفسير ابن كثير ـ وإنْ ظن البعض ذلك ـ ولكننا نجد في الظلال رجوعه إلى تفسير جامع البيان للطبري. وتفسير الطبري هو أول تفسير كامل بالمأثور تمت طباعته ـ حتى الآن ـ.

كان يأخذ منه مباشرة، وينقل أقواله منه بدون وساطة، وهذا يدل على أن تفسير الطبري كان متوفراً لديه في سجنه، مثل تفسير ابن كثير، لهذا نجزم بأن تفسير الطبري كان أمامه، لأنه كان ينقل منه كلاماً حرفياً، ويورد عباراته بين علامتي التنصيص.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة، وكلمهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلا، ما كانوا ليؤمنوا ـ إلا أن يشاء الله ـ﴾[2] أورد رأي الطبري في تفسير الآية، ونقل كلامه حرفياً ثم عقب عليه موضحاً قضية الهداية والضلال وارتباطهما بمشيئة الله سبحانه»[3].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم، ساء ما يحكمون﴾[4].

نقل كلام ابن جرير الطبري بالحرف في تفسير «ساء ما يحكمون» وكيف أن المشركين ساءوا في حكمهم هذا[5].

---

(١) قارن بين الظلال ٣: ١١٩٨ ـ ١١٩٩ وبين تفسير ابن كثير ٢: ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) الأنعام: ١١١.

(٣) قارن بين الظلال ٣: ١١٨٧ ـ ١١٨٨ وبين تفسير الطبري ١٢: ٤٦ ـ ٤٧.

(٤) الأنعام: ١٣٦.

(٥) قارن بين الظلال ٣: ١٢١٨ وبين تفسير الطبري ١٢: ١٣٥.

وفعل مثل هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وقالوا: هذه أنعام وحَرْث حِجْر، لا يطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ـ افتراء عليه ـ ﴾[1] حيث نقل كلام ابن جرير ـ بين علامتي التنصيص ـ في بيان ضلالهم في الحاكمية حيث انتزعوها من الله، وصاروا يحللون ويحرمون من قِبَل أنفسهم، وفي بيان افترائهم على الله في فعلهم هذا. ثم عقب على كلام ابن جرير[2] ببيان أن هذا هو الأسلوب الموحد لكل الجاهليات في القديم والحديث، وأن الاعتداء على حق الله في الحاكمية، في التشريع، في التحليل والتحريم، هو سمة ملازمة لها، وأن هذه الجاهليات تفتري على الله في ما تفعله وتزاوله، وتموِّه على الشعوب المخدوعة في صنيعها هذا[3].

وكأني أستشف من هذا: أن سيد قطب يريد ـ وهو يعالج هذه القضية الخطيرة، قضية الحاكمية ـ أن يُبين أنه ليس «بِدْعاً» في هذا الفهم، وأنه قد سبقه في هذا مفسرون قدماء في مقدمتهم ابن جرير الطبري الذي عاش في القرن الثالث ومطلع القرن الرابع الهجري (توفي سنة ٣١٠ هـ)، وبعد ما يستشهد بكلام ابن جرير، يُضيف إلى قضية الحاكمية أبعاداً جديدة، حسب صورتها الصارخة التي ظهرت بها في العصر الحاضر، ليتفق مع أهدافه الحيوية الحركية التربوية التي يرجوها من الظلال.

وكذلك نقل كلاماً حرفياً لابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يَطْعَمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ـ فإنه رجس ـ أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾[4].

حيث اعتبر ابن جرير ومعه سيد قطب، أن هذه الآية رد على زعم المشركين في تحريم بعض أنواع الأنعام ـ افتراء على الله ـ وأنها تطالبهم

---

(١) الأنعام: ١٣٨.
(٢) قارن بين الظلال ٣: ١٢٢٠ وبين تفسير الطبري ١٢: ١٣٩ و١٤٦.
(٣) الظلال ٣: ١٢٢ ـ ١٢٢١.
(٤) الأنعام: ١٤٥.

بدليل واضح من الله ـ سبحانه وتعالى ـ في تحريم ذلك، وطالما أن هذا لا يكون إلا بالوحي، وطالما أن الرسول ـ ﷺ ـ هو وحده الذي يوحى إليه، فهم مفترون فيما يزعمون من ذلك[1].

وأظن ـ والله أعلم ـ أن سيد أورد كلام ابن جرير هنا، لأن المفسرين والفقهاء مختلفون في معنى الاستثناء في الآية، فمنهم من يرى أنه يفيد الحصر فلا حرام في غير ما ذُكر، والجمهور ـ ومنهم الطبري وسيد ـ يرون أنه لا يفيد الحصر فهناك محرمات غيرها في الآيات والأحاديث الصحيحة. وأن الاستثناء يهدف إلى إبطال محرمات المشركين كأنه يقول لهم «لا حلال إلا ما حرّمتموه ولا حرام إلا ما حللتموه». ولهذا يقول ابن جرير ـ الذي تبنى قوله سيد قطب ـ «وهذا إعلام من الله ـ جل ثناؤه ـ للمشركين الذين جادلوا نبي الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادلوهم به، أن الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذي حرّمه الله، وأن الذي زعموا أن الله حرمه حلال قد أحله الله، وأنهم كَذَبَةَ في إضافتهم تحريمه إلى الله»[2].

ويلاحظ أن سيد لما فسر هذه الآية، ارتضى تفسير ابن جرير لها، وأورد كلامه مختصراً، حيث حذف منه الأقوال المأثورة المكررة في بيان معنى الاستثناء في الآية، وفي المحرمات الأربعة فيها، الذي استغرق حوالي خمس صفحات من تفسير الطبري[3]. ولم يضف سيد من كلامه سوى أسطر معدودة.

إن تفسير الطبري هو التفسير المعوّل عليه عند سيد لأنه يحوي روايات مأثورة قريبة إلى طبائع الأشياء، ومتناسقة مع واقع الجماعة المسلمة الأولى، ولذلك يرجح رواياته على روايات التفاسير الأخرى، كيف لا وابن جرير هو إمام مدرسة التفسير بالمأثور.

---

(١) قارن بين الظلال ٣: ١٢٢٥ وبين تفسير الطبري ١٢: ١٩٠ ـ ١٩١ وانظر الظلال ٣: ١٧٠٦ - ١٧٠٩.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ١٩١ وقارن مع الظلال ٣: ١٢٢٥.

(٣) تفسير الطبري ١٢: ١٩١ ـ ١٩٦.

ولكنه لا يأخذ هذه الروايات على ما هي عليه. وإنما ينظر فيها، وفي تناقضها ـ إن وُجِد ـ وفي تعليقات الطبري عليها. ويأخذ من كل ذلك ما يراه أقرب إلى الصحة، وأصدق في نقل ما وقع من أحداث.

فعندما فسر الآيات الأولى من سورة التوبة[1]. وما فيها من «إعلان عام» للمشركين، يحدد طبيعة علاقتهم الجديدة بالجماعة المسلمة، وصلتهم الجديدة بالمسجد الحرام. أراد أن يبين لنا ـ كعادته ـ الجو العام الذي نزلت فيه والذي بُلِّغت فيه، ولذلك توجه إلى الروايات المأثورة التي تبين هذا، ومن أين يأخذها إذا لم يأخذها من تفسير الطبري؟ ولذلك أوردها ـ مختصرة ـ من تفسير الطبري، ونظر فيها وفي التعارض بينها وفي تعقيب الطبري عليها نظرة فاحصة.

قال في تقديمه لها: «وقد وردت روايات متعددة في ظروف هذا الإعلان، وطريقة التبليغ به، ومَنْ قام بالتبليغ. أصحها وأقربها إلى طبائع الأشياء، وأكثرها تناسقاً مع واقع الجماعة المسلمة يومذاك، ما قرره ابن جرير وهو يستعرض هذه الروايات. ونقتطف هنا من تعليقاته ما يمثل رؤيتنا لحقيقة الواقعة مغفلين ما لا نوافقه عليه من كلامه، وما تناقض فيه بعض قوله مع بعض. إذ كنا لا نناقش الروايات المتعددة، ولا نناقش تعليقات الطبري، ولكن نثبت ما نرجح أنه حقيقة ما حدث من مراجعة ما ورد وتحقيقه...»[2].

إن هذه فقرة كاشفة، ذات عبارات صريحة، دالة على علمية سيد ومنهجيته، وهو يطَّلع على الروايات المأثورة، وهو يأخذ من كتب المأثور، وتُطْلعنا على طرف من طريقته في النظر في الروايات، والترجيح بينها أو قبوله لها.

هذا ونجد في الظلال إشارات لتفاسير أخرى مأثورة، ونسبة أقوال لمفسرين آخرين، غير الطبري وابن كثير.

---

(١) التوبة: ١ ـ ٦.

(٢) الظلال ٣: ١٥٩٧.

٣ ـ تفسير الثعلبي:

ومن هذه التفاسير: تفسير الثعلبي الذي أورد قولاً منه بشأن سورة الأنعام، يرى فيه بأن السورة مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة. وقد أورد هذه الآيات ثم أبطل قول الثعلبي، وأقام الدليل على مكيتها[١]..

٤ ـ تفسير البغوي:

ومن هذه التفاسير: تفسير البغوي: حيث أورد رأياً له في أسباب وملابسات نزول الآيات الأولى من سورة التوبة. وهو يرى أنها نزلت أثناء خروج الرسول ـ ﷺ ـ إلى غزوة تبوك، حيث أرجف المنافقون، وأخذ المشركون ينقضون عهدهم، فنزلت الآيات تحدد العلاقة معهم[٢].

٥ ـ الدر المنثور للسيوطي:

ومنها الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، أورد منه حديثاً ـ رواه الترمذي وغيره ـ عن عدي بن حاتم الطائي ـ رضي الله عنه ـ يبين فيه تفسير الرسول ـ ﷺ ـ لقوله تعالى: ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم... ﴾[٣] وكيف كانت عبادتهم لهم[٤].

ولا أدري هل كانت هذه الكتب الثلاثة المأثورة بين يديه ـ في سجنه ـ فنقل منها، أو أنه أخذ أقوال أصحابها من الكتب التي عنده.

هذا عن كتب التفسير بالمأثور. أما التفاسير الفقهية التي توفرت له، والتي نقل منها حرفياً فهي: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وأحكام القرآن للقاضي ابن العربي، وأحكام القرآن للجصاص الحنفي.

وتوفر هذه الكتب ـ بالإضافة إلى غيرها ـ له، يدل ـ فيما يدل عليه ـ

---

(١) الظلال ٣: ١٠٢١.
(٢) الظلال ٣: ١٥٨٧.
(٣) التوبة: ٣١.
(٤) الظلال ٣: ١٦٤١.

على العلمية والمنهجية والتوثيق في البحث الذي اتصف به سيد قطب، كما يدل على شمول الظلال واحتوائه الكثير من العلوم والمعارف!!

٦ ـ أحكام القرآن للجصاص:

أخذ من كتاب الجصاص «أحكام القرآن» بعض آرائه الفقهية، واعتمده في عدة مواطن، لأن الجصاص حنفي المذهب، وسيد قطب ـ وإن لم يكن ملتزماً بمذهب فقهي معين ـ يميل إلى المذهب الحنفي.

من هذه المواطن اعتماده رأي الجصاص في كتابه ـ الذي أورد سيد رقم الجزء والصفحة منه في الحاشية، ونادراً ما يفعل ذلك ـ بشأن قصر الصلاة في الخوف، وهو ليس قصر الركعات فهذا متحقق في كل سفر، ولكنه قصر في صفة الصلاة ذاتها: كالقيام بلا حركة، ولا ركوع ولا سجود، ولا قعود للتشهد. حيث يصلي الضارب في الأرض قائماً وسائراً وراكباً، ويومىء للركوع والسجود[1]...

كذلك أورد كلام الجصاص بالحرف ـ مع إشارته في الهامش إلى الجزء والصفحة! ـ في تعريف أصناف الأنعام في قوله تعالى: ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام. ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب... ﴾[2] واعتمد قوله فيها[3]، ثم تجاوزه لتعميم ضلال الجاهلية وافترائها في كل زمان ومكان..

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّا بعدُ وإما فداء، حتى تضع الحرب أوزارها... ﴾[4] اختار طريقة جديدة في النقل عن الجصاص قال: «ونحن ننقل هنا ما ورد حول هذه الآية في كتاب أحكام القرآن للإمام الجصاص

(١) الظلال: ٢: ٧٤٧.

(٢) المائدة: ١٠٣.

(٣) الظلال ٢: ٩٨٩ ـ ٩٩٠ وانظره في ٣: ١٤٨٨ ـ ١٤٨٩.

(٤) سورة محمد: ٤.

الحنفي، ونعلق ما نرى التعليق عليه في ثناياه، قبل أن نقرر الحكم الذي نراه...»[1].

ونقل عن الجصاص كلاماً مطولاً استغرق أكثر من صفحتين، تخللها تعليقات لطيفة لسيد بين علامتي التنصيص، ثم ختمها بذكر رأيه في حكم الاسترقاق في الحرب، وفي الحكم عند الاتفاق على عدم الاسترقاق، وأن الإسلام يقره ويباركه، لأن الاسترقاق ليس حتمياً، ولا قاعدة أساسية للأسرى في الإسلام. وبيَّن أنه مع هذا لأن النصوص القرآنية واستقراء الحوادث وظروفها تؤيده، لا لأن الإسلام متهم في ذلك ويريد هو أن يدافع عنه ويخرجه من قفص الاتهام[2]!!!

٧ ـ تفسير القرطبي:

أما كتاب «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، فقد رجع إليه ونقل عنه في عدة مواطن:

رجع إلى رواياته التي أوردها في تحديد النصارى المعنيين بقوله تعالى: ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾[3] وأنها نزلت في النجاشي وأصحابه الذين نصروا المهاجرين إلى الحبشة، ثم آمنوا واتبعوا محمداً ـ ﷺ ـ. وقد نقل عن القرطبي ثلاث روايات متقاربة نقلاً حرفياً[4].

كذلك رجع إلى القرطبي واعتمد قوله وتبناه وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره.. ﴾[5] حيث اعتبر القرطبي أن هذه الآية تَرُد على من زعم أن

---

(١) الظلال ٦: ٣٢٨٢.
(٢) الظلال ٦: ٣٢٨٢ ـ ٣٢٨٥.
(٣) المائدة: ٨٢.
(٤) قارن بين الظلال ٢: ٩٦٤ ـ ٩٦٥ وبين تفسير القرطبي ٦: ٢٥٥ ـ ٢٥٧ وقارن بين الظلال ٢: ٩٨٧ وبين تفسير القرطبي ٦: ٣٣١ ـ ٣٣٢.
(٥) الأنعام: ٦٨.

الأئمة وأتباعهم يجوز لهم مخالطة الفاسقين من باب التقية. وقد عقب سيد على هذا الحكم بأن المخالطة المنهي عنها هي السكوت على أقوالهم الفاسدة وأفعالهم المنكرة. أما المخالطة بقصد الموعظة والنصح والتذكير والتعليم فإنها مباحة.

كذلك أورد بعض الأقوال المأثورة في تفسير القرطبي تنهي عن مخالطة ومجالسة الكفار والفاسقين والمبتدعين، وكان يعقب على بعض هذه الأقوال ويستدرك عليها ويستدل لها في الهامش[1]. وبعد ما انتهى من النقل عن القرطبي عقب عليه بالإنكار على من يخالط ويجالس ويوالي من ينازع الله في الحاكمية من الحكام، وألمح بأن السلف لم يشيروا إلى حكم ذلك لأنهم لم يعيشوا هذه الفاشية التي تمارس فيها تلك الدعوى لأنها حادثة في بلاد المسلمين بعد الحملة الفرنسية على مصر في القرن التاسع عشر الميلادي.

إن سيد قطب حريص ـ وهو يتحدث عن قضايا الحاكمية والتشريع ـ أن يبين أنه ليس «بِدْعاً» في قوله، وإنما يشاركه فيه علماء من السلف، ولهذا ينقل أقوالهم ليدعم رأيه ويستدل له، ويستأنس بها. ونراه حريصاً كذلك، على أن يلتفت إلى قضايا ومسائل تهم المسلمين المعاصرين وتشغل بالهم، أغفلها السلف ولم يلتفتوا لها، لأنهم لم يعايشوها.

٨ ـ أحكام القرآن لابن العربي:

أما كتاب أحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي فقد كان بين يديه وهو يؤلف الظلال ـ في بعض مراحله على الأقل! ـ فقد رجع إليه وهو يتحدث عن حكم الفرار من المعركة الذي يبينه قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار.. ﴾[2] وهل هو خاص بيوم بدر، أو عام في كل المعارك؟ وقد ذهب ابن العربي إلى أنه عام،

---

(١) قارن بين الظلال ٣: ١١٢٩ ـ ١١٣٠ وبين تفسير القرطبي ٧: ١٢ ـ ١٣. وانظر الظلال ٣: ١٢٨٢. و١٤٢٥.

(٢) الأنفال: ١٥.

وأن الآية باقية إلى يوم القيامة، وقد أخذ به سيد قطب قائلاً: «ونحن نأخذ بهذا الذي ذكره ابن العربي من رأي ابن عباس وسائر العلماء، ذلك أن التولي يوم الزحف على إطلاقه يستحق هذا التشديد لضخامة آثاره الحركية من ناحية، ولمساسه بأصل الاعتقاد من ناحية...»[1].

٩ ـ الكشاف للزمخشري:

ومن التفاسير القديمة التي كانت بين يديه، والتي رجع إليها وأخذ عنها. تفسير الكشاف لجار الله محمود بن عمر الزمخشري.

ولأن الكشاف ليس من كتب التفسير بالمأثور، ولأنه لا يوافق صاحبه على منهجه في التفسير، ومذهبه في القضايا الخلافية، لذلك كان حذراً في نقله منه، وكان يقبل ما كان صحيحاً مقبولاً ـ في رأيه ـ من قوله، ويرد ما لا يتفق معه فيه.

فعندما فسر قوله تعالى: ﴿ ولقد همَّت به، وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه.. ﴾[2] كان سيد مع جمهور المفسرين في تفسير الهمّ من يوسف والهمّ من إمرأة العزيز، حيث قال: «وأما جمهور المفسرين فسار على أنها همت به همّ الفعل، وهمّ بها همّ النفْس، ثم تجلى له برهان ربه فترك...»[3].

ولاستدلاله على اختياره هذا القول أورد قول الزمخشري في كشافه «فإن قلتَ: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همٌّ بالمعصية وقصدٌ إليها؟ قلت: المراد: أن نفسه مالت إلى المخالطة، ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه، ميلاً يشبه الهم به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله...»[4] وسيد يوافق الزمخشري على تعليله هذا بقوله: «وهو تعليل

---

(١) الظلال ٣: ١٤٨٩ وقارنه مع أحكام القرآن لابن العربي ٢: ٨٤٣ ـ ٨٤٤.

(٢) يوسف: ٢٤.

(٣) الظلال ٤: ١٩٨١.

(٤) الكشاف: ٢: ٣١١ وقد فات ابن المنير الاسكندري أن يُبطل اعتزالية الزمخشري هنا في حاشيته «الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال» مع أنه خصصها لإبطال اعتزالياته.

صحيح في جملته..» لكنه يرد على الزمخشري قوله: «برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم..» لأنه يشير إلى مذهب المعتزلة الكلامي في أن البرهان عقلي، بينما يرى سيد أن «البرهان الذي أخذه الله على المكلفين هو ما قرره في شريعته......» ويتجاوز هذه القضية مسرعاً ـ بعد إشارته هذه ـ لأن الخلاف فيها «خلاف مذهبي تاريخي لا شأن لنا به، فهو بجملته غريب على التصور الإسلامي....»[1].

كذلك استشهد بالرواية التي أوردها الزمخشري في كشافه بشأن الحوار الإيماني الرفيع الذي جرى بين أبي أيوب الأنصاري وبين زوجته أم أيوب ـ رضي الله عنهما ـ في حديث الأفك[2].

وقد أورد رواية الكشاف كشاهدة ومتابعة لرواية ابن إسحاق التي ذكرها قبلها ولم يأخذها مستقلة من الكشاف لأن الكشاف ـ كما قلنا ـ ليس كتاباً معتمداً للروايات المأثورة!!

وكدليل على ما قلناه ـ من أن سيد قطب يعتبر الكشاف مرجعاً غير معتمد في الروايات المأثورة، وأنه كان بين يديه وهو يفسر الظلال في طبعته الأولى غير المنقحة ـ أنه وهو يفسر سورة الذاريات أورد رواية عن الأصمعي وقصته مع الأعرابي، ذكرها الزمخشري معتمداً لها سنداً ومتناً، بينما كان سيد قطب متحفظاً عليها من جهة السند[3].

بينما أورد رواية أخرى وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ أفرأيت الذي تولى. وأعطى قليلاً وأكدى ﴾[4] ذكرها الزمخشري وحدد فيها بأن الشخص المقصود هو عثمان بن عفان، ـ رضي الله عنه ـ وقد ردها سيد واعتبرها ظاهرة

---

(1) الظلال: ٤ حاشية ١٩٨٢.
(2) الظلال ٤: ٢٥٠١ ـ ٢٥٠٢ والكشاف ٣: ٥٣.
(3) انظر الظلال ٦: ٣٣٨١ ـ ٣٣٨٢ وقارنه مع الكشاف ٤: ١٧.
(4) النجم: ٣٣ ـ ٣٤.

البطلان، لأنها تتعارض مع طبيعة عثمان وإيمانه وعقيدته في الله، وبذْله الكثير الطويل في سبيل الله[1].

ومن التفاسير المعاصرة التي رجع إليها سيد قطب ونقل عنها: تفسير المنار لرشيد رضا، وتفسير روح المعاني للآلوسي، وتفسير جزء عم لمحمد عبده. والتفسير الحديث لمحمد عزة دروزة.

١٠ ـ تفسير جزء عم لمحمد عبده:

أما تفسير جزء عم لمحمد عبده فقد رجع إليه سيد قطب في تفسيره لجزء عم ـ الجزء الثلاثون من الطبعة الأولى للظلال ـ وبخاصة في السور الأخيرة من الجزء.

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ووالد وما ولد ﴾[2] أعجبته لفتة لمحمد عبده، تتفق مع الظلال، تُبين أهمية التوالد في الحياة بجميع أصنافها، وبخاصة في فئات النبات المختلفة. أثبت لفتة محمد عبده بالنص بين علامتي التنصيص. وقد قدم لها بقوله: (وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في هذا الموضع من تفسيره للسورة في «جزء عم» لفتة لطيفة تتسق في روحها مع روح هذه الظلال، فنستعيرها منه هنا. .)[3].

وهذه العبارة تدل على تواضعه وأمانته العلمية، ومنهجيته في النقل والاقتباس ونسبة الأفكار إلى أصحابها، كما تدل على اتفاق عرضي بين الظلال وتفسير محمد عبده في بعض الجزئيات الفرعية!

وبينما رأينا اتفاقهما في اللفتة السابقة، فإن سيد ـ في تفسيره لسورة العصر ـ يختلف مع محمد عبده اختلافاً جوهرياً، حيث يقف بجانب الحق ـ لأن الحق أحق أن يُتبع! ـ فقد أورد قول محمد عبده ـ في تفسيره لسورة

---

(١) انظر الظلال ٦: ٣٤١٤ وقارنه مع الكشاف ٤: ٣٣.

(٢) البلد: ٣.

(٣) ٦: ٣٩٠٩.

الزلزلة ـ (وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لا تنفعه في الآخرة حسنة، ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما، لا أصل له. . .) وقد نقد هذا (الخبط) بقوله ـ بعد إيراد النصوص القرآنية القاطعة في المسألة ـ (. . وها نحن أولاء نرى أن المسألة لم تجيء من إجماع، ولكن من نصوص قرآنية صريحة، هي أصل بذاتها. . .)[1].

أما في تفسير سورة «الفيل» فإن سيد لا يكتفي بالتصويب السريع لأفكار محمد عبده ـ كما فعل هنا ـ ولكنه يقف وقفة مطولة ليعرض رأي محمد عبده ـ بالنقل الحرفي من تفسيره لجزء عم ـ بشأن الطير الأبابيل التي أرسلها الله على أصحاب الفيل حيث يرى محمد عبده بأن الطير هي (من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات. . . .)[2].

وقد رد سيد هذا الرأي الافتراضي لمحمد عبده، وجعل هذا الرد مناسبة للحديث عن السنّن الإلّهية في الكون والحياة، وصلتها بطلاقة المشيئة الإلّهية، وليبين موقفه من الخوارق ومنهجه في قبولها، وليرجح القول المناسب لما جرى لأصحاب الفيل ترجيحاً يتفق مع التصور الإسلامي الذي يبينه القرآن الكريم.

كذلك وقف يبين دوافع المدرسة العقلية في التفسير ـ التي على رأسها محمد عبده ـ في تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن وأحداث التاريخ، بيّن دوافعها بعلمية ومنهجية وحياد، وأساس الخطأ الذي وقعت فيه هو أن (مواجهة ضغط الخرافة من جهة، وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى، تركت آثارها في تلك المدرسة. من المبالغة في الاحتياط، والميل إلى جعل مألوف السنّن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله. . .)[3].

---

(١) الظلال ٦ : ٣٩٦٧ حاشية.

(٢) أوردَ كلام محمد عبده بالنص في الظلال ٦ : ٣٩٧٦.

(٣) الظلال ٦ : ٣٩٧٨.

واعتبر هذا المكان مناسب لتقرير القاعدة المأمونة في مواجهة النصوص القرآنية، وضرورة دخول عالم القرآن بدون مقررات فكرية وعقلية مسبقة، والصلة بين العقل البشري والنص القرآني[1]!.

١١ - روح المعاني للألوسي:

أما تفسير (روح المعاني) لمحمود شكري الألوسي. فقد وجدت موضعاً واحداً فقط في الظلال، أشار سيد فيه إليه، ونقل عبارة واحدة، كشاهد لما يدل عليه النص القرآني.

عندما فسر قوله تعالى: ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾[2] أورد عدة روايات مأثورة تبين كيفية اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

أورد تفسير الرسول ﷺ للآية عندما قابل عدي بن حاتم الطائي - رضي الله عنه - الذي هو فصْل الخطاب في تفسيرها. واستقى هذا التفسير من عدة روايات أوردها السيوطي في الدر المنثور، وابن كثير في التفسير نقلاً عن كتب السنَن.

ثم أورد قول الألوسي (الأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم. بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم...)[3].

وقد يعجب القارىء من إيراد سيد لكل هذه الروايات والأقوال، ولكن

---

(١) انظر المسألة بطولها في الظلال ٦: ٣٩٧٦ - ٣٩٧٩ وانظر تصويباً آخر لفكر محمد عبده في الظلال ٦: ٤٠٠٨.

(٢) التوبة: ٣١.

(٣) الظلال ٣: ١٦٤٢. ولم أجد هذا النص بلفظه في تفسير الألوسي، ولكني وجدت نصاً بمعناه، يقول فيه (أرباباً من دون الله: بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه...) إلى أن يقول: (ونظير ذلك قولهم: فلان يعبد فلاناً إذا أفرط في طاعته، فهو استعارة بتشبيه الإطاعة بالعبادة، أو مجاز مرسل بإطلاق العبادة - وهي طاعة مخصوصة - على مطلقها...) تفسير الألوسي ١٠: ٨٤.

القضية خطيرة، لا بدّ من عرضها - بأدلتها كاملة - لتستقر في تصور المسلمين، لذلك بيّن لنا الهدف من إيراده لها بقوله:

(ومن النص القرآني الواضح الدلالة، ومن تفسير رسول الله ﷺ وهو فصل الخطاب، ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين، تخلص لنا حقائق في العقيدة والدين، ذات أهمية بالغة، نشير إليها هنا بغاية الاختصار..)[1].

فإيراده لقول الآلوسي - إذن - لهدف خاص، وهو اعتباره الآلوسي ممثلاً للمتأخرين من المفسرين، في هذا الفهم القاطع الصحيح للآية، لتستكمل الأدلة، وتتم الشواهد، وتتنوع الأمثلة، وتتوزع مسافة زمنية طويلة!!

١٢ - تفسير المنار لمحمد رشيد رضا:

أما تفسير «المنار» لمحمد رشيد رضا، فقد رجع سيد إليه في عدة مواضع من الظلال، حيث نقل منه بالنص، وهو في نقله عنه إما موافق له متبنّ لرأيه، وإما مستشهد به، وإما موضح له، أو معقب عليه أو معارض له، وهذا يدل على أن تفسير المنار كان بين يديه وهو يكتب الظلال.

إن سيد يرى بأن المنار يلتزم منهج محمد عبده ويتبع مدرسته العقلية في التفسير، ومن ثم تنسحب عليه ملاحظاته التي أبداها على هذه المدرسة ومنهجها، وموقفها من الأمور الغيبية وخوارق العادات، ولذلك أورد كلاماً لرشيد رضا في المنار وهو يفسر تزيين الشيطان لمشركي قريش، وقوله لهم ذلك تفسيراً عقلياً، ويأوله تأويلاً معيناً ينفي به الحركة الحسّية عن الشيطان، التي يدل عليها قوله تعالى: ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم... فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه. وقال إني بريء منكم.. إني أرى ما لا ترون.. ﴾[2].

أورد كلام رشيد رضا ثم رده وفنده، وبيّن المنهج الخاطىء الذي يطبقه

(١) الظلال ٣: ١٦٤٢.
(٢) الأنفال: ٤٨.

على الأمور والعوالم الغيبية، والزاوية القاصرة التي ينظر منها في نصوص القرآن. واجتهاده المرفوض في تأويل تلك النصوص.

أما المنهج الصحيح - الذي سار عليه سيد - فهو الأخذ بالدلالات الصريحة لألفاظ تلك النصوص، وعدم تأويلها. والوقوف عند ظاهرها بلا تفصيلات ليس عليها دلالة صريحة، والتفويض بكيفية حصول الحوادث التي تتحدث عنها إلى علم الله، لأنها من عالم الغيب الذي يقف أمامه العقل المؤمن مسلِّماً مؤمناً به[1].

من المواطن التي أيَّد سيد فيها رأي صاحب «المنار» تلك التي حدد فيها رشيد رضا المعنيين في الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم.. ﴾[2] بأنهم حيّان من كنانة (بنو مدلج وبنو ضمرة) عاهدوا الرسول - ﷺ - في الحديبية - عند المسجد الحرام - ثم لم ينقصوا المسلمين شيئاً، ولم يظاهروا عليهم أحداً[3].

ومن هذه المواطن أيضاً، لفتة لرشيد رضا في المنار في تفسير قوله تعالى: ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.. ﴾[4] اعتمدها سيد وأيَّدها وتبناها وأثبتها في ظلاله، ثم أشار في الهامش قائلاً: (هذه اللفتة في تفسير المنار للسيد رشيد رضا، رحمه الله....)[5].

وهذه العبارة كاشفة، وتحمل عدة دلالات، على تمتع سيد بالمنهجية والتوثيق في البحث العلمي، والأمانة في النقل ونسبة الأقوال إلى أصحابها،

---

(١) الظلال ٣: ١٥٣١ - ١٥٣٢ وانظر تعقيباً آخر على المنار في الظلال ٣: ١٥٣٤ وثالثاً فيه ٤: ١٩٨١ ورابعاً ٤: ١٨٦١.

(٢) التوبة: ٤.

(٣) الظلال ٣: ١٦٠٠.

(٤) يونس: ٤.

(٥) الظلال ٣: ١٧٦٤ حاشية.

وتوحي بأن كل ما لم يشر إليه أنه اقتبسه من آخرين، فهو من فكره ونظراته وآرائه ولفتاته وفتوحاته هو!!

ومن المواطن التي تبنى فيها رأي رشيد رضا، واعتمد كلامه، كلام مطوّل لرضا في تفسير قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله. . . ﴾[1] أورد خلاصة كلامه[2] وقدَّم له بقوله: (وقد أورد المرحوم الشيخ رشيد رضا في الجزء العاشر من تفسير المنار (ص ٣٧٨ - ٣٨٥) خلاصة مفيدة عن مكانة عزراً عند اليهود، وعلق عليها كذلك تعليقاً مفيداً ننقل منه هنا فقرات تفيدنا في بيان حقيقة ما عليه اليهود إجمالاً. .)[3] وكان حريصاً - وهو يورد كلام رشيد رضا - أن يعقب على كلامه في هوامش الصفحات. وأن ينبه إلى المزالق الخطيرة والأخطاء المنهجية التي وقعت فيها مدرسة محمد عبده العقلية في التفسير[4].

وهذا يدل على أن سيد كان معجباً بتحقيقات رشيد رضا العلمية في المنار، وجهده في توضيح بعض القضايا، ولكنه كان متحفظاً في الأخذ المطلق عنه لأنه لا يوافقه على منطلقاته المنهجية الأساسية التي انطلق منها في تفسيره، والعقلية المتأثرة بالعلم والمادية الغربية! كذلك يأخذ على رشيد رضا عدم التعمق في بيان طبيعة الخلاف الجذري بين المسلمين والكفار.

فقد أعجبه إلمام رشيد رضا بحلقات السلسلة الطويلة التي قام بها المشركون في نقض عهدهم مع الرسول - ﷺ - وعداوتهم الشديدة له، منذ بدء الدعوة وإلى وقت نزول سورة التوبة في أواخر العهد المدني، ولذلك أورد كلامه في بيان حلقات السلسلة - مع الاستدراك والتعقيب عليه والتنبيه إلى الأخطاء المنهجية له ولمدرسته في هوامش الصفحات[5] -.

---

(١) التوبة: ٣٠.
(٢) الظلال ٣: ١٦٣٦ - ١٦٣٩.
(٣) الظلال ٣: ١٦٣٦.
(٤) انظر هوامش صفحتي ١٦٣٦ - ١٦٣٧ من الظلال.
(٥) انظر الظلال ٣: ١٥٨٨ - ١٥٨٩ وبخاصة هوامش الصفحات.

وبعد ما انتهى من إيراد كلامه استدرك عليه مبيناً التقصير الذي وقع به فقال: (وظاهر من هذا الاستعراض ومن التعقيب عليه ـ ومما جاء بعده في تفسير السورة في تفسير المنار ـ أنه مع لمس السبب الأصيل العميق الكامن وراء هذه السلسلة من نقض العهود، وابتداء أول فرصة لحرب الإسلام وأهله من المشركين وأهل الكتاب، فإن المؤلف لا يتابع هذا السبب إلى جذوره ولا يرى امتداده وشموله. ولا يستشرف الحقيقة الكبيرة في طبيعة هذا الدين، وطبيعة منهجه الحركي، وطبيعة الاختلاف الجذري بين منهج الله ومناهج العبيد. . .)[1].

١٣ ـ التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة:

ومن التفاسير المعاصرة التي رجع إليها «التفسير الحديث» لمحمد عزة دروزة، حيث وقف معه وقفة مطولة. وذلك في تقديمه للمقطع الأول من سورة التوبة. وقف معه لا ليأخذ كلامه، ولكن ليعقب عليه، وليستدرك على آرائه، وليصوب أفكاره، وبخاصة حول طبيعة الجهاد في الإسلام وبواعثه، وليبين الخطأ الذي قاده إلى الأخطاء الأخرى الفرعية. .

فقد نقل كلاماً حرفياً لدروزة ـ في حوالي صفحتين[2] ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً، ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم. إن الله يحب المتقين. فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم، واحصروهم، واقعدوا لهم كل مرصد. . .﴾[3] فسر فيه الآيتين من منطلق حرصه على (الدفاع) عن الإسلام أمام هجمات المستشرقين، فجاء تفسيره لهما (تشويهاً) لطبيعة الجهاد في الإسلام، ومسخاً لبواعثه وغايته ومراحله. . .

---

(١) الظلال ٣: ١٥٨٩.

(٢) الظلال ٣: ١٥٨٩ ـ ١٥٩١.

(٣) التوبة: ٤ ـ ٥.

وفي تقديمه لكلام دروزة بيّن الخطأ الأساسي في منهجه في التفسير بقوله: (ذلك أنه مشغول ـ كغيره من الكُتّاب المحدثين الواقعين تحت ضغط الواقع البائس لذراري المسلمين، والقوة الظاهرة لمعسكرات المشركين والملحدين وأهل الكتاب في هذا الزمان ـ بتلمس شهادة لهذا الدين بأنه دين السلم والسلام، الذي لا يعنيه إلا أن يعيش داخل حدوده في سلام؟ فمتى أمكنت المهادنة والمعاهدة فهو حريص عليها، لا يعدل بها هدفاً آخر!)[1].

وفي تعقيبه على كلام دروزة، بيّن (أنه ابتداء لا يُلقي باله إلى حق الإسلام المطلق في أن ينطلق في الأرض لتحرير البشرية من العبودية للعباد، وردها إلى الله وحده، حيثما كان ذلك ممكناً له، بغض النظر عما إذا كان هناك اعتداء على أهله داخل حدودهم الإقليمية أم لم يكن، فهو يستبعد هذا المبدأ ابتداء، وهو المبدأ الذي يقوم عليه الجهاد في الإسلام. . .)[2].

من هذا العرض لموارد الظلال من كتب التفسير وحدها، يظهر لنا أن سيد قطب كان يتمتع بمنهجية علمية في النقل والتوثيق، وأنه كان حريصاً على عدم الخروج على الروايات الصحيحة المأثورة، وعلى الاستشهاد لآرائه بأقوال المفسرين السابقين ـ قدامى ومعاصرين ـ.

كان أمامه وهو يكتب الظلال أكثر من عشرة تفاسير ينتمي أصحابها لمختلف المدارس في التفسير، يرجع إليها، وينقل منها ما يتفق مع منهجه، أو يحقق هدفه من الظلال، أو يستدرك على أصحابها ـ المعاصرين ! ويصوب آراءهم. .

فإذا كانت هذه مراجعه من كتب التفسير وحدها، ـ وهناك عشرات أخرى من المراجع في مختلف الموضوعات الإسلامية والعلمية ـ أدركنا طرفاً من العلم والتحقيق الذي حواه الظلال. . . .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن سيد قطب كان يرجع إلى كتب السيرة

---

(١) الظلال ٣: ١٥٨٩.

(٢) الظلال: ٣: ١٥٩١. وانظر استدراكاً آخر على رأي دروزة في الظلال ٣: ١٦٠٠.

والتفسير والحديث في بيان أسباب النزول، أو زمان النزول، أو تصوير الجو العام الذي نزلت به النصوص وملابساته، أو حركة المجتمع الإسلامي الأول وهو يتحرك بالقرآن. من خلال السيرة النبوية وحياة الصحابة.

كيفيات أخذه من التفاسير السابقة:

كان سيد قطب - إذن - يطلع على تفسير المفسرين للآية - على اختلاف مدارسهم في التفسير - في المرحلة الثانية التوثيقية من تفسيره. وكان يحرص على عدم مخالفة الأقوال التي تتفق مع النص وإيحاءاته.

فعندما فسر قوله تعالى: ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم..... ﴾[1] اطلع على كل الروايات المتعددة في تفسير الآية، ثم خرج منها برأي رجحه بقوله: (والذي يستقيم عندنا في تفسير الآية: أن المؤمنين لا ينفرون كافة، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة - على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون. لتتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم...).

وحتى لا يبدو قوله غريباً أو مخالفاً للمفسرين، بيَّن أنه فيه موافق لأعلام التفسير إذ (له أصل من تأويل ابن عباس - رضي الله عنهما - ومن تفسير الحسن البصري، واختيار ابن جرير، وقول لابن كثير...)[2].

أما إذا لم تتفق أقوالهم مع النص في روحه العامة وإيحاءه العام، فإنه يتجاوزها - بعد الاطلاع عليها - ليطيل النظر فيه ويخرج برأي له يراه مناسباً. كما فعل في قضية ترتيب آيات التحدي - التي أشغلت المفسرين القدامى والمعاصرين فقد خالف أقوالهم كلهم، واختار رأياً فريداً خاصاً به رآه متفقاً مع جو وأسباب النزول[3].

---

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) الظلال ٣: ١٧٣٤.

(٣) انظر الظلال ٤: ١٨٦١ - ١٨٦٢.

وإذا اختلف المفسرون في تفسير آية، وتضاربت أقوالهم فيها، فإنه يرجح ما يتفق مع الروح العامة للآية، وجو ومكان النزول. فقد أشار إلى اختلاف التفاسير المأثورة في تحديد المقصود بالسبع المثاني في قوله تعالى: ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم.. ﴾[1] فمنهم من يرى أنها آيات سورة الفاتحة السبع. ومنهم من يرى أنها السبع الطوال من سور القرآن. البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال مع التوبة. أما سيد فقد رجح القول الأول (والمثاني: الأرجح أن المقصود بها آيات سورة الفاتحة السبع - كما ورد في الأثر - فهي تُثَنى وتكرر في الصلاة، أو يُثْنى فيها على الله........) وردَّ الرأي الثاني بأن هذه الآية مكية، والسبع الطوال خمس منها مدنية[2].

وأحياناً لا يرى أن أي قول للمفسرين - بعد إطلاعه عليها - حتى ولا قوله هو في التفسير - مناسباً صحيحاً، يمكن أن يطمئن إليه وتستريح نفسه إليه..... ولذلك يَدَع الأمر إلى القراء ليجيلوا فيه نظراتهم، ويعملوا فيه عقولهم.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طَعموا، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا ﴾[3] وقف طويلاً أمام سر تكرار التقوى فيها، واطلع على أقوال المفسرين في ذلك. لكن أقوالهم لم يسترح إليها، وقوله لم يرتح إليه:

(ولم أجد في أقوال المفسرين ما تستريح إليه النفس في صياغة العبارة القرآنية على هذا النحو، وتكرار التقوى مرة مع الإيمان والعمل الصالح، ومرة مع الإيمان، ومرة مع الإحسان.. كذلك لم أجد في تفسيري لهذا التكرار في الطبعة الأولى من هذه الظلال ما تستريح إليه نفسي الآن.... ... وأحسن ما قرأت - وإن كان لا يبلغ من حسّي مبلغ الارتياح - هو ما

---

(١) الحجر: ٨٧.

(٢) الظلال ٤ : ٢١٥٣ مع الهامش

(٣) المائدة: ٩٣.

قاله ابن جرير الطبري: (الاتقاء الأول: هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق، والدينونة والعمل. والاتقاء الثاني: الاتقاء بالثبات على التصديق. والاتقاء الثالث: اتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل..)[1].

وبعد أن أورد كلامه في الطبعة الأولى، ترك الأمر للقارىء، واعترف بعجزه عن بيان ذلك السر، فقال: «وأنا اللحظة لا أجد في هذا القول ما يريح أيضاً.. ولكنه لم يفتح علي بشيء آخر.. والله المستعان...)[2].

ثانياً: مصادر مادة السيرة:

مادة السيرة غزيرة في الظلال، لأن سيد قطب كان حريصاً على تصوير الجو العام الذي نزلت فيه النصوص، والأحداث والحوادث التي واجهها، وبيان تفاعل الصحابة مع القرآن وتأثرهم به والتزامهم به. تحدث عن حوادث السيرة في العهد المكي، وعن أحداثها في العهد المدني، وعن غزوات الرسول ـ ﷺ ـ التي عرضها القرآن، وعن أسباب النزول في القرآن المكي والمدني، وأسباب النزول ـ التي حرص دائماً على بيانها في الظلال ـ مرتبطة ارتباطاً مباشراً مع حوادث السيرة، وكان يأخذها من كتب السيرة والحديث والتفسير بالمأثور.

وهو في حديثه عن السيرة وعرضه لأحداثها، كان يأخذها من الكتب المنهجية المعتمدة في مادة السيرة، يأخذها مع الأمانة العلمية في النقل والاقتباس، وأهم الكتب التي أخذ منها هي:

١ ـ **السيرة النبوية لابن هشام** ـ وصاحبها الحقيقي هو ابن إسحاق ولكنها اشتهرت باسم تلميذه ابن هشام لأن له جهداً في تهذيبها. ـ وهي المرجع الأساسي في السيرة، والتي اعتمد عليها كتاب السيرة قدامى ومحدثين، وقد كان سيد قطب يعتمد عليها في معظم عرضه لأحداث

---

(١) الظلال ٣: ٩٧٨.

(٢) الظلال ٣: ٩٧٩، وانظر وقفة أخرى له مع نفسه ومع المفسرين وترجيحه للأمر في الظلال ١: ٢٣٨.

السيرة، وأحياناً يذكر أنه أخذها من ابن إسحاق[1] وأحياناً يورد المادة دون إشارة إلى المرجع، لكن بالمقارنة يظهر أنه أخذها من ابن إسحاق لكن بتصرف واختصار

كانت سيرة ابن إسحاق هي المعتمدة لديه، وكان يقارن بين عرضه وعرض غيره من كُتاب السيرة فيجد بأنهم أخذوا عنه، ففي عرضه لأحداث غزوة بدر الكبرى أخذها عن ابن إسحاق. وقال: (واعتمد ابن كثير على ابن إسحاق في روايته للغزوة في كتابه (البداية والنهاية) ولم يفترق المقريزي في (إمتاع الأسماع) عن هذه الرواية في كثير. وكذلك رواها باختصار الإمام ابن قيم الجوزية في (زاد المعاد) والإمام ابن حزم في (جوامع السيرة)[3].

ولما فسر سورة الفتح، وأراد تصوير الجو العام الذي نزلت فيه، في صلح الحديبية، اعتمد على سيرة ابن هشام ـ أو ابن إسحاق ـ قال: (ورواية ابن هشام لوقائع الحديبية هي أوفى مصدر نستند إليه في تصورها. وهي في جملتها تتفق مع رواية البخاري ورواية الإمام أحمد، ومع تلخيص ابن حزم في جوامع السيرة وغيرهم. . .)[4].

٢ ـ **إمتاع الأسماع للمقريزي**: كان هذا الكتاب أيضاً بين يديه، ينظر فيه ويقابل بينه وبين كتب السيرة الأخرى. وقد أشار إليه أكثر من مرة في الظلال[5] بل كان ينقل أحياناً بعض النصوص منه، كما في تصويره الجو العام «لعام الحزن» في العهد المكي أثناء تعريفه بسورة هود[6] وكما في تصويره الشدة التي أصابت المسلمين في غزوة الأحزاب[7].

---

(١) انظر الظلال ٢: ٨٢٢ حاشية و٣: ١٤٥٣. و ٤: ١٨٤٠. و ٥: ٢٨٣٣ و ٦: ٣٣٠٧.
(٢) قارن على سبيل المثال بين الظلال ١: ٢٢٥ وبين سيرة ابن هشام ٢: ٢٥٢ ـ ٢٥٤.
(٣) الظلال ٣: ١٤٥٣.
(٤) الظلال ٦: ٣٣٠٧.
(٥) الظلال ٣: ١٤٥٣. و ٣: ١٧٢٣. و ٥: ٢٨٣٤.
(٦) الظلال ٤: ١٨٤٠.
(٧) الظلال ٥: ٢٨٣٧ ـ ٢٨٣٨.

٣ ـ **جوامع السيرة لابن حزم**: كذلك كان هذا الكتاب متوفراً له وهو يكتب الظلال، ينظر فيه وفي غيره من كتب السيرة، ويخرج بخلاصة للحادثة من الكتب كلها. وقد أشار إليه أكثر من مرة في الظلال أيضاً(١). وكان ينقل منه بعض النصوص. كما في حديثه عن زوجات الرسول ـ ﷺ ـ وملابسات زواجه بكل واحدة منهن(٢).

٤ ـ **زاد المعاد لابن قيم الجوزية**: وهو كتاب يجمع بين السيرة النبوية وبين فقه السيرة ولهذا يصلح أن يصنف مع كتب السيرة، وأن يصنف في كتب الفقه والأثر.

وكثيراً ما كان سيد قطب يأخذ من هذا الكتاب، يقارن بينه وبين غيره من كتب السيرة الأخرى(٣) أو يتبنى آراءه ويورد تلخيصه لهدي رسول الله ـ ﷺ ـ في بعض الأمور. كما أورد كلامه عن هدي الرسول ـ ﷺ ـ في حياته ومعيشته والسير فيها، وهدي رسول الله ـ ﷺ ـ في ذكر الله عز وجل(٤). وأعجبه كثيراً تلخيص ابن القيم لحركة الجهاد في الإسلام ومراحلها في العهدين المكي والمدني، والمرحلة النهائية التي استقرت عليها في نهاية الفترة المدنية. أعجبه تلخيصه وتبناه، وأورده أكثر من مرة في الظلال(٥).

كما كان يعجبه تحقيقات ابن القيم لبعض قضايا السيرة، ويتبناها في الظلال. فقد ذكر ابن القيم أن رأي رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة أحد هو ألا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن دخلتها قريش قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت. وقد تبنى سيد رأيه هذا(٦).

---

(١) انظر الظلال ٣: ١٤٥٣. و ٦: ٣٣٠٧.
(٢) الظلال ٦: ٣٦١٠ ـ ٣٦١١.
(٣) الظلال ٣: ١٤٥٣.
(٤) الظلال ٦: ٣٩٣٩ ـ ٣٩٤٠.
(٥) الظلال ٣: ١٤٣١ ـ ١٤٣٢ و٣: ١٥٧٨ ـ ١٥٧٩ و٣: ١٥٤٠ ـ ١٥٤١.
(٦) الظلال ١ : ٤٦٠ وقارنه مع زاد المعاد ٢ : ١٠٢.

كذلك أورد سيد تحقيق ابن القيم بشأن الجارية التي قال عنها علي بن أبي طالب ـ في حديث الأفك ـ لرسول الله ـ ﷺ ـ «وسل الجارية تخبرك» بأنها ليست (بريرة) كما ذهب إليه كُتاب السيرة لأنها كاتبت وعتقت بعد هذا بمدة طويلة [1].

كذلك نفى ابن القيم أن تكون المشادة قد وقعت بين سعد بن عبادة وبين سعد بن معاذ بشأن عبد الله ابن أُبي في حديث الأفك، لأن سعد بن معاذ توفي قبل ذلك الحادث. ولكنها وقعت بين سعد بن عبادة وبين أُسيد بن حضير ـ ابن عم سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه. وقد تبنى سيد في الظلال هذه التحقيقات [1].

وسيد قطب ـ وإن وافق ابن القيم في تحقيقاته السابقة فقد رد على ابن القيم تحقيقه في أن الحج فرض في السنة التاسعة أو العاشرة للهجرة، لأن الرسول ـ ﷺ ـ حج حجة الوداع في السنة العاشرة. فقد رجح سيد أنه فرض بعد تحويل القبلة في السنة الثانية من الهجرة. أما تأخير الرسول ـ ﷺ ـ حجته إلى السنة العاشرة فقد كان لاعتبارات أخرى [2]. . .

٥ ـ **سيرة الرسول**: صور مقتبسة من القرآن الكريم. لمحمد عزة دروزة.

مر معنا أن سيد اطلع على كتاب محمد عزة دروزة (التفسير الحديث) وأنه صوَّب له الكثير من أفكاره في الجهاد. وكان قد توفر لسيد كتاب آخر لدروزة وهو كتابه في السيرة (سيرة الرسول) وقد كان سيد معجباً بهذا الكتاب كثيراً، ويثني عليه كلما ذكره، واصفاً إياه بأنه كتاب قيم [3].

وقد نقل كلام دروزة في بيان أن صلح الحديبية يعد فتحاً في الموقف

(١) الظلال ٤ : ٢٤٩٦، حاشية.
(٢) الظلال ١ : ١٩٣.
(٣) الظلال ٦ : ٣٥٧٢.

السياسي والعسكري بين المسلمين والمشركين[١]، كما اقتبس من كتاب دروزة فقرات كاشفة من «فصل جيد» أورده عن حركة النفاق في المدينة، مبيناً أسباب ظهورها ومواقف رجالها، وخطورة دورها، وأحال على الفصل بتمامه في الكتاب[٢].

ولم يكتفِ سيد قطب بكتب السيرة يأخذ منها أحداث السيرة وإنما كان يرجع إلى كتب التفسير والحديث، فكثيراً ما كان يرجع إلى تفسير ابن جرير الطبري[٣]، وإلى تفسير ابن كثير[٤]، يأخذ منهما الروايات في أسباب النزول أو ملابساته أو زمانه، أو تفاعل الصحابة بالنص وتأثرهم به.

كذلك كثيراً ما كان يأخذ رواية حوادث السيرة عن كتب الحديث مثل صحيحي البخاري[٥] ومسلم[٦] وموطأ مالك[٧] ومسند أحمد[٨] وسنن الترمذي[٩] وأبي داود والنسائي وابن ماجة.

كذلك كان يرجع إلى بعض الكتب المعاصرة في تصوير حياة الصحابة مع الرسول - ﷺ - بالقرآن وفي تصوير النقلة البعيدة التي نقلهم بها القرآن من جاهليتهم إلى إسلامهم، وفي بيان ملامح حياتهم في جاهليتهم. ومن هذه الكتب: كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»[١٠] الذي أشاد به كثيراً، وأخذ منه في عدة مواضع، وكتاب «الحجاب»[١١]، لأبي الأعلى المودودي.

---

(١) الظلال ٦: ٣٣١٦ - ٣٣١٧.
(٢) الظلال ٦: ٣٥٧٢ - ٣٥٧٣.
(٣) الظلال ١: ٢٤٨. و ٣: ١٥٩٧.
(٤) الظلال ٣: ١٧١٠ و ٣: ١٦١٦ - ١٦١٧.
(٥) الظلال ١: ٥٠٨ و ٤: ٢٤٩٧.
(٦) الظلال ٣: ١١٠٠ و ٦: ٣٥٣٨.
(٧) الظلال ١: ٢٤٨.
(٨) الظلال ١: ٤٣٩ و ٦: ٣٤٢٥ - ٣٤٢٦.
(٩) الظلال ٣: ١٥٩٨ و ٤: ٢٤٨٨.
(١٠) الظلال ١: ١٦٦ و ٦: ٣٩٤٨ - ٣٩٥٢.
(١١) الظلال ٢: ٦٠٢ و ٢: ٦٣٣ - ٦٣٦.

وهو في رجوعه إلى كتب السيرة يقارن بينها في الروايات، ويتعقب بعضهم فيما يقرره أو يرويه، فقد أورد موجزاً لحوادث غزوة ذات العسرة ـ تبوك ـ من عدة كتب في السيرة منها: سيرة ابن هشام وتاريخ ابن كثير «البداية والنهاية» وأحال ابن كثير في تاريخه على سيرة ابن هشام بشأن حادثة المنافقين من محاولتهم اغتيال الرسول ـ ﷺ ـ وهو عائد من تبوك، وأن الرسول ـ ﷺ ـ أخبر حذيفة بن اليمان وحده ـ رضي الله عنه ـ.

وقد تعقب سيد قطب ابن كثير في قوله هذا، ورجع إلى سيرة ابن هشام فلم يجده فقال: (لم أجد هذا فيما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق في السيرة. .)[1].

وكان سيد قبل إيراده حوادث السيرة، يضع أمامه عدة كتب موثوقة معتمدة في السيرة، ثم ينظر فيها كلها ويقابل بينها، ويورد الصورة الموجزة المجملة الصادقة عن الحادث، يستقيه منها كلها.

فعندما أورد حوادث غزوة بدر قال: «اعتمد ابن كثير على ابن إسحاق في روايته للغزوة في كتابه «البداية والنهاية» ولم يفترق المقريزي في «إمتاع الأسماع» عن هذه الرواية في كثير. وكذلك رواها باختصار ـ الإمام ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» والإمام ابن حزم في «جوامع السيرة» وقد استقينا من جميعها. .»[2].

فهذا النص يدل على منهجيته في البحث، وجهده في المقارنة والمقابلة بين المصادر، وحرصه على التوثيق العلمي فيما يورده في الظلال، وعلى توفر المراجع بين يديه في سجنه.

وبينما رأينا سيد قطب يرجع إلى خمسة مراجع في السيرة في عرضه لغزوة بدر، فإننا نراه يرجع إلى أربعة مراجع في السيرة في عرضه لغزوة تبوك (ونحن نلخص في هذا من السيرة لابن هشام، ومن إمتاع الأسماع

---

(١) الظلال: ٣: ١٧٢٦.

(٢) الظلال ٣: ١٤٥٣.

للمقريزي، ومن البداية والنهاية لابن كثير، ومن تفسير ابن كثير..)[1].

أما أحداث صلح الحديبية، فقد استقاها من أربعة مراجع أيضاً وهي: سيرة ابن هشام، وصحيح البخاري، ومسند أحمد، وجوامع السيرة لابن حزم[2].

ثالثاً: مصادر مادة الحديث:

اعتمد سيد قطب على الحديث اعتماداً كثيراً في الظلال وكان حريصاً على أن يورد عدة أحاديث في تفسير الآية، وغالباً ما كان يُخرِّج هذه الأحاديث بذكر الراوي والكتاب الذي وردت فيه.

وكان يرجع إلى كتب الحديث لبيان أسباب النزول، أو تصوير الجو الذي نزلت فيه النصوص، أو بيان أحداث السيرة النبوية، أو ذكر تفاعل الصحابة بالنصوص والتزامهم بها، كما كان يرجع إلى كتب الحديث في إشاراته إلى القضايا والمسائل الفقهية.

فلما تحدث عن أحكام الحج وشعائره اعتمد على كتب حديثية هي: صحيح البخاري، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، ومسند أحمد، وصحيح مسلم[3].

ولما تحدث عن الحكمة من تحويل القبلة، أورد عدة أحاديث تدعو المسلمين إلى التميز عن الكفار، وقد أخذ هذه الأحاديث من الصحيحين والموطأ، وسنن أبي داود وابن ماجة[4].

ولما تحدث عن فضل الشهادة وحياة الشهداء أورد ستة أحاديث أخذها عن الشيخين في صحيحيهما ومالك في الموطأ وأبي داود في سننه[5].

---

(١) الظلال ٣: ١٧٢٣.
(٢) الظلال ٦: ٣٣٠٧.
(٣) الظلال ١: ١٩٧ ـ ١٩٨.
(٤) الظلال ١: ١٢٨.
(٥) الظلال ١: ١٤٤ ـ ١٤٥.

ولما فسر آيات الصوم، وأثناء حديثه عن الرخصة للمسافر بالفطر، أورد أحد عشر حديثاً. ، في بعضها توجيه من الرسول - ﷺ - المسلمين إلى الفطر، وفي بعضها لم يقع نهي منه عن الصيام.

وقد خرّج هذه الأحاديث، حيث أخذها من الصحيحين، وموطأ مالك، وسنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجة[1].

ولما فسر آيات القتال، وتحدث عن آداب القتال في الإسلام، أورد تسعة أحاديث تبين هذه الآداب، وقد أخذ هذه الأحاديث من الصحيحين وموطأ مالك وسنن أبي داود والترمذي[2].

وكان يعتمد على مسند الإمام أحمد بن حنبل، ويحيل عليه كثيراً عند ذكره للأحاديث[3].

ولما تحدث عن انشقاق القمر زمن الرسول ﷺ في مكة كمعجزة للرسول - ﷺ - أورد الحادث بعدة روايات وعدة طرق، وذكر من أخرج هذه الروايات والطرق. وهم: البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والبيهقي والطبراني والطبري[4].

وحادث الرسول ﷺ مع زوجاته الذي أشارت إليه سورة التحريم، استقاه سيد قطب من عدة كتب في الحديث وهي: البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد، وإن كان قد أورد رواية أحمد باللفظ[5].

وقضية المخلفين الثلاثة عن غزوة تبوك وتوبة الله عليهم، التي رواها كعب بن مالك استقاها من ثلاثة كتب هي: البخاري ومسلم وأحمد[6].

---

(١) الظلال ١: ١٦٩ - ١٧٠.
(٢) الظلال ١: ١٨٨ - ١٨٩ و ٣: ١٧٤٠ - ١٧٤١.
(٣) الظلال ١: ٤٣٩ و ٥٠٤ - ٥٠٥ و ٢: ٨٩٩.
(٤) الظلال ٦: ٣٤٢٥ - ٣٤٢٦.
(٥) الظلال ٦: ٣٦١٤ - ٣٦١٥.
(٦) الظلال ٣: ١٧٢٧.

وحديث معاذ بن جبل عندما سيّره رسول الله - ﷺ - إلى اليمن الذي يبين فيه منهجه في الحكم والقضاء. أخذه من: أحمد وأبي داود والترمذي وابن ماجة[1].

هذا وكان يأخذ الحديث - أحياناً من غير الكتب التي ذكرناها. مثل مسند الدارمي[2] ومسند البزّار[3] ومعجم الطبراني[4] ودلائل النبوة للبيهقي[5] ومسند الفردوس للديلمي[6]. وغيرها.

رابعاً: مصادر مادة التاريخ:

في الظلال مادة تاريخية كثيرة، سواء تاريخ الأمم السابقة قبل الإسلام، أو تاريخ المسلمين في عهودهم المختلفة.

أما تاريخ السابقين فقد كان منهجياً في بحثه، علمياً في إيراد حوادثه، فبينما نرى المفسرين السابقين، راحوا «يخبطون» فيه - إلا من رحم الله - ويوردون الأساطير والخرافات والأباطيل عن أهل الكتاب، وكانت «الإسرائيليات» مصدرهم الأساسي فيه. نجد أن سيد قطب كان حريصاً على أن يبقى في جو النص القرآني، وتسجيل دلالاته الصريحة، وعدم تجاوز هذا إلى تيه الأساطير والإسرائيليات[7]. وقد نجح في تجاوز الإسرائيليات والأساطير في بحثه في تاريخ الأقدمين. وكان منهجياً في عدم محاكمة القرآن إلى التاريخ[8].

من الكتب التي رجع إليها وهو يبحث تاريخ الأمم السابقة: كتاب

---

(١) الظلال ٦: ٣٣٣٨.
(٢) الظلال ٢: ٩٨٧.
(٣) الظلال ٦: ٣٣٤٨.
(٤) الظلال ٢: ٦٧٩.
(٥) الظلال ٦: ٣٤٢٦.
(٦) الظلال ٣: ١٤٧٤.
(٧) انظر الظلال ١: ٢٦٤ و ٣: ١٣٩٧.
(٨) انظر الظلال ٤: ٢٢٨٩ - ٢٢٩٠.

«الآثار الباقية عن القرون الخالية، لأبي الريحان البيروني. في محاولته تعيين ذي القرنين[1].

ومنها «العهد القديم» وهو التوراة التي حرفها اليهود، وصارت فكراً بشرياً جاهلياً، حيث نقل منه نصاً ـ في الحاشية ـ استشهد فيه على ضلال تصور كاتبه، إذ صوَّر في أسطورة برج بابل في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين، العلاقة بين الله وعباده تقوم على تدبير الله لهم المكائد الانتقامية ـ سبحانه[2] ـ.

كما نقل من العهد القديم نصاً آخر يصور الضياع القاتل الذي يعيشه من يفقد حلاوة الإيمان[3].

وفي بيانه ضلال النصارى في تصوراتهم، ومنشأ هذا الضلال، وفرقهم وطوائفهم فيه، رجع إلى عدة كتب منها (الدعوة إلى الإسلام) لأرنولد، ترجمة حسن إبراهيم حسن[4]. ومنها كتاب (مدونة جستنيان) ترجمة عبد العزيز فهمي[5].

ومنها (محاضرات في النصرانية) لمحمد أبي زهرة الذي اعتمد عليه اعتماداً أساسياً في الحديث عن النصارى في الظلال، ونقل عنه نقولات كثيرة في أكثر من موضع[6]. كما اعتمد في هذا الموضوع على كتاب «عبقرية المسيح» للعقاد[7].

أما في مجال ضلال اليهود وشركهم بالله وقولهم: «عزير ابن الله» فقد اعتمد تحقيقات رشيد رضا في تفسيره «المنار» ونقلها كاملة[8].

---

(١) الظلال ٤ : ٢٢٨٩ .
(٢) الظلال ١ : ٢٤ .
(٣) الظلال ١ : ٣٤٣ .
(٤) الظلال ١ : ٣٦٦ .
(٥) الظلال ٢ : ٦٢٩ .
(٦) الظلال ٢ : ٨٠٢ و ٨١٥ ـ ٨١٦ و ٨٦٤ ـ ٨٦٦ .
(٧) الظلال ٥ : ٣٢٠٠ .
(٨) الظلال ٣ : ١٦٣٦ ـ ١٦٤١ .

وفي بيان الخلافات الجذرية الدامية بين اليهود والنصارى رجع إلى كتاب أبي الحسن الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ونقل منه نقولات مطولة[1].

وقد رجع إلى الاكتشافات التاريخية الأثرية، واستأنس بها في تحديد بعض الأماكن التاريخية للسابقين، ولكنه لم يجزم بهذا التحديد.

فعند حديثه عن سد يأجوج ومأجوج أشار إلى أنه من المحتمل أن يكون هو الذي اكتُشف بقرب مدينة «ترمذ» بين «سمرقند» وبين الهند. وأنه قد مر به في العصور الوسطى العالم الألماني «سيلد برجر» والمؤرخ الإسباني «كلافيجو»[2].

أما قرى قوم لوط ـ وبخاصة سدوم ـ فقد استعان بالاكتشافات الحديثة التي اكتشفت شرقي البحر الميت ليسجل احتماله أن يكون البحر الميت قد تكوّن فوق هذه القرى[3].

وفي إشارته لتاريخ العرب الجاهلي قبل الإسلام اعتمد على كتب التفسير والسيرة ـ التي أشرنا إليها سابقاً ـ كما اعتمد على كتب أخرى مثل كتاب «الأصنام للكلبي»[4] وكتاب «الحجاب» لأبي الأعلى المودودي[5].

والكتاب الذي اعتمد عليه كثيراً، وأشاد به ونقل عنه، في بيان تاريخ العرب الجاهلي وملامح حياتهم الفوضوية، وبيان النقلة البعيدة التي نقلهم إليها الإسلام، والتغيير الجذري الذي حدث على كيانهم كله، هذا الكتاب هو «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» لأبي الحسن ـ علي الحسني ـ الندوي[6].

---

(١) الظلال ٦: ٣٩٤٨ ـ ٣٩٥٢.
(٢) الظلال ٤: ٢٢٩٣ حاشية.
(٣) الظلال ٥: ٢٦١٤.
(٤) الظلال ٣: ١١٦٢ و ٥١٠.
(٥) الظلال ١: ٦٠٢.
(٦) الظلال ٢: ٥٠٩ ـ ٥١٠ و ٥: ٣١٦٢ ـ ٣١٦٣ و ٦: ٣٩٦٨ ـ ٣٩٧٠.

مصادر تاريخ المسلمين:

ولما تحدث عن تاريخ المسلمين رجع إلى كتب التاريخ الموثوقة. وقد مر معنا المراجع التي رجع إليها وهو يتحدث عن سيرة الرسول - ﷺ - وحياة الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - باعتبارها الحلقة الأولى المثالية الفريدة من حلقات التاريخ الإسلامي.

ومن الكتب التي أخذ منها - وهو يشير إلى التاريخ الإسلامي - كتاب أبي جعفر - محمد بن جرير - الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ونقل منه فقرات كاشفة دالة(١). ومنها تاريخ ابن كثير «البداية والنهاية»(٢).

ومنها كتاب «الإسلام والقانون الدولي العام» للمستشار علي علي منصور، نقل منه نصوصاً من كتاب «حضارة العرب» لغوستاف لوبون(٣).

ومنها كتاب «أبو حنيفة بطل التسامح» لعبد الحليم الجندي(٤).

حاضر العالم الإسلامي:

أما حاضر العالم الإسلامي فقد وقف سيد عنده طويلاً، وتحدث عن مشكلاته وقضاياه، وبيّن العداوة الماكرة التي تشنها عليه الجاهلية بثالوثها النجس - اليهودية والصليبية والشيوعية - وأورد نماذج للحقد الأسود الذي يقطر منهم على المسلمين وبطشهم بهم بدون مراعاة لعهد أو قرابة(٥).

كذلك تحدث عن حركة البعث الإسلامي، وبيّن لها معالم طريقها، وعرَّفها بأعدائها وأشار إشارات تلميحية إلى ما تعانيه من طواغيت الجاهلية،

---

(١) الظلال ١: ٥٠٥.

(٢) الظلال ٣: ١٦٠٨ - ١٦٠٩.

(٣) الظلال ٣: ١٦٢٩ - ١٦٣٠.

(٤) الظلال ٦: ٣٨٣٠.

(٥) الظلال ٣: ١٦٣٠ وانظر إحالته في الحاشية على أربع كتب إسلامية معاصرة وانظر الظلال ٢: ١٠٦٠ - ١٠٦١ و٦: ٣٥٥٧ - ٣٥٥٨.

وبخاصة في أرض الكنانة - مصر - وحديثه في هذا حديث الخبير المجرب..[1].

وأجد من المناسب في هذا المقام إيراد عبارات عجيبة من كلام سيد قطب حول عداوة الجاهلية للحركة الإسلامية المعاصرة، بيّن فيها خطتها في إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة الإسلامية تتزيّا بزي الإسلام، وتنفذ في الواقع جميع مشروعات الجاهلية، وأشار إلى وسائل الأعداء في التمويه على جماهير المسلمين والتمكين لهذه الأنظمة التي أقاموها، وسحق الإسلاميين الواعين لما يجري حولهم سحقاً بدون هوادة.

بعد أن بيّن يأس اليهود والنصارى من حرب هذا الدين حرب مواجهة، لجأوا - في العصر الحديث - إلى وسيلة أخرى خسيسة: قال سيد عنها: (كان من ثمرة اليأس من هذا الدين، أن عدل اليهود الصهيونيون والنصارى الصليبيون عن مواجهة الإسلام جهرة عن طريق الشيوعية أو عن طريق التبشير. فعدلوا إلى طرائق أخبث وإلى حبائل أمكر.. لجأوا إلى إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة كلها تتزيَّا بزيّ الإسلام، وتتمسح في العقيدة، ولا تنكر الدين جملة... ثم هي تحت هذا الستار الخادع، تنفذ جميع المشروعات التي أشارت بها مؤتمرات التبشير، وبروتوكولات صهيون، ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل..).

وبعد أن بيّن خطة هؤلاء «العملاء» في حكم المسلمين وإفسادهم، أشار إلى وسائل الأعداء - الشيطانية - في خداع جماهير المسلمين وتضليلهم. فقال: (وإمعاناً في الخداع والتضليل، وإمعاناً من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية في التخفي، فإنها تثير حروباً مصطنعة - باردة أو ساخنة - وعداوات مصطنعة في شتى الصور بينها وبين هذه الأوضاع التي أقامتها، والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية، وتجعل أقلام مخابراتها في خدمتها وحراستها المباشرة. تثير هذه

---

(١) انظر الظلال ٢: ١١٠٥ - ١١٠٧ و٣: ١٦٤٨ - ١٦٥٠ و٦: ٧٣٥٧٩

الحروب المصطنعة، والعداوات المصطنعة، لتزيد من عمق الخدعة، ولتبعد الشبهة عن العملاء...).

(فإذا بقيت بقية في هذه الرقعة، لم تجز عليها الخدعة، ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف، وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكلم عن مواضعه، ولوصف الكفر بأنه الإسلام، والفسق والفجور والانحلال بأنه تطور وتقدم وتجدد، وإذا بقيت بقية كهذه، سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة، وصبت عليها التهم الكاذبة الفاجرة، وسحقت سحقاً.. بينما وكالات الأنباء العالمية، وأجهزة الأعلام العالمية، خرساء صماء عمياء... ذلك بينما الطيبون السذج من المسلمين يحسبون أنها معركة شخصية أو طائفية لا علاقة لها بالمعركة المشبوبة مع هذا الدين[1]...

بهذا النص العجيب الفريد، انكشفت أجهزة الحكم الطاغية، المتسلطة على رقاب المسلمين ، وظهرت على حقيقتها وعمالتها للأعداء، وتبددت هالة الوطنية والثورية المزعومة التي تجللت بها. كذلك عرف السبب الحقيقي في الأمجاد والبطولات الزائفة التي تصوغها الجاهلية للطواغيت العملاء، وأمكن تحليل الحروب السياسية والعسكرية والإعلامية التي تنشب في المنطقة تحليلاً صادقاً صائباً سليماً...!

وبهذا النص تجلت موهبة سيد قطب في التحليل السياسي الصادق[2] ورسم خلفيات السياسة العالمية المعاصرة، وإن كتابة هذا النص في زمن بلغت فيه أجهزة الحكم في أرض الكنانة ـ التي تقود الأنظمة الأخرى في عمالتها ـ بلغت أوج عظمتها ووطنيتها وثوريتها، وصبت فيه أقسى ضرباتها الموجعة للحركة الإسلامية، كتابة هذا في هذا الظرف، مأثرة أخرى جديدة تضاف إلى مآثر رائد الفكر الإسلامي المعاصر، العالم المجاهد الشهيد!!

---

(١) الظلال ٢ : ١٠٣٣.

(٢) انظر مبحث «سيد قطب المحلل السياسي» من كتابنا «سيد قطب الشهيد الحي».

خامساً: مصادر المادة العلمية:

أورد سيد قطب في الظلال مادة علمية استشهد بها في تفسير الآيات العلمية في القرآن، كما استعان بالعلم الحديث، وأنباء الاختراع، وآخر المكتشفات العلمية في توضيح معنى الآية، وفي توسيع مدلـولها، وفي إعطائها بُعْداً تفسيرياً معاصراً، وتسجيل ما فيها من إعجاز علمي معاصر. وهو في إيراده لهذه المادة إنما أوردها للاستشهاد فقط، ولم يربط تصديقه بمدلول الآية، وإيمانه بإيحاءاتها بهذا الاكتشاف العلمي، أو بمـا يقولـه العلماء المعاصرون، لأنه حاشا للمؤمن أن يصدق قول الله بقول البشر[1]!!.

كما أنه يهدف من إيراد هذه المادة العلمية، أن يخاطب العلماء بلغتهم، ويجعلها وسيلة للمفتونين بالعلم الحديث، وأقـوال أقطابـه من الغربيين، وسيلة لهم لدخول عالم القرآن الرحيب، وتلقي إيحاءاته مباشرة. ولهذا يقول: «ونحب أن ننبه أننا إذ نقتطف ما نقتطف إنما نخاطب الماديين العلميين بلغتهم.. وليس هذا إقراراً منا بصحة كل ما نستشهد به، وسلامة منهجه التفكيري والتعبيري في القضية التي نعرضها..»[2].

وأهم الكتب العلمية التي استقى منها مادته العلمية هي:

١ ـ الله يتجلى في عصر العلم: وهو كتاب ألفه نخبة من العلماء الأمريكيين في شتى التخصصات العلمية، وترجمه للعـربية الـدكتور الـدمرداش عبد المجيد سرحان[3].

٢ ـ العلم يدعو للإيمان: كتاب ألفه كريسي موريسون بعنوان (الإنسان لا يقوم وحده) رداً على كتاب لجوليان هاكسلي من الداروينية الحديثة بعنوان (الإنسان يقوم وحده) ـ وقد ترجمه إلى العربية محمود صالح الفلكي بعنوان «العلم يدعو للإيمان»[4].

---

(١) الظلال ١: ١٨١ ـ ١٨٣ و٣: ١١٥ و٣: ١١٦٥ و٦: ٣٤٥١.

(٢) الظلال ٣: ١١١٩ و ٤: ٢١٣١.

(٣) الظلال ٣: ١١١٦ و ٤: ٢١٣١.

(٤) الظلال ٥: ٢٥٤٨ ـ ٢٥٥٠ و ٥: ٢٥٧٢ ـ ٢٥٧٤ و٦: ٣٤٥٣ و٦: ٣٨٨٤ ـ ٣٨٨٨.

وقد نقل من هذين الكتابين نقولات كثيرة في الظلال، وهو في هذه النقول لا ينسى أن يقف ليُعقب على بعضها ـ في الهامش ـ وليُصوب ما فيها من أفكـار باطلة أو تعبيرات مرفوضة[1].

٣ ـ الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل، وقد رجع إليه ونقل منه كثيراً ـ في الطبعة الأولى من الظلال وهو يفسر الأجزاء الأخيرة من القرآن[2].

٤ ـ مع الله في السماء للدكتور أحمد زكي[3].

٥ ـ عقائد المفكرين في القرن العشرين لعباس محمود العقاد[4].

٦ ـ الكون الغامض للسير جيمس جينز[5].

٧ ـ الإنسان ذلك المجهول لالكسيس كاريل[6].

٨ ـ الإسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز إسماعيل[7].

سادساً: مصادر الثقافة الإسلامية:

أحال سيد قطب على عدد كثير من المؤلفات الإسلامية المعاصرة، لكُتاب إسلاميين معاصرين، تتناول شتى جوانب الفكر الإسلامي، وتبحث في مختلف مجالات الثقافة الإسلامية وبعض هذه المؤلفات نقل منها نقولاً حرفية، وبعضها أخذ منها أفكارها وصاغها بأسلوبه، وبعضها لم ينقل منها، وإنمـا أحال عليهـا لزيـادة البيان، أو لمـزيد من البحث، أو من أجـل الاستشهاد!!!

ومن أهم المؤلفات التي أحال عليها، مؤلفاته هو ومؤلفات شقيقه محمد قطب، ومؤلفات السيد أبي الأعلى المودودي.

وهو أحياناً يحيل على جملة مؤلفات في القضية الـواحدة لـزيادة

(١) الظلال ٣: ١١١٧ و ٣: ١١٥٥ ـ ١١٥٦ و ٣: ١١٦٦.
(٢) الظلال ٦: ٣٤٣٨ ـ ٣٤٤٠ و ٦: ٣٨٤٨ ـ ٣٨٤٩.
(٣) الظلال ٦: ٣٦٨٥ و ٦: ٣٨١٧ ـ ٣٨١٨.
(٤) الظلال ٦: ٣٦٨٥ و ٦: ٣٨١٧ ـ ٣٨١٨.
(٥) الظلال ٤: ١١٦٥ و ٤: ١٢٧١.
(٦) الظلال ٣: ١١١٦.
(٧) الظلال ٤: ٢١٨١.

التوضيح والبيان والاستشهاد[1]. وأهم الكتب التي أحال عليها ورجع إليها أو نقل منها:

١ ـ في ظلال القرآن: تفسيره نفسه كان يحيل على ما سبق له تفسيره من آيات القرآن وتحقيقه لبعض الأمور، وينقل منه أحياناً بعض الفقرات[2].

٢ ـ التصوير الفني في القرآن: له أيضاً، وبخاصة أحال على فصل (طريقة القرآن) للتوسع في الحديث عن الصور الفنية وبيان القاعدة التي تقوم عليها[3].

٣ ـ مشاهد القيامة في القرآن: نقل منه بيانه لبعض مشاهد القيامة فيه[4].

٤ ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام[5].

٥ ـ النقد الأدبي أصوله ومناهجه[6].

٦ ـ السلام العالمي والإسلام[7].

٧ ـ دراسات إسلامية[8].

٨ ـ الإسلام ومشكلات الحضارة[9].

٩ ـ خصائص التصور الإسلامي[10].

١٠ ـ هذا الدين[11].

١١ ـ المستقبل لهذا الدين[12].

---

(١) الظلال ٣: ١٤٢٢ و ٣: ١٦٣٠.
(٢) الظلال ٣: ١٥٧٨ ـ ١٨٥٠.
(٣) الظلال ١: ٢٨.
(٤) الظلال ٦: ٣٨٣٤.
(٥) الظلال ٦: ٣٥٢٥.
(٦) الظلال ٢: ٨٥٥.
(٧) الظلال ١: ٥٧٥.
(٨) الظلال ٣: ١٦٨٤.
(٩) الظلال ٣: ١٣٤٠.
(١٠) الظلال ٢: ١١٦٠.
(١١) الظلال ٣: ١٥٢٣.
(١٢) الظلال ٣: ١٦٢٩.

١٢ ـ معالم في الطريق[1].

وقد أحال على مؤلفات شقيقه محمد قطب مثل:

١٣ ـ الإنسان بين المادية والإسلام[2].
١٤ ـ شبهات حول الإسلام[3].
١٥ ـ معركة التقاليد[4].
١٦ ـ منهج التربية الإسلامية[5].
١٧ ـ منهج الفن الإسلامي[6].
١٨ ـ التطور والثبات في حياة البشرية[7].
١٩ ـ دراسات في النفس الإنسانية[8].
٢٠ ـ في النفس والمجتمع[9].
٢١ ـ هل نحن مسلمون[10].
٢٢ ـ جاهلية القرن العشرين[11].

أما مؤلفات أبي الأعلى المودودي التي أحال عليها فهي:

٢٣ ـ الربا[12].

---

(١) الظلال ٣: ١٤٢٣.
(٢) الظلال ١: ٦١.
(٣) الظلال ١: ٢٣٦.
(٤) الظلال ١: ٣٣٨.
(٥) الظلال ١: ٣٤١.
(٦) الظلال ٢: ١١٦١.
(٧) الظلال ٣: ١٢١٩.
(٨) الظلال ٣: ١٣٤١.
(٩) الظلال ٦: ٣٥٦٩.
(١٠) الظلال ٣: ١٣١٦.
(١١) الظلال ٣: ١٥٢١.
(١٢) الظلال ١: ٣٢١.

٢٤ ـ شهادة الحق [١] .
٢٥ ـ الحجاب [٢] .
٢٦ ـ مبادىء الإسلام [٣] .
٢٧ ـ المصطلحات الأربعة في القرآن[٤].
٢٨ ـ الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية[٥].
٢٩ ـ الجهاد في سبيل الله[٦].
٣٠ ـ الإسلام والجاهلية[٧].

كما أحال على مؤلفات إسلامية معاصرة أخرى منها:

٣١ ـ أومن بالإنسان لعبد المنعم خلاف[٨].
٣٢ ـ الأسرة والمجتمع للدكتور علي عبد الواحد وافي[٩].
٣٣ ـ حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور وافي أيضاً[١٠].
٣٤ ـ التشريع الجنائي الإسلامي للشهيد عبد القادر عودة[١١].
٣٥ ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه لعباس العقاد[١٢].
٣٦ ـ الله للعقاد[١٣].
٣٧ ـ عبقرية المسيح للعقاد أيضاً[١٤].

---

(١) الظلال ١: ٤٠٣.
(٢) الظلال ٢: ٦٣٣.
(٣) الظلال ٢: ١١٣٣.
(٤) الظلال ٢: ١١٦٣.
(٥) الظلال ٣: ١٣٢٠ ـ ١٣٢١.
(٦) الظلال ٣: ١٤٤٤ ـ ١٤٥٢.
(٧) الظلال ٣: ١٧٥٥.
(٨) الظلال ـ الطبعة الأولى ـ ١: ٢٢.
(٩) الظلال ١: ٦٠٨ ـ ٦٠٩.
(١٠) الظلال ٢: ٦٤٥.
(١١) الظلال ٢: ٨٨٤ ـ ٨٨٦.
(١٢) الظلال ١: ٦١٠.
(١٣) الظلال ٤: ١٨٨٣ ـ ١٨٨٥.
(١٤) الظلال ٥: ٣٢٠٠.

٣٨ ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية لمصطفى الخالدي وعمر فروخ [١].
٣٩ ـ الغارة على العالم الإسلامي لمساعد اليافي ومحب الدين الخطيب [٢].
٤٠ ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين [٣].
٤١ ـ الروحية الحديثة دعوة هدامة للدكتور محمد حسين أيضاً [٤].

سابعاً: أخباره وخبراته الشخصية:

ومن موارد الظلال أخباره الخاصة، وتجاربه الشخصية، وخبراته المكتسبة، وملاحظاته عن الحياة، ونظراته الثاقبة في المجتمع المعاصر عربياً أو غربياً، واستفادته من ملحمته الجهادية التي سطرها في سجنه.

فلما كان يتحدث عن مظاهر انحراف الجاهلية القديمة، كان يعرج على مجتمعه الذي عاش فيه، ليشير إلى بعض العادات والأعراف الباطلة المخالفة للإسلام[٥].

ولما تحدث عن انحراف الناس عن دينهم وصوَّر نماذج بشرية لهؤلاء كان يشير إلى أفراد رآهم في عالم الواقع، وقد انسلخوا من آيات الله وصاروا من الغاوين[٦].

ولما تحدث عن البعد الواقعي لآيات القرآن التي تبين اتفاق أعداء هذا الدين لصد المسلمين عن دينهم، أشار إلى الصورة المعاصرة لهذا التحالف الشيطاني الذي تقوده اليهودية والصليبية والإلحاد[٧].

---

(١) الظلال ٣: ١٦٣٠.
(٢) الظلال ٣: ١٦٣٠.
(٣) الظلال ٣: ١٦٣٠.
(٤) الظلال ٣: ١٧٦٠.
(٥) الظلال ٢: ٩٩٠.
(٦) الظلال ٣: ١٣٩٨.
(٧) الظلال ٢: ٩٦٦.

ولما تحدث عن دعم هذا التحالف لأنظمة الطغيان التي أقاموها في المنطقة، وحللها تحليلاً سياسياً صادقاً، كان حديثه صادراً عن خبرته بها، وبمواقفها وبخلفياتها[1].

ولما أشار إلى أساليب التعذيب الرهيبة، ووسائلهم الخسيسة في حرب الحركة الإسلامية واضطهاد رجالها، كان يشير إلى ما وقع عليه منها، وما شاهدته عينه يقع على إخوانه[2].

ولما تحدث عن المكاسب التي يخرج بها من يعيش في ظلال القرآن، وأثر نصوصه على كيانه، كان يشير إلى صلته بالقرآن، وحياته مع نصوصه[3].

ولما عرض مظاهر انحراف العالم الغربي الجاهلي - بزعامة أمريكا - وسيره نحو مصيره المحتوم، وتحقق سنة الله - التي لا تتخلف - فيهم، كان يعرض بعض ما شاهده شخصياً أثناء وجوده في أمريكا[4].

ثامناً: جماعة الأخوان المسلمين:

ومن موارد الظلال التي لا بدّ أن نذكرها، جماعة الأخوان المسلمين، بفكرها ومناهجها ومبادئها... والتي أثْرت الفكر الإسلامي المعاصر ثراء عظيماً مثلما أثْرت العمل الحركي الإسلامي المعاصر، الذي كانت سباقة في تنظيمه وتأصيله وبرمجته وتخطيطه..

لقد كان لفكر مؤسس هذه الجماعة الإمام الشهيد حسن البنا تأثير مباشر على سيد قطب وهو يكتب الظلال، كما كان لفكر مفكري الحركة أثر مباشر. وفي طليعتهم الشهيد عبد القادر عودة الذي أحال كثيراً على نتاجه الفكري[5].

---

(١) الظلال ٣: ١٠٣٣.
(٢) الظلال ٦: ٣٥٧٩.
(٣) الظلال ٥: ٢٩٢٤.
(٤) الظلال ٣: ١٠٩١. وانظر كتابنا «أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب».
(٥) انظر الظلال ٢: ٨٨٤ - ٨٨٦.

إن انضمام سيد قطب لحركة الأخوان المسلمين أفاده كثيراً في المجال الفكري والمجال العملي الجهادي، وأثرى أفكاره أصالة وعمقاً، وحيوية ونضوجاً، واستقامة واتزاناً، وفاعلية وصدقاً.

ويخطىء من يظن أن سيد قطب تخلى عن أفكار حركة الأخوان ومبادئها ومناهجها، أو أنه لا صلة بين فكره ونظراته وبينها، وأنه لم يبدع في الظلال إلا بعدما تجاوز فكر هذه الحركة.

إن سيد قطب يعتبر امتداداً لفكر الإمام حسن البنا ـ وإن أضاف إليه الكثير من الجديد المفيد ـ وغصناً باسقاً يانعاً أصيلاً في شجرة جماعة الأخوان المسلمين الثابتة الراسخة العطاء[1]..

(١) انظر الفصل الجيد الذي عقده الأستاذ يوسف العظم في ختام كتابه عن سيد قطب في المقارنة بين حسن البنا وبين سيد قطب بعنوان «بين حسن البنا... وسيد قطب»: ٣٢٩ ـ ٣٣٣.

الفصل الخامس

وسائل سيّد قُطب في الظِّلال

أهمية الوقوف على وسائل المفسر:

لكل مفسر وسائل يستخدمها في تفسيره، والذي يحدد هذه الوسائل هو «شخصية» المفسر، ونوع ثقافته، واتجاهه الفكري، والمدرسة التفسيرية التي يتبعها، وطبيعة تفسيره، وهدفه الذي يرجوه منه! وهذه الوسائل ضرورية لكل مفسر، ولا يخلو منها تفسير في القديم والحديث، وملاحظة هذه الوسائل وتحديدها يساعد على التعرف على منهج المفسر وطريقته في التفسير!.

لذلك كان لسيد قطب وسائل استخدمها في تفسير الظلال، وهذه الوسائل تتفق مع شخصية سيد وثقافته وفكره، كما تتفق مع طبيعة الظلال، والأهداف التي يهدف إليها منه، وتتفق أيضاً مع طبيعة العصر الحديث الذي نعيشه، وألوان المعارف والعلوم والثقافات المنتشرة فيه، ومع واقع الأمة الإسلامية الذي تعيشه والمستقبل المأمول الذي يرجوه المصلحون لها - ومنهم سيد قطب كما رسمه في الظلال -.

وهذه الوسائل مرتبطة ارتباطاً مباشراً بأهداف الظلال، وبموارده ومصادره - ولذلك جاء هذا الفصل تالياً للفصلين السابقين! -.

وسنحاول - بعون الله - تحديد هذه الوسائل وبيانها، واستخراجها من الظلال.

أولاً: ثقافته العريضة المنوعة العالية:

لقد حصَّل سيد قطب ثقافة شاملة عالية، وكانت منوعة الاتجاهات،

مختلفة الألوان، في مختلف المباحث والموضوعات الإسلامية والعربية والعامة، أخذها من مختلف المصادر الإسلامية والعربية والمترجمة[1].

يقول ـ مشيراً إلى طرف من ثقافته ورصيده منها ـ «إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة، كان عمله الأساسي فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته.. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره. فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم ـ وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك ـ وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره»[2].

فإذا عرفنا أن الحد الأدنى لساعات مطالعاته يومياً كان عشر ساعات[3] أدركنا بعضاً من رصيده الثقافي الضخم.

كانت ثقافته ـ قبل سجنه ـ موسوعية شاملة، متعددة الجوانب وفي شتى نواحي المعرفة الإنسانية، من آداب وعلوم ومعارف عربية وأجنبية، ثقافية دينية وأدبية، تاريخية وحضارية، سياسية واقتصادية، نفسية وحياتية، علمية وعملية، بالإضافة إلى مكاسب من حياته العملية وخبراته الشخصية ونظراته الحياتية!

أما في سجنه فقد كانت ثقافته قرآنية عملية، كان يخلو فيه إلى قرآنه، ويسجل عنه إيحاءاته ومعانيه، وصوره وظلاله!.

وقد استخدم كل هذه الجوانب الثقافية الشاملة في تفسيره للقرآن الكريم، استخدمها فأحسن وأجاد، وجاء تفسيره متعدد الجوانب والألوان، شاملاً لشتى موضوعات المعرفة الثقافية، التي تشير إليها نصوص القرآن الكريم!.

---

(١) انظر إشارتنا إلى طرف من ثقافته في مبحث «مصادر ثقافته» في كتاب «سيد قطب الشهيد الحي».

(٢) معالم في الطريق: ١٧٦ دار دمشق.

(٣) سيد قطب الشهيد الحي: ١٧١.

وأهم ألوان ثقافته ـ التي استخدمها في التفسير ـ هي:

أ ـ ثقافته الإسلامية:

في الظلال مواطن كثيرة جداً ناتجة عن استخدامه ثقافته الإسلامية ـ المنوّعة ـ كوسيلة للتفسير. فقد استوعب مختلف مظاهر الثقافة الإسلامية من: تفسير وحديث، وفقه وخلاف، وعقيدة وتصور، وتاريخ وفرق، واقتصاد واجتماع، ودعوة وحركة، وتبليغ وجهاد... وغير ذلك، ويحوي الظلال وقفات شتى لهذه المظاهر. وقد أشرنا إلى طرف منها عندما تحدثنا عن «موارد الظلال» في الفصل السابق. ونكتفي بإشارتنا هناك عن إيراد أمثلة أخرى عليها من الظلال.

ب ـ ثقافته اللغوية:

كانت ثقافته اللغوية وسيلة في الظلال وليست غاية، حيث استخدم علوم النحو والبلاغة، والأدب والنقد، وسائل لعرض أفكاره وتحقيق أهدافه، وهو في هذا يختلف عن بعض السابقين من المفسرين، الذين كان تناولهم لهذه المباحث هدفاً وغاية، سواء النحو أو فقه اللغة، أو البلاغة وأساليب البيان.

ولهذا نجد تعرضه لقضايا النحو والبلاغة والقراءات قليل في الظلال، بالمقدار الذي يحقق كونها وسائل.

فعندما فسر قوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[1] استخدم النحو والبلاغة في الآية للاستدلال على دلالتها الحركية العامة في بيان ظلم وكفر وفسق كل من لم يحكم بما أنزل الله «وهذا الوصف الجديد (الظالمون) لا يعني أنها حالة أخرى غير التي سبق الوصف فيها بالكفر، وإنما يعني إضافة صفة أخرى لمن لم يحكم بما أنزل الله...

وهذا ما يقتضيه اتحاد المسند إليه وفعل الشرط: «ومن لم يحكم بما

(١) المائدة: ٤٥.

أنزل الله «فجواب الشرط الثاني يضاف إلى جواب الشرط الأول، ويعود كلاهما على المسند إليه في فعل الشرط وهو (مَنْ) المطلق العام. . .»[1].

وقد استوقفه سياق الآية ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والـذين أشركـوا ﴾[2] فبيّن أن الخطاب فيهـا يحتمل أن يكـون موجهـاً للرسول ـ ﷺ ـ وأن يكون عاماً لجميع المسلمين.

لكن الأهم من هذا هو تقديم اليهود على المشـركين ـ في شدة عداوتهم للمؤمنين ـ وقد استخدم النحو والبلاغة وسيلة في بيان سر التقديم فقال: (نعم: إن العطف بالواو في التعبير العربي يفيد الجمع بين الأمرين، ولا يفيد تعقيباً ولا ترتيباً. . ولكن تقديم اليهود هنا ـ حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين ـ بما أنهم أصلاً أهل كتاب ـ يجعل لهذا التقديم شأناً خاصاً غير المألوف من العطف بالواو في التعبير العربي! إنه ـ على الأقل ـ يوجه النظر إلى أن كونهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة، وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا! ونقول: إن هذا على الأقل ولا ينفي هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا. .)[3].

ثم رجح الاحتمال الثاني بعرضه نماذج من العداء المتأصل بين اليهود والمؤمنين على طول التاريخ الإسلامي في القديم والحديث، ظهر منها: أن اليهود ـ فعلاً ـ أشد عداوة للمؤمنين من الذين أشركوا. . .)[4].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ والصبح إذا تنفس. . ﴾[5] وقف أمام هذا التعبير متأثراً مسحوراً، واسترجع رصيده اللغوي الثقافي من التعابير العربية ـ البشرية ـ البليغة المؤثرة، وخرج من هذا بقوله: (وأكاد أجزم أن اللغة العربية

---

(١) الظلال ٢ : ٩٠٠.

(٢) المائدة: ٨٣.

(٣) الظلال: ٢ : ٩٦٠.

(٤) الظلال ٢ : ٩٦٠ ـ ٩٦١.

(٥) التكوير: ١٨.

بكل مأثوراتها التعبيرية لا تحتوي نظيراً لهذا التعبير عن الصبح..)[1] ثم تجاوز هذا إلى الإشارة إلى أنفاس الصبح، وإلى الثروة الشعورية والتعبيرية البديعة الجميلة لهذه الظاهرة الكونية الساحرة[2].

جـ ـ ثقافته التاريخية:

أشرنا في الفصل السابق إلى أهم موارده في المادة التاريخية، ولقد حصّل سيد ثقافة تاريخية عريضة من مختلف المصادر الموثوقة. وأحسن استغلالها كوسيلة في التفسير.

تاريخ الأمم السابقة وأخبار الماضين، وقصصهم مع أنبيائهم، أخذها من إيحاءات النصوص القرآنية وتقريراتها، ونجح في ترك الإسرائيليات، وتجاوزها إلى تسجيل ما في النصوص من حقائق إيمانية وقيم اعتقادية، وسنن إلّهية، وعبر وعظات للمعاصرين، ودروس حركية وتربوية للعاملين[3].

ركز على تاريخ الصحابة وتصوير حياتهم وتفاعلهم مع القرآن ـ كجيل قرآني فريد ـ وصوّر ملابسات نزول النصوص والجو العام لنزولها، وأورد مشاهد لسيرة الرسول ـ ﷺ ـ واستخرج دلالات وإيحاءات وتحليلات، ودروساً وعبر وعظات من كل ذلك. وقد أشرنا إلى نماذج من ذلك في الفصل السابق أيضاً.

أما تاريخ المسلمين ـ بعد العصر الأول الزاهر ـ فلم يغفله كذلك في الظلال وإنما وقف عنده واستخرج دلالته الحركية والتربوية، واستعان به في تصوير العداوة المتأصلة بين المسلمين والكفار، وإيراد نماذج من هذه العداوة في شتى مراحل التاريخ[4].

ولقد كان للتاريخ المعاصر ـ حاضر العالم الإسلامي، وحاضر العالم

---

(١) الظلال ٦: ٣٨٤٢.

(٢) انظر ـ كذلك ـ الظلال ١: ٢٢٨ و ٩٢٨ و ٩٤٦ و ٩٩٩ و ٣: ١٢٣٧.

(٣) انظر الظلال ١: ٢٦١ ـ ٢٦٤ و ٢: ١٠٣٨ و ٣: ١٣٩٧ ـ ١٣٩٩ و ٤: ٢٢٦١ ـ ٢٢٦٦.

(٤) الظلال ٢: ٩٥٩ ـ ٩٦١. و ٣: ١٦٠٧ ـ ١٦١٠. و ٣: ١٦٢٧ ـ ١٦٣٠.

الجاهلي، وواقع حركات البعث الإسلامي - نصيب كبير في الظلال. وثقافته عن هذا التاريخ راسخة شاملة منوعة عالية، اكتسبها من قراءاته ودراساته، ومن نظراته وتحليلاته، ومن خبراته وحياته، ومن حركته وجهاده! -. واستعان بكل هذا الرصيد في التفسير، وفي إعطاء بُعْد معاصر للنصوص القرآنية المعجزة، وتوسيع مدلول النص القرآني، وشموله للواقع المعاصر، وفي تعرية الجاهلية المادية المعاصرة، وكشف سوآتها وسيئاتها ومخازيها، وبيان انحراف وضلال «المتنفذين» والمسؤولين من المسلمين، ومنازعتهم لله في الحاكمية بتعبيد الناس لهم من دون الله، وسن تشريعات وقوانين وأفكار ومناهج ونظم غير إسلامية في بلاد المسلمين، وكشف صلتهم بأعداء المسلمين وارتباطهم بهم. كما تحدث عن الحركة الإسلامية المعاصرة ومعركتها مع الجاهلية والطغيان، وعنف وقساوة الحرب المشبوبة عليها، وبواعثها وطبيعتها وأطرافها...

وفي الظلال نماذج عديدة متفرقة، مبثوثة في عدة مواطن منه[1].

د - ثقافته العلمية:

استعان بثقافته العلمية - المنوعة الشاملة - في تفسير الآيات، وتسجيل مدلولاتها العلمية، والاستشهاد لها بآخر أنباء العلم الحديث، وفي بيان حكمة التوجيهات وتعليل التشريعات:

لما كان يتحدث عن السحر وعن حقيقته وطبيعته، ويناقش المنكرين له والجاحدين لوجوده، اعتبره ظاهرة موجودة، لكنها مجهولة الحقيقة، غامضة الكُنه والطبيعة. وأورد نماذج أخرى معاصرة لهذه الظاهرة يسلم العلماء بوجودها ويعجزون عن تحليلها مثل: «التيلِباثي» - التخاطر عن بعد - والتنويم المغناطيسي والأحلام التنبؤية والأحاسيس الخفية.. واعتبر السحر مثل هذه الظواهر.

---

(١) الظلال ١: ٤٣٧ - ٤٤٥. و ٢: ١٠٣٢ - ١٠٣٤ و٣: ١٦٤٨ - ١٦٥٠. و٤: ١١٠٦ - ١١٠٧. و٥: ٣٠٨٥ - ٣٠٨٧. و٦: ٣٥٢٩ - ٣٥٣٠.

ووضع في أيدينا ميزاناً لقبول هذه الظواهر، حتى لا نكون مع المُغرقين في الإنكار أو المبالغين في الإثبات. «الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً.. لا ينفي على الإطلاق، ولا يثبت على الإطلاق، حتى يتمكن بوسائله المتاحة له ـ بعد ارتقاء هذه الوسائل ـ من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه، أو يسلّم بأن في الأمر شيئاً فوق طاقته..»[1].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ الرجال قوامون على النساء... ﴾[2] استعان بالتحليل العلمي الحديث في بيان طبيعة تكوين الرجل وطبيعة تكوين المرأة الجسدي والفكري والعقلي والنفسي، ومن ثم تنوعت خصائص كل منهما، ونتج عن ذلك تنوع المواهب والاستعدادات، فكان لا بدّ ـ نتيجة لذلك ـ أن تتنوع الوظائف. استعان بالعلم في بيان هذا. لبيان الحكمة التي تبدو في هذا النص، وفساد وضياع حياة الجاهليين عندما خالفوا هذا الأمر[3].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو.. ﴾[4] وقف وقفة مطولة ليتحدث عن الغيب ومفاتحه واختصاص الله بالعلم بها. ووضعه في إطاره الخاص في التصور الإسلامي باعتباره مقوماً أساسياً من مقومات التصور الإسلامي، وردّ في هذه الوقفة على الجاهليين الذين يضعون الغيب في مقابل العلم والعلمية.

واستعان بثقافته العلمية في بيان الغيب ـ كبحر من المجهول ـ الذي يسبح فيه الإنسان في حياته، ثم أورد أقوالاً عديدة لعلماء غربيين معاصرين يوردون فيها نماذج مختلفة على وجود الغيب في حياة الإنسان، أورد هذه الأقوال لتوسيع مدلول النص القرآني، وللاستشهاد له بأقوال الغربيين، وليحاكم إليها الذين لا يؤمنون إلا بكلام البشَر، من المسلمين الذين صبوا

---

(١) الظلال ١ : ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) النساء: ٣٤.

(٣) الظلال ٢ : ٦٥٠ ـ ٦٥٢.

(٤) الأنعام: ٥٩.

عقولهم في «قوالب» الفكر الغربي»: ليعلموا أن عليهم هم أن يحاولوا «الثقافة» و «المعرفة» ليعيشوا في زمانهم، ولا يكونوا متخلفين عن عقليته ومقررات تجاربه! وليستيقنوا أن «الغيب» هو الحقيقة «العلمية» الوحيدة المتبقية من وراء كل التجارب والبحوث والعلم الإنساني ذاته! وأن «العلمية» - في ضوء التجارب والنتائج الأخيرة مرادفة تماماً «للغيبية».. أما الذي يقابل الغيبية حقاً فهو «الجهلية»!!»[1].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾[2] وقف مستعيناً بثقافته العلمية - يورد أقوالاً لعلماء غربيين يظهرون فيها - على ضوء البحث العلمي النزيه - مظاهر لتركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه، تنفي عنه فكرة المصادفة، وتظهر التقدير الدقيق «الذي - يعجز البشر عن تتبع مظاهره، في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير»[3].

وأشار إشارات موجزة إلى بعض من الحشود الهائلة العجيبة التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾[4]. وهي حشود هائلة عجيبة من الأشياء، والحركات، والأحكام، والأشكال، والصور والمعاني... يعجز البشر كلهم عن إحصاء وتتبع ما يقع فيها في لحظة واحدة[5]!!!.

وهو في استعانته بثقافته العلمية، وفي استشهاده بالعلم الحديث، وفي استخدامه التفسير العلمي - أحياناً - لم يستعمله على إطلاقه، ولم يبالغ في القول به، بل إنه أنكر على من يبالغ في القول به ويعممه من المعاصرين من المسلمين وبيّن دوافعهم وأخطاءهم في هذا الأمر.

---

(١) الظلال ٢: ١١١٥. وانظر الأقوال فيه ١١١٣ - ١١٢١.

(٢) الفرقان: ٢.

(٣) الظلال ٥: ٢٥٤٨ - ٢٥٥٠. وانظر في نفس الموضوع تقريباً الظلال ٦: ٣٤٣٦ - ٣٤٤٠.

(٤) سبأ: ٢.

(٥) الظلال ٥: ٢٨٩١ - ٢٨٩٢. وانظر وقفة أخرى في الظلال ٦: ٣٤١٥ - ٣٤١٦ وللوقوف على نماذج أخرى أنظر: الظلال ٢: ١١٥٣ - ١١٥٨. و٣: ١٧٨١ - ١٧٨٢. و٤: ٢١٣٤ - ٢١٣٥. و٥: ٢٥٧٦. و٦: ٣٨٤٨ - ٣٨٥٠.

وقد وضع ميزاناً محدداً لاستعمال هـذه الوسيلة، واستخـدام هذا التفسير، حيث فرّق بين «الحقيقة العلمية» وبين «النظرية العلمية» إن الحقيقة العلمية لا تخالف تقريراً قرآنياً، ولذلك يجوز أن نستشهد بما تقرره وما توحيه هذه الحقائق في تفسير النص القرآني ـ دون أن نعلق الحقائق القرآنية بها أو نقيدها بها ـ أما النظريات العلمية فلا يجوز أن نحمل النص القرآني ونلهث به وراءها ونقول إن الآية تعني هذه النظرية[1]!!.

هـ ـ **ثقافته في الدراسات النفسية والتحليل النفسي:**

حصّل سيد قطب ثقافة نفسية واسعة، وله خبرة في النفس الإنسانية، والكشف عن خفاياها، وتحليل مواقفها ودوافعها، وبيان حالاتها المختلفة.

وقد استخدم هذه المعرفة والخبرة في التفسير، وفي التعليل «النفسي» للأوامر والتوجيهات، وفي تحليل النماذج الإنسانية المصورة في الآيات، وبيان دوافعها في مواقفها، وفي تفسير المواقف المختلفة لأبطال القصص القرآني، وفي توسيع مدلـول النص القرآني، وإضـافة بُعـد نفسي له، والاستشهاد له.

ففي تفسير قـولـه تعـالى: ﴿ بلى من كسب سيئة وأحـاطت بـه خطيئته.. ﴾[2] استعان بثقافته النفسية في الاستشهاد لمضمون الآية. وكيف اعتبرت الخطيئة كسباً، لأن هذا التعبير «يومـىء إلى حالة نفسية معروفة، إن الذي يجترح الخطيئة إنما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها، ويحسبها كسباً له ـ على معنى من المعاني ـ ولو أنها كانت كـريهة في حسّـه ما اجترحها...»[3].

ووقف وقفة لطيفة أمام قوله تعالى: ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء... ﴾[4] وسر وروده على هذه الصِيغة بهذه الألفاظ. فهو تصوير

(١) أنظر الظلال ١: ١٨١ ـ ١٨٤.
(٢) البقرة: ٨٢.
(٣) الظلال ١: ٨٦.
(٤) البقرة: ٢٢٨.

لحالة نفسية دقيقة، وهي نفسية الزوجة المطلَّقة ورغبتها الدافعة إلى استئناف حياة زوجية جديدة. «هي حالة طبيعية، تدفع إليها رغبة المرأة في أن تثبت لنفسها ولغيرها أن إخفاقها في حياة الزوجية لم يكن لعجز فيها أو نقص، وأنها قادرة على أن تجتذب رجلاً آخر، وأن تنشىء حياة جديدة.. هذا الدافع لا يوجد بطبيعته في نفس الرجل، لأنه هو الذي طلّق...»[1].

ولهذا كان التوجيه إليهن دون الرجال، وورد حكم العدة بهذا اللفظ «يتربصن» الذي يصور - بجرسه وظله - صورة التربص والتحفز، وانتظار انتهاء مدة العدة إنتظاراً نفسياً خاصاً...

ولما فسر النصوص التي تتعلق بالنساء، وبيّن بعض الأحكام والتوجيهات الخاصة بهن - في سورة النساء. استعان بثقافته النفسية في تفسيرها، وحلل نفسية المرأة على ضوئها تحليلاً صائباً، واستشهد لما يقول ببيان طبيعة المرأة وتركيبها العضوي والعقلي والنفسي والعصبي[2]...

ولما فسر الآيات التي تبين حكم وكيفية صلاة الخوف - في سورة النساء - أشار إلى إيحاءاتها النفسية، «إن المتأمل في أسرار هذا القرآن. وفي أسرار المنهج الرباني للتربية، المتمثل فيه، يطّلع على عجب من اللفتات النفسية، النافذة إلى أعماق الروح البشرية، ومنها هذه اللفتة في ساحة المعركة إلى الصلاة.. حيث علل تعليلاً نفسياً الحرص على الصلاة في المعركة والتعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو[3]...

وعندما تعرض لرؤيا نبي الله يوسف - عليه الصلاة والسلام - حللها تحليلاً نفسياً، وتحدث عن الأحلام التنبؤية والرؤى، وصلتها بخصائص الإنسان الطبيعية، وعرج - في هذه المناسبةَ - على مدرسة «التحليل النفسي»

---

(١) الظلال ١ : ٢٤٥.

(٢) الظلال: ١ : ٥٧٥. و٢ : ٦٢٨. و٦٣٢، و٦٤٣ - ٦٤٥، و٦٤٨ - ٦٥٦.

(٣) الظلال ٢ : ٧٤٨.

ليناقشها ويصوب آراءها. واستشهد لما يقول بحادثة وقعت له شخصياً ـ وهو في أمريكا[1] ـ

كذلك اعتمد على التحليل النفسي لنفسية يوسف ـ عليه السلام ـ وهو يحاول تقدير عمره وعمر إمرأة العزيز عندما راودته عن نفسه. ليخرج إلى تصوير المحنة الطويلة التي مرّ بها يوسف ـ عليه السلام ـ وصمد لها ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة، مما يضيف معنى جديداً من معاني عفته ونزاهته وإبائه واستعلائه وعصمته ـ عليه السلام[2] ـ

نكتفي بهذه النماذج، وهناك العديد من الأمثلة الأخرى مبثوثة في مواطن متفرقة من الظلال[3].

ثانياً: وقفته المتأملة الفاحصة المتخيلة أمام نصوص القرآن الكريم:

وقف سيد قطب أمام نصوص القرآن الكريم ـ وهو يفسرها، وقفة طويلة خاشعة، ونظر فيها نظرة تأملية فاحصة، واستخدم في هذا خياله الفاعل النشيط، وحسّه الإسلامي المرهف، ومشاعره الإيمانية الجياشة.

وقد أشرنا ـ في الفصل السابق ـ إلى أن تفسيره للسور والآيات على مرحلتين: الأولى: قراءته السورة كاملة عدة مرات، قراءة تأملية خاشعة، حتى يهتدي إلى موضوعها الأساسي، ثم يشرع في تفسيرها. والمرحلة الثانية: النظر في كتب التفسير للتصحيح أو الاستدراك أو التوثيق أو الاستشهاد!

وكان من وسائله في المرحلة الأولى ثقافته وفهمه وشفافية روحه ورهافة حسّه ونشاط خياله...

---

(١) الظلال ٤: ١٩٧٢.

(٢) الظلال ٤: ١٩٧٩ ـ ١٩٨١.

(٣) تعليل نفسي للإيلاء في الظلال ١: ٢٤٤. ولبكاء القسيسين والرهبان عند سماع كلام الله ٢: ٩٦٢ ولنفسيات الكفار ودوافع كفرهم ٢: ١١٥٨. ولموقف النفس الإنسانية في السراء والضراء ٣: ١٧٦٩ ولاستئذان الأطفال في البيوت ٤: ٢٥٣٢. وللتوجيه بغض الصوت ٥: ٢٧٩. ولفعلة حاطب بن أبي بلتعة ٦: ٣٥٣٧ ـ ٣٥٣٨.

التأمل في السورة:

كان يقف متأملاً أمام السورة، وأمام آياتها. يرتلها ترتيلاً هادئاً، ويفتح مشاعره وكيانه وحسّه ليتلقى إيحاءاتها، واكتشاف حقائقها.

سورة الجن ـ على سبيل المثال ـ لما رتلها ترتيلاً خاشعاً، وتأمل فيها تأملاً طويلاً فاحصاً، وفتح حسّه لها، وأعمل خياله فيها، أدرك أنها «تَبْده الحسّ ـ قبل أن ينظر إلى المعاني والحقائق الواردة فيها ـ بشيء آخر واضح كل الوضوح فيها. . . إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع، قوية التنغيم، ظاهرة الرنين، مع صبغة من الحزن في إيقاعها، ومسحة من الأسى في تنغيمها، وطائف من الشجى في رنينها، يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة ومشاهدها، ثم روح الإيحاء فيها، وبخاصة في الشطر الأخير منها. . .» . . الذي يثير العطف على شخص الرسول ـ ﷺ ـ في قلب المستمع لهـذه السورة، عطفاً مصحوباً بالحب، وهو يؤمَر أن يعلن تجرده من كل شيء في أمر هذه الدعوة إلا البلاغ، والرقابة الإلّهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ. . .

«وذلك كله إلى جانب الإيقاع النفسي للحقائق التي وردت في حكاية قول الجن وبيانهم الطويل المديد، وهي حقائق ذات ثقل ووزن في الحسّ والتصور، والاستجابة لها تغشى الحسّ بحالة من التدبر والتفكير. تناسب مسحة الحزن ورنة الشجى المتمشية في إيقاع السورة الموسيقي. . .»[1].

وبعد أن أورد هذا التعريف بالسورة، أورد نتائج تأمله فيها بتسجيل الدلالات والإيحاءات التي تؤخذ منها[2].

أما جزء عم ـ الثلاثون من أجزاء القرآن ـ فقد خرج سيد من تأمله في سياق سوره وآياته، بما عبر عنه بقوله: «إنها طرقات متوالية على الحسّ. طرقات عنيفة قوية عالية. وصيحات. صيحات بنوَّم غارقين في النوم!. . .

---

(١) الظلال ٦: ٣٧٢٠.

(٢) الظلال ٦: ٣٧٢٣ ـ ٣٧٢٦.

تتوالى على حسّهم.. بإيقاع واحد ونذير واحد: إصحوا. استيقظوا. أنظروا. تلفتوا. تفكروا. تدبروا.... وهكذا مرة أخرى. وثالثة. ورابعة.. وخامسة.. وعاشرة.. ومع الطرقات يد قوية تهز النائمين المخمورين السادرين هزاً عنيفاً...

هكذا خيّل إليّ وأنا أقرأ هذا الجزء. وأحسّ تركيزه على حقائق معينة..»(١).

وقد اعتمد على هذه الوسيلة - التأمل والتأثر والتخيل - في تعريفه الفريد بسور القرآن، التعريف الفني والموضوعي والحركي، واستند إليها في الإشارة إلى الدلالات والإيحاءات التي تحويها، والمعاني والحقائق التي توجد فيها بتناسق وتناسب معجَزيْن(٢).

التأمل في الألفاظ:

ولما كان يردد تلاوة السورة أكثر من مرة، كان - أحياناً - يردد تلاوة بعض الألفاظ، ويتأمل في إيقاعها وإيحائها ومدلولها.

استوقفته لفظة «ليبطئن» في قوله تعالى: ﴿وإن منكم لمن ليبطئن..﴾(٣) بحروفها وحركاتها وتأكيداتها، ورددها وتلقى إيحاءاتها التركيبية والتصويرية. قال: «ولفظة «ليبطئن» مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر، وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها، حتى يأتي على آخرها، وهو يشدها شداً.. وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويراً كاملاً بهذا التعثر والتثاقل في جرسها..»(٤).

كذلك وقف يردد قوله تعالى: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن

---

(١) الظلال ٦: ٣٨٠٠ باختصار.

(٢) تعريفه بالسور كلها - في الطبعة المنقحة - مثال لهذا، وبخاصة سور: البقرة والأنعام وهود والرعد.

(٣) النساء: ٧٢.

(٤) الظلال ٢: ٧٠٥.

يقولون إلا كذباً ﴾[1] واستخدم هذا في تفسير الآية، وإيضاح دلالاتها: «يجعل هذه الكلمة تخرج من أفواههم خروجاً، كأنما تنطلق منها جزافاً، وتندفع منها اندفاعاً «تخرج من أفواههم» وتشارك لفظة «أفواههم» بجرسها الخاص في تكبير هذه الكلمة وتفظيعها، فالناطق في مقطعها الأول بما فيه من مد «أفواه..» ثم تتوالى الهاءان فيمتلىء الفم بهما قبل أن يطبق على الميم في نهاية اللفظة «أفواههم» وبذلك يشترك نظم الجملة وجرس اللفظة في تصوير المعنى ورسم الظل...»[2].

كذلك سورة الرحمن كان يحاكي آياتها، ويلاحظ صياغتها، ويعيش إيحاءاتها وإيقاع فواصلها، من هذه المحاكاة وهذا الترديد[3].

التأمل لبيان تناسق السورة:

وكان يستخدم هذه الوسيلة أيضاً ـ التأمل والتفكر ـ في بيان الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم، وفي إظهار ـ التناسق الفني والتناسب الموضوعي بين نصوص السورة، وفي تعليل سر ورود سياقها على الصورة التي ورد فيها.

فإذا أعياه إدراك هذا لأول وهلة، فإنه يطيل الوقفة والتأمل والتفكر، ولو امتدت إلى شهور، وإذا لم يدركه دعا القراء إلى مشاركته في التفكر والتأمل، وإذا لم يسعفوه بشيء يبقى متأملاً ـ سنوات عديدة ـ حتى يفتح الله عليه بإدراكه!!!

فلما فسر قوله تعالى: ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين.. ﴾[4] استوقفه ورود هذه الآية عن الصلاة أثناء آيات تبين

---

(١) الكهف: ٥.

(٢) الظلال: ٤: ٢٢٦٠.

(٣) الظلال ٦: ٣٤٤٥ ـ ٣٤٤٦ وانظر أمثلة أخرى أمام لفظة الواقعة ٦: ٣٤٦٢. والحاقة ٦: ٣٦٧٤.

(٤) البقرة.

أحكام الطلاق والعدة!! فما هو السر في هذا الانتقال المفاجىء ـ في السياق ـ من الحديث عن أحكام الطلاق والعدة والمتعة إلى أحكام الصلاة، ثم العودة إلى أحكام الطلاق من جديد.

أشار إلى وقفته في إدراك سر هذا بقوله: (أشهد أنني وقفت أمام هذه النقلة طويلاً، لا يفتح عليّ في سرِّها، ولا أريد أنا أن أتمحل لها، ولا أقنع كل القناعة بما جاء في بعض التفاسير عنها..»[1].

وبيّن أن هذه الوقفة المحيرة استغرقت منه عدة شهور!!، توقف خلالها عن التفسير، حتى يقف على هذا السر: «لقد بقيت ستة أشهر أو تزيد لا أجاوز هذه النقلة، ولا أمضي وراءها لأن سرها لم يكشف لي كشفاً يستريح ضميري إليه..»[2].

وخرج ـ بعد هذه المدة ـ ببيان لهذا السر، ولكنه لم يرتح إليه «وأشهد أنه (ضميره) لم يسترح بعد لما اهتديت ـ حتى اللحظة ـ إليه..»[3].

ووعد القراء باستمرار وقفته، واستمرار محاولته تعليل هذا السـر، وإخبارهم به في طبعة قادمة، ودعاهم إلى مشاركته في المحاولة وإخباره بما يهتدون إليه: «فإذا هُديت إلى شيء آخر فسأبينه في الطبعة التالية، وإذا هدى الله أحداً من القراء، فليتفضل فيبلغني ـ مشكوراً ـ بما هداه الله»[3].

وأخبروه بما اهتدوا اليه ولكنه لم يجد فيه بياناً لهذا الورود، أو تعليلاً لهذا السر[4].

وأخيراً... وفي الطبعة المنقحة، وبعد ما يزيد على سبع سنوات على كلامه السابق، استمرت فيها وقفته، وطال فيها تأمله وتفكره، هداه الله إلى تعليل السر، وفتح عليه فتحاً عظيماً في ذلك: إنه العبادة: عبادة الله في

(١) الظلال: الطبعة الأولى ٢: ٨٤.

(٢) المرجع السابق: ٨٤ ـ ٨٥.

(٣) المرجع السابق: ٨٥.

الزواج. وعبادته في الطلاق. وعبادته في العدة والنفقة. وعبادته في الصلاة. وكلها من منهج الله في الحياة[1].

وبينما هداه الله وفتح عليه ـ بعد هذه السنوات العديدة ـ في تعليل السياق السابق، نجده في موضع آخر لم يفتح عليه في سر ذلك السياق رغم السنوات العديدة!!..

فقد استوقفه تكرار التقوى في قوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا..﴾[2] وحاول أن يعلل هذا السر، ووقف ـ وأطال الوقفة ـ وقال كلاماً في تعليله ـ في الطبعة الأولى ـ لم يرتح إليه!! واتجه إلى التفاسير السابقة، لعلها تكشف له هذا السر، فلم يجد فيها ما يريح، وأحسن ما وجده في ذلك تعليل ابن جرير الطبري فأثبته في الطبعة المنقحة، وإن كان لم يبلغ من حسّه مبلغ الارتياح!! ولذلك ترك هذا التعليل وهو يعترف بعجزه عنه، وسجل عجزه ذلك ـ باعتراف صريح ـ في الطبعة المنقحة وذهب إلى ربه ـ شهيداً ـ تاركاً الأمر للذين يأتون من بعده!!![3].

وهو لم يعجز عن تعليل ذلك ـ وهو الموضع الوحيد الذي اطلعت عليه في الظلال ـ لتقصير منه في التأمل والتفكر والنظر. فقد كانت نظرته متأنية، ووقفته طويلة، استغرقت ما يزيد على سبع سنوات. ولكنها فتوحات إلٓهية لم يفتح عليه بها هنا. رغم أنها مبثوثة في مواضع لا تحصى من الظلال!

خياله كوسيلة في التفسير:

أما خياله العامل النشيط، فقد كان له نصيب كبير من هذه الوقفات التأملية الفاحصة الطويلة، ووسيلة من وسائله في التفسير، استخدمها فأحسن استخدامها.

---

(١) الظلال ـ الطبعة المنقحة ١: ٢٣٨. ولاحظ هامش الصفحة!

(٢) المائدة: ٩٣.

(٣) انظر الظلال ٢: ٩٧٨ ـ ٩٧٩.

كان يقرأ الآية، ويعيش المشهد المصوّر، ويُعمل خياله في مناظره المتكررة، ويسجل إيحاءات هذا، ويدعو القارىء أن يستعمل خياله ليقف على بعض ما يحويه من مناظر عجيبة.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخِياط.. ﴾[1]. دعا القارىء إلى هذا بقوله: «ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب.. مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة، فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير، وانتظر حينئذٍ ـ وحينئذٍ فقط ـ أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين...»[2].

واستوقفته كذلك الصورة الغليظة التي يرسمها قوله تعالى: ﴿ وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾[3] وأخبرنا بجهد خياله في تخيل هذه الصورة وتمثلها: «ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة، وتلك الصورة الساخرة الهازئة، صورة العجل يُدخَل في القلوب إدخالاً، ويُحشَر فيها حشراً، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل حتى لكأنهم أُشربوه إشراباً في القلوب..»[4].

كذلك أرسل خياله ليعمل في الصورة المجسمة المرسومة بقوله تعالى: ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم.. ﴾[5] فقال: «والعين لا تمتد. إنما يمتد البصَر أي يتوجه. ولكن التعبير التصويري يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع. وهي صورة ظريفة حين يتصورها المتخيل...»[6].

---

(١) الأعراف: ٤٠.
(٢) الظلال ٣: ١٢٩١.
(٣) البقرة: ٩٣.
(٤) الظلال ١: ٩١.
(٥) الحجر: ٨٨.
(٦) الظلال ٤: ٢١٥٤.

وكما كان خياله فاعلاً نشيطاً في الصور القرآنية المعجزة، فقد كان كذلك ـ فاعلاً نشيطاً ـ في المشاهد القرآنية العجيبة الساحرة، حيث أرسله معها، يتتبعها ويتملاها ويتأثر بها، ويسبح في المجالات المأمونة منها. ليعود إليه بحصيلة وافرة من المشاعر والانفعالات والأحاسيس والإيحاءات. . .

أرسل خياله مع المشهد العجيب المتحرك الذي تصوره الآية الكريمة ﴿ الله ولي الذين آمنوا، يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. . . ﴾[1]. إن هذا المشهد حسّي حي متحرك، مصوّر لطريق الهدى وطريق الضلال، وقد أرسل سيد خياله معه وارتاد جوانبه وآفاقه «إنه مشهد عجيب حي موح، والخيال يتبع هؤلاء، جيئة من هنا، وذهاباً من هناك. بدلاً من التعبير الذهني المجرد، الذي لا يحرك خيالاً، ولا يلمس حسّاً، ولا يستجيش وجداناً، ولا يخاطب إلا الذهن بالمعاني والألفاظ. . »[2].

وأرسل خياله يرتاد آفاق وعوالم قوله تعالى: ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد. . ﴾[3] «يذهب الخيال يتتبع كل أنثى في هذا الكون. . المترامي الأطراف. . كل أنثى. . كل أنثى في الوبر والمدر، في البدو والحضر، في البيوت والكهوف والمسارب والغابات، ويتصور علم الله مطلاً على كل حمل في أرحام هذه الإناث، وعلى كل قطرة من دم تغيض أو تزداد في تلك الأرحام!»[4]. كذلك أرسل خياله يتتبع كل هامس وكل جاهر، وكل مستخفٍ وكل سارب في هذا الكون الهائل. ويتصور علم الله يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه، ويقيد عليه كل شاردة وكل واردة آناء الليل وأطراف النهار. . . كما رسمت ذلك الآية التي تلي الآية السابقة[5].

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) الظلال ١: ٢٩٢.

(٣) الرعد: ٨.

(٤) الظلال ٤: ٢٠٤٨.

(٥) الرعد: ٩.

وأرسل خياله يتأمل ويعيش هذا المشهد المؤثر العنيف الصاخب، من مشاهد عذاب الكفار في نار جهنم الذي ترسمه الآية الكريمة: ﴿ فالذين كفروا قطِّعت لهم ثياب من نار، يُصب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود. ولهم مقامع من حديد، كلما أرادوا أن يخرجوا منها - من غم - أعيدوا فيها، وذوقوا عذاب الحريق... ﴾[1].

وأخبرنا بما حصله خياله، وما أوحى به إليه فقال: «إنه مشهد عنيف صاخب، حافل بالحركة، مطول بالتخييل الذي يبعثه في النفس، فلا يكاد الخيال ينتهي من تتبعه في تجدده....».

وبعد أن بيّن جزئيات المشهد العنيفة، ودور الخيال في تتبعها وتجددها، قال: «ويظل الخيال يكرر هذه المشاهد من أولى حلقاتها إلى آخرها، حتى يصل إلى حلقة محاولة الخروج والرد العنيف، ليبدأ في العرض من جديد!»[2].

أما مشهد قيام الناس من قبورهم بنفخة البعث، والذي ترسمه عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿ يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليُروا أعمالهم.. ﴾[3] فإن سيد قطب يرى أن المعاجم ولغة البشر تعجزان عن وصفه، وإنه لا يوصف إلا بإرسال الخيال - العامل النشيط - فيه.

«إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر. هائل. مفزع. مرعب. مذهل..

كل أولئك وسائر ما في المعجم من أمثالها لا تبلغ من وصف هذا المشهد شيئاً مما يبلغه إرسال الخيال - قليلاً - يتملاه بقدر ما يملك، وفي حدود ما يطيق..»[4].

---

(١) الحج: ١٩ - ٢٢.
(٢) الظلال ٤: ٢٤١٥.
(٣) الزلزلة: ٦.
(٤) الظلال ٦: ٢٩٥٥.

لقد كان خيال سيد قطب الوسيلة الوحيدة في وصف هذا المشهد وتصوره وتفسيره.

نكتفي بهذه النماذج - الأربعة - وهناك نماذج أخرى عديدة في الظلال لعمل خياله مع المشاهد المرسومة[1].

عجز الخيال أحياناً عن متابعة المشاهد:

لئن كان خيال سيد قطب قد أحسن وأجاد في ذهابه مع المشاهد المرسومة وتصورها والانفعال بها، فهناك مشاهد أخرى - عجيبة معجزة - حاول أن يرسل خياله معها وفي تتبعها وارتياد آفاقها، فسار معها قليلاً لكنه عجز عن المتابعة، رغم نشاطه وفعاليته!!....

من هذه المشاهد: المشهد الذي تصوره الآيات التالية: ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.. ﴾[2].

أرسل خياله مع هذا المشهد المعجز، فانطلق يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وتتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون ووراء حدوده، وجال في مجاهل البر وفي غيابات البحر، وتتبع الأوراق الساقطة - التي لا يحصيها عد - من أشجار الأرض، وعين الله على كل ورقة تسقط، ولحظ الحب المخبوء في ظلمات الأرض - الذي لا يغيب عن عين الله - ورقب الرطب واليابس في هذا الكون - الذي لا يند منه شيء عن علم الله -.

وعاد خياله إليه بعد هذه الجولة، عاجزاً عن المتابعة، كليلاً مجهَداً لما قام به. فأعلن سيد هذا العجز، وسجل هذا الإعجاز فقال:

---

(١) انظر الظلال ١: ٢٩٢ و٣: ١٣٩٢. و٤: ٢٣٢٢. و٥: ٢٩٣٢ - ٢٩٣٣. و٦: ٣٤١٦.

(٢) الأنعام: ٥٩.

«إنها جولة تدير الرؤوس، وتذهل العقول، جولة في آماد من الزمان، وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول.. جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف، يعيا بتصور آمادها الخيال... وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات.. ألا إنه الإعجاز!!»[1].

كذلك عجز خياله عن متابعة الصورة المفصلة لعلم الله الشامل، وتقدير رزق الله المفصل لكل دواب الأرض، هذه الصورة التي ترسمها الآية الكريمة: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، كل في كتاب مبين.. ﴾[2].

وقد بيَّن هذا بقوله: «إنها صورة مفصلة للعلم الإلّهي في حالة تعلقه بالمخلوقات، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله الإنساني فلا يطيق.

ويزيد على مجرد العلم، تقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا الحشد، الذي يعجز عن تصوره الخيال، وهذه درجة أخرى، الخيال البشري عنها أعجز إلا بالهام من الله..»[3].

ومن المشاهد العجيبة التي لا يصمد لها الخيال ـ والتي اعترف سيد بعجز خياله عن الاستمرار في العمل فيها ـ ذلك الحشد الهائل العجيب من الأشياء والحركات والأحكام، والأشكال والصور، والمعاني والهيئات، التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿ يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾[4].

وقد أشار إلى أن أهل الأرض جميعاً، على اختلاف الزمان والمكان، لو وقفوا أعمارهم كلها، يتتبعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة فقط ـ مما

---

(١) الظلال ٢: ١١١٢.

(٢) هود: ٦.

(٣) الظلال ٢: ١١١٢.

(٤) سبأ: ٢.

تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين! هذا في لحظة واحدة، فكيف تتبع وإحصاء، أو حتى مجرد تخيل ما يقع في ساعة! أو في يوم! أو في شهر!! وكيف بما يقع في الأرض والسماء على طول عمر الحياة الدنيا!!![1].

ومنها أيضاً مشهد الخروج للبعث، مشهد تشقق الأرض عن الأموات، التي غبرت في تاريخ الحياة على اختلاف مراحله وفتراته. الذي ترسمه الآية الكريمة: ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج، إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير.. يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً... ذلك حشر علينا يسير...﴾[2].

مشهد تشقق القبور التي لا تحصى، والتي تعاقب عليها الموتى: «كلها تتشقق وتتكشف عن أجساد ورفات وعظام وذرات تائهة أو حائلة في مسارب الأرض، لا يعرف مقرها إلا الله.. وإنه لمشهد عجيب لا يأتي عليه الخيال....»[3].

ثالثاً: حسّه الإسلامي المرهف:

كان حسّ سيد قطب الإسلامي وسيلة من وسائله الأساسية في التفسير، فقد كان ـ أثناء وقفته أمام النصوص ـ يتفاعل معها بحسّه ومشاعره، ويفتح لها منافذ كيانه، ويترك لها أن تتغلغل في نفسه ووجدانه، ويعيش معها ـ حياة هانئة ـ بأحاسيسه. ويسجل بعض ما يمكنه نقلـه مما يحسّه ويعيشه من ذلك بأسلوبه وعباراته، وإنْ كان ما يحسّه ويعيشه أضعاف أضعاف ما نقله وسجله.

إنه يقول: «إن إيقاع هذا القرآن المباشر في حسّي محال أن أترجمه

---

(١) انظر تفسيره المشرق للآية وعرضه الحي لنماذج من إيحاءاتها في الظلال ٥: ٢٨٩١ - ٢٨٩٢.

(٢) ق: ٤٢ - ٤٤.

(٣) الظلال ٦: ٣٣٦٧.

في ألفاظي وتعبيراتي، ومن ثم أحسّ دائماً بالفجوة الهائلة بين ما أستشعره منه، وما أترجمه للناس في هذه الظلال! . .»[1].

لقد نظر في آيات الله في الكون والأنفس بمنظار جديد، وأحسّ بنعم الله بإحساس جديد، وأدرك بحسّه المرهف وأحاسيسه الجياشة طريقة القرآن الفريدة المعجزة في تنبيه الحواس والمشاعر على هذه الآيات والنعم، وفي فتح العين والقلب على عجائبها، وتعرض لإيحاءاتها ودلالاتها. . لقد سار مع هذه الآيات، وأحس بهذه النعم «كالذي يراها لأول مرة مفتوح العين متوفز الحسّ، حي القلب. .»[2].

استصحب هذه الوسيلة معه دائماً، وهو يفسر القرآن، فأحسن العيش معها والإحساس بها وعرضها للناس: وبخاصة الآيات الكونية ومشاهد الطبيعة المصورة، وعرض نعم الله التي لا تحصى. . .

من هذه المشاهد تلك اللوحة المصورة لمشاهد الطبيعة التي عرضتها آيات من سورة الأنعام وبخاصة قوله تعالى: ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خَضِراً، نخرج منه حباً متراكباً، ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه. . ﴾[3].

أحسّ سيد ـ وهو يفسرها ـ «كأنما المشاهد تنبثق انبثاقاً، هي ومدلولاتها في التماع ولألاء. وهي تتدافع في انبثاقها أمام الحسّ كما تتدافع إيقاعات التعبير اللفظي عنها لتتناسق معها. . . .».

«وتتدفق المدلولات والمشاهد والعبارات في موجات متلاحقة، يتابعها الحسّ في بهر! وما يكاد يصل مع الموجة إلى قرارها حتى يجد نفسه مندفعاً مرة أخرى مع موجة جديدة. . . .»[4].

---

(١) الظلال ٤ : ٢٠٣٨.

(٢) انظر الظلال ١ : ١٥٢.

(٣) الأنعام: ٩٩.

(٤) الظلال ٢ : ١١٥٢.

واستوقفه أمر الله للمؤمنين بالنظر إلى الثمار المختلفة، دون الأمر بالأكل منها ودلالته على «الجمال المعجز» المعروض في القرآن الذي يبلغ حد الروعة الباهرة المعجزة... فنظر في جزئيات هذه اللوحة بحسّه البصير المتوفز، وقلبه اليقظ المتفتح..[1].

كذلك تلقى بحسّه الشاعر المتجدد المشهد المعروض في سورة الرعد في قوله تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان، يسقي بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل..﴾[2].

استوقفه قوله تعالى: ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ والتفت هذه اللفتة التي يوجه القرآن العقول والقلوب والأحاسيس إليها وهي الطعوم المختلفات في نبات البقعة الواحدة التي تسقى - كلها - بماء واحد. وأعلن نتيجة باهرة عن فهمه للقرآن بحسّه وأحاسيسه. ودعى القراء إلى الوقوف طويلاً أمامها وتذوقها واستعمالها فقال: «إنه بمثل هذا يبقى القرآن جديداً أبداً. لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس وهي لا تنفد، ولا يستقصيها إنسان - في عمره المحدود، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود..»[3].

حتى بعض الأحداث الغيبية التي قص علينا القرآن طرفاً منها حاول سيد قطب أن يتملاها بحسّه اليقظ وبصيرته المفتوحة، وعاش معها «بعين البصيرة في ومضات الاستشراق، وأطلعنا على إيحاءاتها ودلالاتها. كما في قصة آدم في الجنة، وما جرى بينه وبين الملائكة، وبينه وبين إبليس..

فبعد أن سجل دلالات وإيحاءات قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾[4] أخبرنا أن وسيلته إلى فهم هذه

(١) الظلال ٢: ١١٦١.
(٢) الرعد: ٤.
(٣) الظلال ٤: ٢٠٤٧.
(٤) البقرة: ٣٠.

الإيحاءات والدلالات هي: حسّه وبصيرته «هذا كله بعض إيحاء التعبير العلوي الجليل «إني جاعل في الأرض خليفة» حين نتملاه اليوم بالحسّ اليقظ والبصيرة المفتوحة..»[1].

كذلك كان يستعمل أحاسيسه ومشاعره في استرجاع الصور والنماذج، والأشخاص والأحداث، والجو والملابسات، التي تحيط بالنصوص القرآنية، أو التي تتحدث عنها وتُصورها..

فلما فسر قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾[2] وحتى يتصور أبعاد هذه السكينة ويدركها، استرجع بحسّه ومشاعره وخياله صور الصحابة، وقلوبهم وهي تجيش بشتى المشاعر والانفعالات من صلح الحديبية: عدم طوافهم بالبيت، ومفاجأتهم بموقف قريش لمنعهم من الطواف، وحماستهم للجهاد والبيعة الإجماعية تحت الشجرة.. ثم شروط الصلح القاسية - كما تبدو في ظاهر الأمر - استرجع هذه الصور كلها.. ثم قال..

«وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ ويذوق طعم اللفظ وطعم العبارة، ويتصور الموقف يومئذٍ، ويعيش فيه مع هذه النصوص، ويحسّ بَرْد السكينة وسلامها في تلك القلوب.»[3].

واسترجع بحسّه وخياله مشاعر الغابرين الذين يشير إليهم قوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم...﴾[4] استرجع حركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم... ثم سكونهم الميت لا حسّ ولا حركة...[5]. واسترجع الأطياف الإيمانية المباركة عند بيت الله الحرام: طيف

---

(١) الظلال ١: ٥٦ وانظر نماذج أخرى في الظلال ٣: ١٢٩٧ و ٥: ٢٩٣٣ و ٥: ٣٢٢٣.
(٢) الفتح: ٤.
(٣) الظلال ٦: ٣٣١٨.
(٤) يوسف: ١٠٩.
(٥) انظر الظلال ٤: ٢٠٣٥.

إبراهيم الخليل - عليه السلام - وتتابع الأطياف حتى يصل إلى طيف محمد - ﷺ - ويتابع حياته في مكة وخطواته فيها[1].

رابعاً: تجربته العملية الناضجة:

كانت تجربة سيد قطب العملية الناضجة، في التطبيق العملي لنصوص القرآن وسيلة أساسية في فهم الآيات وتفسيرها. فقد خاض سيد بالقرآن تجربة حية، وجاهد به الجاهلية جهاداً مباركاً، وعاش في ظلاله حياة صادقة هانئة. وأطلعنا على طرف من هذا في الظلال.

بل إن لسيد قطب منهجاً فريداً في فهم القرآن والتعامل معه وتفسيره وفتح كنوزه. . حيث يصرح قائلاً: «إن هذا القرآن لا يتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة، ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل فيها ليواجهها ويوجهها»[2].

وكذلك ما صرح به - في خصائص التصور الإسلامي - بقوله: «فالقرآن لا يدركه حق إدراكه من يعيش خالي البال من مكابدة الجهد والجهاد لاستئناف حياة إسلامية حقيقية، ومن معاناة هذا الأمر العسير الشاق، وجرائره وتضحياته وآلامه، ومعاناة المشاعر المختلفة التي تصاحب تلك المكابدة في عالم الواقع. .»[3].

وحتى تتعمق تجربته العملية هذه، وتثرى وتغنى، فقد ذهب بحسّه وإحساسه. وخياله ومشاعره، وتصوره وكيانه - إلى واقع الجماعة المسلمة الأولى، في «جو» مكة وملابساته، و«جو» المدينة وملابساته، واعتبر هذا الذهاب ضرورياً لفهم القرآن وتفسيره، وجعل هذا هدفاً من أهداف الظلال، ومورداً مهماً من موارده - كما بينا فيما سبق - وأدرك أن هذا سمة أساسية في القرآن، أطلق عليها اسم «الواقعية الحركية»، واعتبرها مفتاح التعامل مع القرآن وفهمه وفقهه، وإدراك مراميه وأهدافه.

---

(١) الظلال ٤ : ٢٤١٩.

(٢) الظلال ٤ : ١٨٦٤.

(٣) خصائص التصور الإسلامي: ٧.

ولذلك صرح قائلاً: «إنه لا بدّ من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني.. لا بدّ من هذا لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته، ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي، ويواجه حالة واقعة، كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده...»[1].

إنه - على هَدْي تجربته العملية الحية، وبتوفيق الله عز وجل - أدرك مهمة القرآن الكريم العملية الحية، ووظيفته الحركية في الحياة الإسلامية، وأدرك طبيعة المعركة الحتمية بين الحركة الإسلامية وبين الجاهلية، ودوافعها وأسلحتها ورجالها.. لقد عايش نصوص القرآن معايشة حقيقية، وعاش في ظلالها حياة حقيقية، وفتح لنور القرآن مشاعره وكيانه، وسار على هديه في طريقه إلى الله عز وجل!!

وقد أوردنا أمثلة على نظرته الحركية إلى القرآن، وتجربته الحية الناضجة معه، في الفصلين السابقين «أهداف الظلال» و«موارد الظلال». ونضيف إليها ما يلي:

أطلعَنا على طرف من تجربته الحية الناضجة مع القرآن، وحياته الحركية في «جو القرآن» عندما دعا القارىء إلى أن يعيش في «جو القرآن».

وبيّن معنى هذا المصطلح، وكيفية الحياة في ذلك الجو بقوله: «والحياة في جو القرآن لا تعني مدارسة القرآن، وقراءته والإطلاع على علومه... إن هذا ليس «جو القرآن» الذي نعنيه.. إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن هو: أن يعيش الإنسان في جو، وفي ظروف، وفي حركة، وفي معاناة، وفي صراع، وفي اهتمامات كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن.. أن يعيش الإنسان في مواجهة هذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض اليوم. وفي قلبه، وفي همه، وفي حركته، أن ينشىء الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس، وفي حياته وفي حياة الناس، مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية.

---

(١) الظلال ٤: ٢١٢١ - ٢١٢٢.

بكل تصوراتها وكل اهتماماتها وكل تقاليدها، وكل واقعها العملي، وكل ضغطها كذلك عليه، وحربها له، ومناهضتها لعقيدته الربانية ومنهجه الرباني، وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة، بعد الكفاح والجهاد والإصرار. . »[1].

استوقفته قصة النعاس الذي غشي المسلمين يوم بدر، ولم يدرك حقيقته ولا أثره إلا بعد ما مر بتجربة شاقة غشيه فيها النعاس. . . . «ولقد كنت أمُرُّ على هذه الآيات وأقرأ أخبار هذا النعاس، فأدركه كحادث وقع، يعلم الله سره، ويحكي لنا خبره ثم إذا بي أقع في شدة، وتمر عليّ لحظات من الضيق المكتوم، والتوجس القلق، في ساعة غروب. . ثم تدركني سِنَة من النوم لا تتعدى بعض دقائق. . وأصحو إنساناً جديداً غير الذي كان. . ساكن النفس مطمئن القلب. . مستغرقاً في الطمأنينة الواثقة العميقة. . كيف تم هذا؟ كيف وقع هذا التحول المفاجىء؟ لست أدري! ولكني بعدها أدرك قصة بدر وأحد. أدركها هذه المرة بكياني كله لا بعقلي، وأستشعرها حية في حسّي لا مجرد تصور. وأرى فيها يد الله وهي تعمل عملها. . ويطمئن قلبي. . . »[2].

وقد عرض علينا بعضاً من مكاسبه من الحياة في ظلال القرآن، واستفادته من تجربته الحية العملية معه، وشيئاً مما خرج به من هذه التجربة الحية، عرض هذا في مقدمته للطبعة المنقحة من الظلال بعنوان «في ظلال القرآن»[3].

أنظر إلى حياته مع قوله تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده. . ﴾[4] وبيانه لأثرها البالغ على نفسه وكيانه في شدته. .[5].

---

(١) الظلال ٢: ١٠١٦ - ١٠١٧.
(٢) الظلال ٣: ١٤٨٤.
(٣) انظر هذه المقدمة: الظلال ١: ١١ - ١٨.
(٤) فاطر: ٢.
(٥) الظلال ٥: ٢٩٢٤.

وانظر كذلك محاولته استشراف اللحظات الإيمانية المباركة التي عاشها الصحابة أصحاب «بيعة الرضوان» يوم الحديبية، وتصور سعادتهم البالغة وهم يبلّغون رضوان الله عليهم.. استشرف هذا وتأثر به وانفعل.. وحاول أن يعيش معهم ـ بكيانه ومشاعره وأحاسيسه ـ لحظات....[1].

وانظر تجربته الشعورية الخاصة مع سورة النجم، وانفعاله البالغ بها، ومحاولته ـ على هذا الضوء ـ أن يعلل سجود المشركين مع المسلمين تعليلاً صائباً[2]...

وأخيراً نحيل على رسالتيه العجيبتين اللتين بعث بهما ـ من سجنه ـ إلى صديقه أحمد عبد الغفور عطار، والذي يشير فيهما إلى طرف من تجربته العملية الناضجة في سجنه، وحالته الإيمانية الرفيعة فيه، وحياته المباركة مع القرآن وتصوراته ومناهجه ومبادئه[3]...

خامساً: أسلوبه الأدبي البليغ وعرضه الحي في التفسير:

من المتفق عليه أن سيد قطب حباه الله موهبة أدبية عالية، وأسلوباً أدبياً بليغاً. وأنه استخدم هذا وسيلة في التفسير، فجاء «قالباً» عاماً عرض فيه ما يريد من أفكار وآراء ونظرات ومناهج عرضاً مؤثراً...

والظلال كله يصلح مثالاً لهذا، وهذا من أسباب القبول الذي كتبه الله للظلال بين المسلمين المعاصرين. وأعتقد أن موهبة سيد قطب الأدبية وأسلوبه المؤثر كان «إرهاصاً» له لدخول عالم القرآن الرحيب، واستخراج كنوزه المذخورة، وعرْضها على الناس بهذه الوسيلة المحببة! وشتان بين قراءتك تفسيراً ـ قديماً أو معاصراً ـ لأديب موهوب وقراءتك تفسيراً لفقيه أو فيلسوف أو متكلم، إن إقبالك يكون على الأول وتقديمك له على غيره، وتأثرك به، وسيرك معه شبه مسحور، وهذا ما يجده قارىء الظلال.

---

(١) الظلال ٦: ٣٣٢٥ ـ ٣٣٢٦. و ٦: ٣٣٣٣.

(٢) الظلال ٦: ٣٤١٩ ـ ٣٤٢١ وانظر أمثلة أخرى في الظلال ١: ٢٢٣. و٢: ٧٥٨ و٢: ١١٠٥ ـ ١١٠٧. و٤: ٢٠٣٨ و٦: ٣٣٥١ ـ ٣٣٥٣. و٦: ٣٥٥٣ ـ ٣٥٥٤.

(٣) انظرهما في هذا البحث: مبحث «الظلال في مراحل تأليفه».

لمـا تحدث عن المشقة في تبليغ الدعوة إلى الناس، وصنّف فئات أعداء الدعوة الذين يواجهونها، أورد فقرة أدبية رائعة في تصنيفهم فقال: «والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ من ثم ـ تكليف ليس بالهين ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم، وفيهم الجبار الغاشم. وفيهم الحاكم المتسلط. وفيهم الهابط الذي يكره الصعود. وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد. وفيهم المنحل الذي يكره الجد، وفيهم الظالم الـذي يكره العـدل. وفيهم المنحرف الـذي يكره الاستقـامـة. . . وفيهم وفيهم. . ممن ينكـرون المعـروف، ويعـرفـون المنكر. .»[1].

ووقف وقفة أدبية عند الفعل «أفضى» وحذْف معموله في قوله تعالى: ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض. . ﴾[2] فقال: «ويَدَع الفعل «أفضى» بلا مفعول محدد يدع اللفظ مطلقاً، يشع كل معانيه، ويلقي كل ظلاله، ويسكب كل إيحاءاته. ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته. بل يشمل العواطف والمشاعر، والوجدانات والتصورات، والأسرار والهموم. والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب. . يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتهما فترة من الزمان. . وفي كل اختلاجة حب إفضاء. وفي كل نظرة ود إفضاء، وفي كل لمسة جسم إفضاء. وفي كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء. وفي كل تفكر في حاضـر أو مستقبل إفضاء. وفي كل شوق إلى خَلَف إفضاء. وفي كل التقاء في وليد إفضاء. . . كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداء والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحي العجيب. . .»[3].

---

(١) الظلال ١: ٤٤٤.

(٢) النساء: ٢١.

(٣) الظلال ١: ٦٠٦ ـ ٦٠٧

وعرض ـ بأسلوبه الأدبي الساحر ـ بعضاً من مظاهر الجمال الأخاذ في الكون الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح. . . ﴾[1].

فقال: «ومشهد النجوم في السماء جميل، ما في هذا شك. جميل جمالاً يأخذ بالقلوب. وهو جمال متجدد، تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته، ويختلف من صباح إلى سماء، ومن شروق إلى غروب، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء، ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب. بل إنه يختلف من ساعة إلى ساعة. ومن مرصد لمرصد، ومن زاوية لزاوية. . وكله جمال. . وكله يأخذ بالألباب. . .

هذه النجمة الفريدة التي تُوَصْوِص هناك، وكأنها عين جميلة، تلمع بالمحبة والنداء!

وهاتان النجمتان المنفردتان هناك، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان!

وهذه المجموعات المتضامنة المتناثرة هنا وهناك، وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء. وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان!

وهذا القمر الحالم الساهي ليلة. والزاهي المزهو ليلة. والمنكسر الخفيض ليلة. والوليد المتفتح للحياة ليلة. والفاني الذي يدلف للفناء ليلة!

وهذا الفضاء الوسيع الذي لا يمل البصر امتداده، ولا يبلغ البصر آماده. .

إنه الجمال. . الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه، ولكن لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ والعبارات»[2].

بهذه المشاعر والأحاسيس كان يستقبل إيحاءات القرآن، وبهذه العبارات البليغة الساحرة كان يعرض ما يحسّه وما يجده وما يتذوقه منها،

---

(١) الملك: ٥.

(٢) الظلال ٦: ٣٦٣٣ ـ ٣٦٣٤.

وبهذه الموهبة الأدبية السامقة كان يفسر تلك النصوص ويقدمها للقراء... وبعد ذلك لا يجد الألفاظ والعبارات التي تستوعب ما يجده، وتصفه وصفاً شاملاً حياً - مع تمكنه منها، وانقيادها له -!!! فأية حياة عملية حية تلك التي كان يعيشها مع نصوص القرآن؟ وأية تجربة شاملة ناضجة عاشها معه[1]؟.

سادساً: حاضر العالم المعاصر: الجاهلي والإسلامي والحركة الإسلامية:

نظر سيد قطب في العالم المعاصر وأحداثه نظرة إسلامية، حيث استعمل منظار القرآن الكريم وميزانه، في رؤية حاضر هذا العالم وتحليل واقعه.

وكانت رؤيته هذه، وتحليله هذا وسيلة استعان بها في التفسير، حيث كان يعطي النصوص بُعْداً معاصراً، ويحرص على شمولها للواقع المعاصر، وعلى بيان صدق انطباق النصوص عليه، وهذا مما أضفى على الظلال حياة وحيوية واضحة، يلحظها كل مطلع عليه[2].

كان في هذا الموضوع يؤمن بالنص القرآني إيماناً مطلقاً، ويُخضّع الواقع المعاصر له وليس العكس - كما فعل بعض الكُتاب المعاصرين! ويبين كيفية شموله لهذا الواقع، وكان يوفق بين ظواهر هذا الواقع المخالفة لمدلول الآيات وبين دلالة الآيات الصريحة، يتعمق هذه الظواهر - الخادعة في ظاهرها - وتسجيل حقيقتها الموافقة لمعاني الآيات[3]..

أكثر من الحديث عن حاضر العالم الجاهلي المعاصر، وبيّن الارتباط العضوي بينه وبين أسلافه من الجاهليات القديمة[4]، وحلله تحليلاً قرآنياً

---

(١) انظر أمثلة أخرى في الظلال ٤: ٢٠٤٨ - ٢٠٤٩. و ٥: ٢٨٩١ - ٢٨٩٢. ٥: ٣٢٢٢. و ٥: ٣١٧ - ٣١٧١.

(٢) انظر الظلال ١: ٢٢٧ - ٢٢٨. و ٢: ٧٤١ - ٧٤٢. و ٥: ٢٨٧٨.

(٣) الظلال ٢: ٧٨٢ - ٧٨٣. و ٣: ١٣٣٨ - ١٣٣٩. و ٤: ١٨٩٧ - ١٨٩٨. و ٥: ٣٠٨٢ - ٣٠٨٦.

(٤) الظلال ٣: ١٣٥٠. و ٤: ١٩١٩. و ٥: ٣٠٧٨.

صائباً، وأخضعه لسنن الله التي حلت به، أو التي ستحل به لا محالة[1].

كما أكثر من الحديث عن حاضر العالم الإسلامي، وقضايا المسلمين المعاصرة ومشكلاتهم ومجتمعاتهم، وعالج أمراضهم وانحرافاتهم، وتعمق واقعهم ومناهجهم ومظاهر حياتهم، وأبان عن سر تخلفهم وضعفهم وذلهم وتداعي الجاهلية عليهم، وطبق دلالة الآيات ـ المعاصرة ـ عليهم، ورسم لهم الطريق الموصل إلى بر الأمان والعزة والكرامة. وجنة الله ورحمته ورضوانه[2]. .

كذلك تحدث عن واقع الحركة الإسلامية المعاصرة، حدد لها منهجها في الحركة والعمل والجهاد، وأطلعها على طبيعة المعركة مع أعدائها وملامح الأعداء وأساليبهم وأسلحتهم، وتضع أيديها على عدة النصر وزاد الطريق، ورسم لها معالم الطريق وعقباته وطبيعته وغايته. . وأشار إلى الحرب الشرسة التي أعلنتها الجاهلية عليها، وإلى طرف من محنتها القاسية الأليمة في سجون الطغاة. . . وكان في هذا كله يستعمل منظار القرآن الكريم ـ الحركي المعجز ـ ويسير على نور آياته، ويتحرك من خلال دلالاته وإيحاءاته[3].

سابعاً: أخباره الشخصية:

استعان سيد قطب ـ فيما استعان به في التفسير ـ بأخباره الشخصية، وحوادث خاصة وقعت له أو شاهدها بعينيه.

وفي الظلال إشارات شتى في مواضع متفرقة لهذه الأخبار والأحداث والحوادث والمشاهدات، وقد كان سيد قطب يورد هذه الأخبار إما لتوسيع مدلول النص القرآني ليبين انطباقه على الواقع المعاصر، أو لبيان انطباق السنن الإلٓهية على الواقع الذي شاهده. أو لبيان نظرته إلى الكون والحياة

(١) الظلال ٢: ٦٣٢ ـ ٦٣٧. و١٠٩١ ـ ١٠٩٢. و٣: ١٣١٥ ـ ١٣١٦.
(٢) الظلال ٢: ١٠٣٢ ـ ١٠٣٤. و٣: ١٦٠٩ ـ ١٦١٠ و٤: ٢٠٠٦ ـ ٢٠١٣.
(٣) الظلال ٢: ١٠٠٤ ـ ١٠١٧. و١١٠٥ ـ ١١٠٧. و٣: ١٥٧٧ ـ ١٥٧٨. و٤: ١٨٩٢ ـ ١٨٩٤.

وتذوقه لنعم الله، أو لتصوير نماذج إنسانية شاهدها، أو لتسجيل ظواهر خاصة في المجتمعات التي عاش فيها.

فعند حديثه عن الفُلك التي تجري في البحر بنعمة الله، وقدر الله الذي يُسيرها وسط الأمواج.. أشار إلى تفسير واقعي لهذا عندما ركب سفينة نقلته من مصر إلى أمريكا ـ عام ١٩٤٨ م ـ وأحاسيسه وهو داخلها وسط الموج المتلاطم[1].

ولما كان يتحدث عن سنة إلّهية أشار إليها قوله تعالى: ﴿ فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء. حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون.. ﴾[2] أشار إلى ما شاهده ـ بأم عينيه ـ في المجتمع الأمريكي المعاصر، من ظواهر وأحداث ومشاهدات وحقائق، تُبيّن صدق انطباقَ هذه السنة الإلّهية عليهم هناك. وكان يرى خطوات هذه السنة تدب إليهم وهم غافلون.

ونظراً لأهمية فقرته تلك، ودلالتها على واقع أمريكا ـ التي تتحكم في العامل كله الآن ولسان حالها يقول «من أشد منا قوة....» ـ ونظراً لتوقع سيد النهاية الوشيكة لهذه القوة الغاشمة؛ فإنني أورد كلامه هنا: «ولقد كنت ـ في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية ـ أرى رأي العين مصداق قول الله سبحانه ﴿ فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾. ـ فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية.. مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب!.. لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك!.

وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه، وشعورهم بأنه وَقْف على الرجل الأبيض «وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مرذولة، وفي وحشية كذلك بشعة! وفي صلف على أهل الأرض كلهم لا يقاس إليه صلف النازية الذي شهِّر به اليهود في الأرض كلها حتى صار عَلَماً على الصلف

---

(١) الظلال ١: ١٥٢.

(٢) الأنعام: ٤٤.

العنصري. بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد وأقسى! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين...

كنت أرى هذا كله، فأذكر هذه الآية. وأتوقع سنة الله، وأكاد أرى خطواتها وهي تَدِب إلى الغافلين...»[١].

وعندما كان يتحدث عن النعاس كجندي من جنود الله إلى أهل بدر، أشار إلى أثر هذا الجندي الرباني عندما غشيه في لحظة، بعد لحظات ضيق وشدة، وكيف تبدل إنساناً جديداً[٢]..

وعندما تحدث عن الإعجاز في التأثير ـ كوجه من وجوه إعجاز القرآن ـ وبيّن تأثير القرآن العجيب الساحر في مختلف القلوب، أشار إلى قصته مع المرأة اليوغوسلافية التي تأثرت بآيات القرآن ـ إلى درجة البكاء ـ التي سمعتها من سيد قطب عندما أقام شعائر صلاة الجمعة بالمسلمين المسافرين معه على ظهر السفينة وهو في طريقه إلى أمريكا ـ عام ١٩٤٨[٣] ـ وأشار أيضاً إلى صورة من تأثيره فيه هو أثناء سماعه سورة النجم[٤].

وعندما تحدث عن الأحلام والرؤى ـ أثناء تفسيره لرؤيا يوسف عليه السلام ـ أشار إلى رؤيا خاصة رآها وهو في أمريكا لأحد أفراد أسرته في مصر، وكان الأمر كما رأى[٥].

كما أشار إلى تذوقه لنعم الله عليه، وتأثره بها، وتوجهه بالشكر الجميل الجزيل إلى الله عليها[٦]..

وإلى حادثة من حياته ـ في سجنه ـ مع نصوص القرآن، وانغماسه في

---

(١) الظلال ٢: ١٠٩١.
(٢) أنظر الظلال ٣: ١٤٨٤.
(٣) الظلال ٣: ١٧٨٦.
(٤) الظلال ٦: ٣٤٢٠ ـ ٣٤٢١.
(٥) الظلال ٤: ١٩٧٢.
(٦) الظلال ٥: ٢٨٩٩.

فيوضات رحمة الله التي فتحها الله عليه، وما أحدثته من آثار إيمانية سامية في كيانه كله[1].

وهناك إشارات أخرى - غير ما ذكرنا - نحيل على بعض منها في مواضعها من الظلال[2].

ثامناً: التصوير الفني في القرآن:

لسيد قطب نظرية خاصة فريدة في التصوير الفني في القرآن، أعددنا لها دراسة شاملة[3]. وقد كان من بين أهدافه من تفسير الظلال عرض هذه الصور والمشاهد الفنية في القرآن - كما بينا في فصل «أهداف الظلال» من هذا البحث[4].

لذلك وقف سيد قطب وقفات أمام صور القرآن المعجزة الكثيرة فيه، وبيّن ما فيها من فن وجمال، وكانت هذه الصور واستلهامها وتذوقها، وسيلة استعان بها في التفسير.

ولا أرى حاجة تدعو إلى إيراد أمثلة ونماذج لهذه الوسيلة، وبخاصة إذا عرفنا أن التصوير هو القاعدة العامة في التعبير القرآني، وأن القرآن عرض ثلاثة أرباع موضوعاته بطريقة التصوير، وأن سيد قطب وقف عند هذه الصور - الكثيرة - وفسرها في الظلال، ولذلك فالظلال اشتمل على العديد من هذه الوقفات[5]!!

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٢٤.

(٢) انظر بعضها في الظلال ٢: ١١٣٢. و ٣: ١٣٩٨. و ٣: ١٤٢٢ - ١٤٢٣. و ٣: ٢٠٣٨. و ٤: ٢٥١١.

(٣) هو كتاب «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب».

(٤) انظر فصل «أهداف الظلال» من هذا الكتاب.

(٥) انظر - إن شئت - الظلال ١: ٩١. و ١: ٢٤٥ و ٢: ٨٥٢. و ٢: ١١١١ - ١١١٣. و ٣: ١٢٩٧. و ٤: ٢١٥٤. و ٥: ٢٧٩٥. و ٦: ٣٨٤١ - ٣٨٤٢.

الفصل السادس

الظلال

نقلة بعيدة في التفسير

الظلال تفسير معاصر، أقبل عليه المسلمون إقبالاً لا مثيل له، وكتب الله له قبولاً فريداً، وشهرة واسعة، واحتل مكانة سامية مرموقة عندهم، وهذا لم يتوفر لأي تفسير آخر في القديم والحديث، لأنهم وجدوا فيه طلبتهم، حيث لبى حاجاتهم، ووضع أيديهم على مفتاح التعامل مع القرآن!!.

لقد انتقل سيد قطب بالتفسير -في الظلال - نقلة جديدة بعيدة! وسار فيها على منهج خاص وطريقة فريدة، تجاوز فيهما التفاسير السابقة - على اختلاف ألوانها - إلى عالم القرآن الرحيب، وإلى سيرة الرسول - ﷺ - وحياة أصحابه اللذَيْن يعتبران مادة أصيلة صادقة.

ولذلك لا يعتبر الظلال تفسيراً فقط، ولا تفسيراً معاصراً فقط، وإنما هو تفسير، ومنهج تربية، وكتاب دعوة، وبيان للطريق، ودليل عملي مكتوب إلى الشخصية الإسلامية والحياة الإسلامية، وهذا ما لا نجده في التفاسير الأخرى - القديمة والمعاصرة - وإن اختلافه في هذا عن تلك التفاسير، مزية من مزاياه، وفضيلة تحسب له، لا مأخذاً يؤخذ عليه، أو مطعناً يوجه إليه، كما يفعل بعض محدودي الثقافة القرآنية، أو قاصري النظر من المعاصرين!!

بعضهم لا يعتبر الظلال تفسيراً للقرآن ولا يجيز أن يسمى تفسيراً، لأنه يختلف عن التفاسير المكتوبة، في الموضوعات القرآنية التي طرقتها، والقضايا الثقافية التي ناقشتها، فقد أَلِفَ هذا البعض طريقة واحدة، وثقافة عامة، وطَرْقا لموضوعات التفسير «التقليدية» المعروفة - من مباحث علوم

القرآن أو علوم الثقافة الإسلامية: من فقه وأصول وجدل وخلاف وفرق. وغير ذلك.

هذا هو ما تقدمه التفاسير إليهم، ولهذا ارتبط معنى التفسير عندهم بهذا الزاد وهذه المعلومات، وطالما أن الظلال يختلف في تناوله لهذه الموضوعات - وفي طبيعته وهدفه ومنهجه - عن تلك التفاسير، فهو - إذن - ليس تفسيراً ولا يمكن أن يسمى تفسيراً، وإنما هو مجموعة من العواطف الجياشة، والمشاعر الحارة، والخواطر السريعة، والوقفات والآراء الشخصية، والكلام الأدبي - غير العلمي - والأفكار الخاصة، وهذه الأمور التي وضعها سيد قطب في ظلاله، لا تجعل منه مفسراً، ولا تجعل من ظلاله تفسيراً!

هذه نظرة سطحية خاطئة للظلال، وهذا حكم ظالم - جاهل - عليه وعلى صاحبه، وهذا فهم ساذج - تقليدي - للتفسير والتفاسير! وعجيب بمن يفهم هذا أن يتصدى للقول في التفسير، أو الحكم على مفسرين، وتقويم مناهجهم!!!.

ولهذا نحن مع الدكتور عدنان زرزور في ملاحظته عن الظلال والتفاسير. فالظلال «ليس دليلاً ثقافياً لعلوم القرآن أو علوم التفسير، أو علوم الثقافة الإسلامية من فقه وأصول وتاريخ جدل أو خلاف! ومن ظن أن هذا هو تعريف «التفسير» أو أن تقديم ذلك الدليل الثقافي يجب أن يكون مهمة جميع المفسرين في جميع العصور، فليَعُد على معلوماته بالمراجعة والتحليل، وليعد إلى الغرض الأساسي أو الأول من نزول القرآن الكريم بالنظر والتأمل...»[1].

ونحن أيضاً مع أستاذنا الدكتور أحمد فرحات في قوله عن الظلال: «إني لأشفق على الظلال أن يكون كتاباً في التفسير، ذلك أن الغاية التي يهدف إليها أكبر بكثير من مجرد المعرفة النظرية الباردة لمعاني الآيات القرآنية، والتي يتسع الجدل فيها حول مسائل اللغة والكلام والفلسفة والفقه

---

(١) علوم القرآن للدكتور زرزور: ٤٢٦ - ٤٢٧.

والتاريخ، وهذه أمور علمية محض، حيث إن علم التفسير يستطيع أن يبين لنا وجه الحق فيما يعتقده المؤمنون، ولكن هذا الحق لن تكون له علاقة بالواقع إلا في المجال الفكري، وهي علاقة نظرية خالصة بين الحياة والعلم.

أما الغاية التي يهدف إليها الظلال فهي: أن يعيد القرآن حياً في نفوس الناس، يصوغهم صياغة جديدة، وينقلهم من مجتمع الجاهلية إلى مجتمع الإسلام، فيسمهم بميسم الحق، ويطبعهم بطابع الهدى، ويصبغهم بصبغة الله...»[1].

وظن بعضهم أن سيد قطب ـ نفسه ـ لم يعتبر الظلال تفسيراً للقرآن، لأنه أطلق عليه إسم «في ظلال القرآن» حيث سجل فيه خواطره حول نصوص القرآن، ولو كان يعتبره تفسيراً لأطلق عليه إسماً آخر!!!.

وهذا ظن خاطىء يقوم على وهم خادع، فكل مفسر يختار لتفسيره عنواناً يراه مناسباً.

فها هو الإمام الرازي يطلق على تفسيره اسم «مفاتيح الغيب» وها هو القمي النيسابوري يسميه (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) وها هو ابن العربي يسميه (قانون التأويل) وها هو برهان الدين البقاعي يسميه (نظم الدرر في تناسب الآي والسور). ومع ذلك اعتبر العلماء كتبهم تفاسير للقرآن.

واعتقد أن سيد قطب كان ملهماً باختياره هذا العنوان، لأنه صادق الدلالة على طبيعة التفسير، وعلى طريقته وأهدافه، وعلى حياة سيد العملية الواقعية في ظلال نصوص القرآن، وعلى نظريته الفريدة حول دور الصور والظلال ودلالاتهما في فهم نصوص القرآن وتذوقها وتفسيرها.

وقد عقدنا فصلاً خاصاً في هذا الكتاب حول هذا العنوان المثير الموحي «في ظلال القرآن»[2].

---

(١) حضارة الإسلام. السنة السابعة. العدد الثامن، كانون ثاني ١٩٦٧: صفحة: ٥٦.
(٢) انظر فصل (في ظلال القرآن: لماذا هذا العنوان؟).

سيد قطب يعتبر ظلاله تفسيراً للقرآن:

إن سيد قطب يعتبر ظلاله تفسيراً للقرآن ـ ولكن ليس بالمعنى التقليدي المعروف لكلمة تفسير ـ ويورد هذا بالنص.

ففي تفسير سورة القصص أحال على تفسيره لسورة طه، وعدّل قولاً له في تفسيرها، وقال في مقدمة الإحالة: (سبق أن قلت في تفسير سورة طه..)[1].

وفي تفسير سورة السجدة أحال على تفسيره لآية من سورة الفرقان فقال: (يراجع تفسير قوله تعالى: ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً.. ﴾)[2].

وفي تفسيره سورة الإنسان، أحال على تفسيره لسورة القلم فقال: (يراجع في هذا الجزء تفسير سورة القلم ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون.. ﴾)[3].

وفي الطبعة المنقحة نجد إحالات مماثلة يعتبر فيها ـ بالنص ـ ظلاله تفسيراً للقرآن. ففي تفسيره لسورة المائدة وأثناء إشارته إلى عداوة اليهود للمسلمين أحال على تفسيره لإشارات القرآن وتقريراته عنها: (يراجع جانب من هذه الإشارات والتقريرات وتفسيرها في ظلال القرآن في الصفحات التالية..)[4].

وفي تفسيره لسورة الأعراف ـ في الطبعة المنقحة ـ وأثناء حديثه عن السنن الإلّهية في الكون والحياة.. وإدراك العلماء المعاصرين ـ الكافرين ـ بأنه لا آلية في نظام هذا الكون، أحال على تفسيره لسورة الأنعام فقال: (يراجع ما جاء في الجزء السابع من هذه الطبعة المنقحة في هذه الظلال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو... ﴾)[5].

---

(١) الظلال ٥: ٢٦٧٤.
(٢) الظلال ٥: ٢٨٠٥.
(٣) الظلال ٦: ٣٧٨٤.
(٤) الظلال ٢: ٩٦٠.
(٥) الظلال ٣: ١٣٨٤.

وهناك مواضع أخرى فيها إحالات لسيد، ينص فيها على أن ما قام به في الظلال إنما هو تفسير لآيات القرآن[1].

وأحياناً يطلق على عمله في الظلال «ترجمة» للناس عن هذا القرآن . . ففي تقديمه لسورة الرعد أشار إلى تحرجه وتهيبه من تفسير النصوص (كثيراً ما أقف أمام النصوص القرآنية وقفة المتهيب أن أمسها بأسلوبي البشري القاصر، المتحرج أن أشوبها بتعبيري البشري الفاني! . . وهذه السورة كلها ـ شأنها شأن سورة الأنعام من قبلها ـ من بين هذه النماذج التي لا أكاد أجرؤ على مسها بتفسير أو إيضاح . . . .).

وبيّن أن السبب في هذا التحرج وهذا التهيب، هو إحساسه بالفجوة الهائلة بين ما يستشعره من النصوص وما يترجمه عنها. (ومع هذا كله يصيبني رهبة ورعشة كلما تصديت للترجمة عن هذا القرآن! إن إيقاع هذا القرآن المباشر في حسّي محال أن أترجمه في ألفاظي وتعبيراتي. ومن ثم أحسّ دائماً بالفجوة الهائلة بين ما أستشعره منه، وما أترجمه للناس في هذه «الظلال»)[2]

من هذه النصوص، يتبين لنا أن سيد قطب يعتبر ظلاله تفسيراً، وأنه لون جديد ـ فريد ـ من ألوان التفسير، ونحن نعتبره كذلك هذا الاعتبار، بل نعتبره «نقلة جديدة بعيدة» في التفسير، انتقل صاحبه بالتفسير ـ من خلاله ـ وارتفع به إلى مكانة سامية فريدة مرموقة. وفتح الباب أمام كنوز للقرآن لم تكتشف من قبل، واعتبر صاحبه به (مجدداً) في جوانب شتى من جوانب التفسير!!!

وحتى نقيم الدليل على صدق هذه الدعوى، وحتى يتبين لنا صحة هذا الادعاء، فلا بدّ أن نمر ـ مروراً سريعاً جداً ـ على أغراض القرآن الأساسية، وعلى فهم الصحابة ـ الفريد ـ للقرآن وتفسيره، وعلى تطور حركة التفسير،

---

(١) انظر الظلال ٢: ٨٢٤ و ٨٤٥ و٨٦٣ و١٠٩٨ و٣: ١٣٨٨ و ١٤١٠ و ١٧٨٩.
(٢) الظلال ٤: ٢٠٣٨.

حتى وصلت إلى سيد قطب، وعلى شروط لا بدّ من توافرها في التفسير المأمول، ومن ثم نبين مكانة الظلال بين كتب التفسير، ومنزلة سيد قطب بين المفسرين، وبخاصة في هذه النقلة البعيدة في الظلال.

الدكتور عدنان زرزور (يصنف) الظلال بين كتب التفسير:

وأحسن ما قرأت في بيان هذا كله، مقالاً للدكتور عدنان زرزور نشره في مجلة (حضارة الإسلام) الدمشقية - في العدد الأول من السنة العشرين - وأعاد نشره في كتابه (علوم القرآن: مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه..).

وسوف أعتمد على كلامه في بيان ذلك:

إن الغرض الأساسي للقرآن الكريم هو غرض تربوي عملي جهادي، وليس غرضاً تثقيفياً نظرياً. وإنه يكاد ينحصر في (إقامة الشخصية الإسلامية، وبناء أمة لها خصائصها ومميزاتها، وإنشاء جيل على قواعد من التربية الربانية تجعله صورة ناطقة عن الحق الذي نزل به القرآن.. ليكون بذلك خير أمة أخرجت للناس..)[(١)].

وقد نجح القرآن الكريم في تحقيق هذا الغرض في جيل الصحابة الكرام، حيث كان ذلك الجيل ممثلاً فيه الهدف العملي للقرآن، فجاء صورة ناطقة لمبادىء القرآن وصار جيلاً قرآنياً فريداً[(٢)].

وكان الصحابة يدركون هذه السمة للقرآن - التي أطلق عليها سيد (الواقعية الحركية)[(٣)] ولذلك انصرفت هممهم إلى تحقيق مبادىء القرآن عملياً، واستلهام روحه العامة، والعمل بموجبها، ولهذا يقول أنس بن مالك - رضي الله عنه - مبيناً منهج الصحابة في تلقي القرآن (كنا إذا نزلت علينا

---

(١) علوم القرآن: ٤٢١.
(٢) المرجع السابق ٤١٧. وانظر فصل (جيل قرآني فريد) من كتاب معالم في الطريق.
(٣) الظلال ٤: ٢١٢١.

الآيـات لم نتجـاوزهـا حتى نعمـل بمـا فيهـا، فتعلمنـا العلم والعمـل جميعاً . .)[1].

ولعل هذا من جملة الأسباب التي دعتهم إلى عدم التوسع في التفسير النظري، وعدم الإكثار من البحث في موضوعات علوم القـرآن والتفسير المختلفة، ومن ثم عدم الاعتناء بتدوين التفاسير المطولة للقرآن الكريم. لأنهم كانوا مشغولين بجمال العمل والتنفيذ عن جمال البحث والتأويل!!.

وصنيعهم هذا ناتج عن مزيد علمهم بكتاب الله، من حيث الفهم الصحيح والمتكامل لكتاب الله.

وبما أن ما نقل عنهم من تفسير القرآن لا يتجاوز عدداً قليلاً من الروايات المأثورة، التي لا تعدو أن تكون تفسيراً للغريب أو بياناً لسبب النزول، فيجب أن نتوسع في فهم التفسير في عصرهم! يجب أن نبحث عن التفسير في أقوالهم ورواياتهم، وفي حياتهم وسلوكهم، وفي تمثلهم العملي الواقعي اليومي لنصوص القرآن!! ويجب أن نبحث عن التفسير ـ بصورة أوسع ـ في سيرة الرسول ـ ﷺ ـ وخلقه وحياته ومواقفه، وتربيته لأصحابه، فالتفسير بالمأثور هو: ما أثر عن النبي ـ ﷺ ـ والصحابة والتابعين، في تفسير القرآن الكريم. وما أثر عنهم ـ بهذا المفهوم (لا ينبغي أن يكون مقصوراً على الأقوال، بل يجب أن يتعداه ـ أو يسبقه ـ إلى السلوك والأعمال.)[2].

ومع تطور حركة التفسير ـ بعد عصر التابعين ـ صار المفسرون يتوسعون في بحث موضوعات علوم القرآن والتفسير، وصار هدفهم (تثقيف) المسلم! بتقديم زاد ثقافي موسع وشامل في الموضوعات الإسلامية المختلفة، من فقه أو خلاف، أو فلسفة وكلام، أو سيرة ومأثور. . . ومن ثم صارت التفاسير

---

(١) علوم القرآن: ٤١٧ وانظر كتاب (حياة الصحابة) مبحث (تعلم الإيمان والعلم والعمل معاً) ٣: ٦٦٣ ـ ٦٦٤ ومبحث (كيف كانت الصحابة تتعلم الآيات من القرآن فلا يجاوزونها حتى يتعلموا العمل بها) ٣: ٦٦٤ ـ ٦٦٥.

(٢) علوم القرآن لزرزور: ٤١٩.

المكتـوبة تبتعـد تدريجياً عن الأغراض الأسـاسيـة للقـرآن إلى التثقيف والموسوعية، والتقصي والاستطراد!!!.

ولا يعتبر اتجاهها إلى التثقيف النظري، والابتعاد عن تحقيق الأغراض الأساسية للقرآن، لا يعتبر هذا انحرافاً بالتفسير، ومطعناً يوجه إلى أصحابه، لأنه علينا (أن نتذكر البيئة التي كان يعيش فيها هؤلاء المفسرون الأعلام، والجو الذي كانوا يتنسمونه وينطلقون فيه، لأن الجزء الذي أغفلوه من ذلك الغرض الأساسي كان متحققاً من حولهم في مجتمع إسلامي، وشريعـة حاكمة، وسلطان. . . ولهذا كان هَمُّ المفسرين القدامى مصروفاً إلى «تثقيف» المسلم، وتقديم القدر الذي يتمكن فيه المفسـر، من العلوم والمعارف اللغـويـة والتـاريخيـة ونحـوهـا لقـارىء التفسيـر، وبخـاصـة الأحكـام الشرعية. . .)[1].

واستمرت حركة التفسير في سيرها، ونشأت مدارس في التفسير، وظهرت الفرق المختلفة بين المسلمين، واتجهت كل فرقة إلى القرآن تدعم آراءها وأقوالها وأفكارها!! وصارت هذه الآراء والأقوال والأفكار حجة على القرآن ـ لأن الفرق تعاملت مع النص القرآني بمقررات فكرية مسبقة ـ لا العكس!!.

كذلك تضخمت التفاسير ببحث الموضوعـات المختلفة، وتسـربت الأساطير والإسرائيليات إليها، ومن ثم حجبت نور القرآن وإيحاءاته عن القارىء، بالإضافة إلى اتجاه المفسرين في القرون المتأخرة إلى النقل عن التفاسير السابقة، وسيطرة التقليد والمحاكاة عليهم.

وجاء العصر الحديث باكتشافاته وحوادثه ومآسيه، وهمومه وأحزانـه ومفاجآته، ومشكلاته في بلاد المسلمين ومجتمعاتهم وشخصياتهم ومشاعرهم وتصوراتهم. . .

ولم تعد التفاسير القديمة ـ على علمية بعضها وأهميتها ومكانتها ـ تلبي

---

(١) علوم القرآن لزرزور: ٤٢١.

الحاجات الطارئة، وتعالج الأحداث المعاصرة، التي لم يتخيلها خيال السابقين الذين عاشوا في ظلال الإسلام!!

ولهذا كان لا بدّ من اتجاه المعاصرين إلى كتابة تفاسير معاصرة للقرآن، فظهر الكثير من التفاسير المعاصرة ـ وقد أعطينا لمحة موجزة عنها في الفصل الأول ـ ولكن أصحابها ـ رغم حسن نيّة الكثيرين منهم ـ وقعوا في أخطاء وتقصيرات، وأخذت عليهم ملاحظات منهجية..

ولهذا كانت الحاجة ما تزال ماسة لكتابة تفسير معاصر، ينجح صاحبه في دخول عالم القرآن الرحيب والحياة العملية في ظلاله، ويدخل به معركته الميدانية مع الجاهلية المعاصرة، ويعمل على تربية وتوجيه المسلمين المجاهدين[1]...

الظلال وشروط التفسير المأمول:

وضع الدكتور عدنان زرزور ـ أثناء حديثه عن الظلال ـ شروطاً جوهرية منهجية ثلاثة لا بدّ من توفرها في تفسير معاصر ليؤدي المهمة المرجوة، ويسد الثغرة الموجودة، ويلبي الحاجات القائمة!

الأول: (انطلاقه ـ أو ملاحظته ـ للغرض الأساسي الذي نزل القرآن الكريم من أجله... بما يتناسب ـ في هذا العصر ـ مع غياب المجتمع الإسلامي، والدولة الإسلامية... بل بما يذكر بظروف نشأة الإسلام الأولى... وبحيث لا يكون الانطلاق من فكرة تقديم زاد ثقافي للمسلم، بل إعادة صياغته ـ وفقاً لمنهج كتاب الله ـ من جديد..).

الثاني: (تسجيله لمعاني القرآن التي فهمها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ واستلهموها، وعاشوا تطبيقها العمليَّ الواقعي، الذي لم يعرف تفريقاً

---

(١) انظر حديثنا عن مدى الحاجة إلى تفسير معاصر، والمهمة التي سيقوم بها في نهاية الفصل الأول من هذا الكتاب.

بين النظرية والتطبيق - كما يقال - والتي يمكن الاهتداء إليها في ضوء اختلاف التنوع فيما أثر عنهم من كلام مكتوب، وفي ضوء الاهتمامات العملية لحركة المجتمع في مواجهة أعدائه. . .).

الثالث: (محاولته تجاوز عصر الخلاف، أو عصر المذهبية الفكرية في تفسير القرآن - التي وقعت في خطأ المقرر الفكري المسبق - وذلك خضوعاً للمدلولات القرآنية المباشرة، أو بصورة مباشرة، على ما يحتاج إليه هذا الأمر من ثقافة واسعة، وحسّ مرهف، وتمكن علمي، يؤهل صاحبه لمثل هذا الفهم المتكامل، الذي يتخلص من التجزيء، أو من أخذ الصورة القرآنية تفاريق. .)[1].

ويقرر الدكتور زرزور - انطلاقاً من هذه الشروط، وملاحظته الظلال كنقلة بعيدة في التفسير - أن هذه الشروط توفرت في الظلال، ولذلك يصدر على الظلال حكماً - نوافقه فيه تمام الموافقة - فيقول: (وعندنا أن (في ظلال القرآن) امتاز بهذه الأمور الثلاثة، فلم يكن بذلك من أهم المعالم الرئيسية في تاريخ التفسير، فحسب، بل كان كذلك تفسير العصر الذي لا يغنى عنه أي تفسير آخر من تفاسير علمائنا الأوائل - رحمهم الله تعالى، وجزاهم عن كتابه أحسن الجزاء «وكلا وعد الله الحسنى. .»[2].

وقد أوردنا في الفصول السابقة من هذا الكتاب - أهداف الظلال، وموارد الظلال ووسائل سيد في الظلال - كلاماً وتقريرات، وأمثلة ونماذج، لتحقق الشروط الثلاثة المذكورة في الظلال، وتوفر هذه المزايا فيه. ولنا عودة إلى تناول هذه الأمور من وجهة أخرى - في الكتب والدراسات القادمة - بعون الله -.

فالظلال إذن - على حسب قول الدكتور زرزور (دليل عملي مكتوب - إن صح مثل هذا التعبير - إلى المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية، وليس

---

(١) انظر هذه الشروط في: علوم القرآن: ٤٢٥ - ٤٢٦.

(٢) المرجع السابق: ٤٢٦.

دليلاً ثقافياً لعلوم القرآن وعلوم التفسير، أو علوم الثقافة الإسلامية من فقه وأصول وتاريخ جدل أو خلاف[1].

ولا يعني هذا أن الظلال خالٍ من هذه العلوم الثقافية والتثقيفية، ـ كما قد يفهم البعض من هذا القول ـ بل إنه حوى أشياء من هذه العلوم، بالقدر الذي تسمح به طبيعة الظلال، والمقدار الذي يحقق به أهدافه، ـ كما مر معنا في فصلي (أهداف الظلال) و (موارد الظلال) وكما سيمر معنا أثناء حديثنا عن طريقته في تناول موضوعات علوم القرآن والتفسير المعروفة ـ إن شاء الله ـ.

ولعله لأجل هذه الأمور ـ التي توفرت في الظلال ـ ولأمور ومزايا غيرها، لقي الظلال إقبالاً من كافة فئات الإسلاميين المعاصرين، بالإضافة إلى أن صاحبه دفع ثمنه روحه الطاهرة، ومهره بدمه الزكي، فكتبه بذلك مرتين: «مرة بمداد العالم وأخرى بدم الشهيد..»[2].

الظلال عودة إلى معين القرآن:

لقد ألف سيد قطب الظلال لأغراض خاصة وأهداف محددة ـ كما بينا ـ ومعروف أن الأهداف والغايات تحدد الطبيعة وترسم الطريقة، ولهذا تميزت للظلال طبيعة خاصة، وتوفرت له طريقة فريدة، ميزته عن «كافة» كتب التفسير في القديم والحديث!!.

فالتفاسير القديمة لها طبيعة خاصة، وأهداف خاصة، وطرق خاصة في تناول موضوعاتها. والتفاسير المعاصرة لها مثل ذلك!!.

كذلك للعصر الذي يكتب فيه التفسير دور في تحديد الطبيعة ورسم الطريقة، سواء بالثقافة العامة في العصر، أو ثقافة صاحب التفسير الخاصة، وحاجات المسلمين في ذلك العصر. وتأثر التفاسير بالثقافات والعصور المختلفة أمر بدهي، وقضية مسلَّمة[3]. ولهذا يقول حسن البنا في مقدمته في

---

(١) علوم القرآن: ٤٢٦.

(٢) المرجع السابق: ٤٣٤.

(٣) انظر (مقدمات تفسير القرآن) لحسن البنا: ١٤ ـ ١٦.

لتفسير ـ بحق ـ «وهكذا نجد أن أسلوب التفسير يتجدد مع كل مفسر، ومع كل عصر بحسبه، وذلك أمر طبيعي ـ كما قدمنا ـ فإنما يصور المفسرون بالتفسير ما فهموا من كتاب الله، وأداة فهمهم عقولهم، ومادة علمهم بيئتهم ومعارف عصرهم، فكان لزاماً أن يظهر ذلك كله جلياً في نفثات أقلامهم، ومعرض آرائهم. . .»[1].

ولذلك جاء كل تفسير «انعكاساً» لطبيعة العصر الـذي كتب فيه، وللثقافات العامة فيه والخاصة لصاحبه. وصار المفسرون يتأثرون وهم يكتبون تفاسيرهم ـ بعصورهم وثقافاتهم وبأقوال سابقيهم من المفسرين. ولذلك يقول الدكتور عدنان زرزور: «يمكن القول: أن من أراد أن يؤرخ للحياة العقلية أو الاجتماعية عند المسلمين، فعليه أن يفعل ذلك من خلال تفاسيرهم للقرآن الكريم في الاعتبار الأول. . .»[2].

أما الظلال فإني أعتقد أنه لم يكن انعكاساً للعصر الحاضر وثقافاته واتجاهاته ولا انعكاساً لثقافات سيد قطب ومعارفه، ولا انعكاساً للتفاسير السابقة بمدارسها وفرقها واختلافاتهـا وتكرارها، وإنما هو لون جديد، واتجاه فريد، ومدرسة متميزة أصيلة، في التلقي مباشرة من القرآن، وملاحظة مهمته الحركية التربوية في حياة المسلمين، والحركة به في معالجة قضايا العصر، ومجاهدة أعداء الإسلام.

لقد تجاوز سيد قطب بظلاله التفاسير التي سبقته ـ قديماً وحديثاً على السواء ـ فلم يكرر ما قالوه تكراراً، ولم يتناول موضوعات علوم القـرآن والتفسير كما تناولوها، ولم يتوسع فيها كما توسعوا، وإنما لاحظ ما لم يلاحظوا، واستدرك ما أغفلوا، وبين ما تركوا، وجاء بالكثير في هذا، وانطبق عليه القول «كم ترك الأول للآخر» تمام الانطباق!! وإنه وإن كان الأخير زمانه فقد أتى بما لم تلاحظه الأوائل!!.

---

(١) المرجع السابق: ١٦.
(٢) علوم القرآن: ٤٢١.

نجح سيد قطب في ظلاله لأنه لاحظ أغراض القرآن الأساسية، واستبعد الدراسات الثقافية للقرآن، الدراسة الأدبية والدراسة الجمالية والدراسة الفكرية، والدراسة العلمية والدراسة الفقهية والدراسة التاريخية... وغير ذلك. درسه دراسة تربوية عملية، وحركية جهادية....

سيد يضع منهجاً للتلقي عن القرآن:

ولهذا يقول: (إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح. روح المعرفة المنشئة للعمل. إنه لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ ـ وإن كان هذا كله من محتوياته ـ إنما جاء ليكون منهاج حياة)[1].

ويقرر اختلاف منهج المسلمين بعد جيل الصحابة، عن منهج الصحابة في التعامل مع القرآن فيقول: (منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول. ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرَّج الأجيال التي تلته... وما من شك أن هذا العامل الثاني كان عاملاً أساسياً كذلك في اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد...)[2].

ويدعو المسلمين إلى أن يكون منهجهم في التعامل مع القرآن هو منهج الصحابة ليحاولوا أن يقتربوا من جيل الصحابة: (ولا بد أن نرجع إليه ـ حين نرجع ـ بشعور التلقي للتنفيذ والعمل، لا بشعور الدراسة والمتاع، نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون، لنكون... وفي الطريق سنلتقي بالجمال الفني في القرآن، وبالقصص الرائع في القرآن، وبمشاهد القيامة في القرآن، وبالمنطق الوجداني في القرآن، وبسائر ما يطلبه أصحاب الدراسة والمتاع.. ولكننا سنلتقي بهذا كله دون أن يكون هو هدفنا الأول..)[3].

إذا لم يكن هذا منهجنا في التعامل مع القرآن فلن ندركه حق إدراكه..

---

(١) معالم في الطريق: ١٨ ـ ١٩.

(٢) المرجع السابق: ١٩ ـ ٢٠.

(٣) المرجع السابق: ٢٢ ـ ٢٣.

وإذا لم يكن هذا هدفنا من دراسته فلن يؤدي دوره في الحياة، ولهذا لا يفهمه ولا يدركه إلا من يتحرك به حركة عملية حية.. (فالقرآن لا يدركه حق إدراكه من يعيش خالي البال من مكابدة الجهد والجهاد لاستئناف حياة إسلامية حقيقية، ومن معاناة هذا الأمر العسير الشاق، وجرائره وتضحياته وآلامه، ومعاناة المشاعر المختلفة التي تصاحب تلك المكابدة في عالم الواقع، في مواجهة الجاهلية في أي زمان!!)[(١)].

مفهوم التفسير عند سيد قطب:

تفسير القرآن وإدراك مدلولاته وإيحاءاته، ليس هو فهم ألفاظه وعباراته فهماً ثقافياً ذهنياً بارداً، ولا تفسيره من وراء المكاتب ومن خلال الكتب والمكتبات!!! إنما هو (استعداد النفس برصيد من المشاعر والمدركات والتجارب، تشابه المشاعر والمدركات والتجارب التي صاحبت نزوله وصاحبت حياة الجماعة المسلمة وهي تتلقاه في خضم المعترك، معترك الجهاد...)[(٢)].

بهذا الاستعداد الخاص الفريد يدرك المفسر القرآن ويفسره، ويقف على سمة أساسية من سماته لا يقف عليها ولا يدركها إلا بهذا المنهج وهذه الطريق، وهي التي أطلق عليها سيد قطب سمة (الواقعية الحركية) لأنها مفتاح التعامل مع القرآن، وفهمه وفقهه، وإدراك مراميه وأهدافه.

وعرَّفها سيد بأنها (استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني.. لا بدّ من هذا لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته، ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي، ويواجه حالة واقعة كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده. وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها، كما هي ضرورية للانتفاع

---

(١) خصائص التصور الإسلامي: ٧.

(٢) المرجع السابق: ٨.

بتوجيهاته، كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية...)[1].

المفسرون السابقون لم يتناولوا القرآن هذا التناول، ولا على أساس هذا المنهج، لذلك لم يدركوا هذه السمة «الواقعية الحركية» للقرآن فجاءت تفاسيرهم ـ على اختلافها ـ ثقافية تثقيفية نظرية!!.

بينما سيد قطب تناوله هذا التناول، وعلى أساس هذا المنهج، وأدرك هذه السمة الواقعية الحركية، فجاء تفسيره «الظلال» تفسيراً تربوياً حركياً عملياً، ولبى حاجات المسلمين المعاصرين، وفتح به ـ كنوز القرآن الحركية والعملية المذخورة فيه، التي (كأن) الله ادخرها له وحده، لأنه وفقه للوقوف على المفتاح الحركي الذي فتحها به. ولأجل هذا جاء الظلال تفسيراً فريداً للقرآن لا يغني عنه أي تفسير آخر، ولذلك اعتبرناه «نقلة بعيدة جديدة في التفسير!!!.

يتجاوز سيد كلام المفسرين السابقين ـ لحرصه على عدم التكرار وعلى الإتيان بالجديد ـ ليقف أمام النص مباشرة، يسجل دلالاته الفنية والاجتماعية والتربوية والحركية والتاريخية. وما يوجه إليه من معانٍ وإيحاءات.

استوقفته ظاهرة توجيه الأسئلة المختلفة من الصحابة الكرام إلى رسول الله ـ ﷺ ـ التي أوردها القرآن الكريم وتولى الإجابة عليها.

﴿ يسألونك عن الأهلة... ﴾[2].
﴿ يسألونك ماذا ينفقون... ﴾[3].
﴿ يسألونك عن الشهر الحرام... ﴾[4].
﴿ يسألونك عن الخمر والميسر... ﴾[5].

---

(١) الظلال ٥: ٢١٢١ ـ ٢١٢٢ وانظر كذلك الظلال ١: ٣٤٨ و ٤: ١٨٩٤ و ٥: ٢٨٣٦.
(٢) البقرة: ١٨٩.
(٣) البقرة: ٢١٥.
(٤) البقرة: ٢١٧.
(٥) البقرة: ٢١٩.

﴿ ويسألونك عن المحيض. . . . ﴾[1].

. . . وغيرها، هذه الأسئلة ذات دلالات شتى. بيَّن سيد ثلاثاً منها: فكرية اجتماعية، وتربوية نفسية منهجية، وتاريخية دعوية حركية. .[2].

فعندما سألوا الرسول ـ ﷺ ـ عن الأهلة: ظهورها ونموها وتناقصها، لم يجب القرآن عن هذا السؤال، وإنما أجابهم جواباً حياتياً عملياً، حيث بيَّن وظيفتها في واقعهم وفي حياتهم. . . فما هو السر في هذا العدول في الجواب؟ وما دلالاته على المنهج السليم في التصور والتربية، والعلم والتفسير؟ وقف سيد وقفة مطولة ليتحدث عن هذه الدلالة التي لم يلتفت لها من سبقه من المفسرين[3].

سيد يستبعد الأساطير والإسرائيليات:

ونتيجة لتعامله مع النص القرآني مباشرة والتفاته إلى الأغراض الأساسية للقرآن، وحرصه على إبقاء القارىء في جو النص، وهدفه العملي التربوي من الظلال؛ نتيجة لهذا فقد نجح في تجاوز الأساطير والإسرائيليات، وعدم إثبات شيء منها في تفسيره. وهذه الإسرائيليات لا يكاد يخلو منها أي من التفاسير السابقة ـ على تفاوت في مقدارها ـ.

فلما فسر قوله تعالى: ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً. . . . ﴾[4] قال: (ولا نخوض نحن في صفة هذا الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة، فيكفي أن نعرف أنها كانت مباركة، يفيض من حولها الخير، ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقاً. . .)[5].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة

---

(١) البقرة: ٢٢٢.

(٢) الظلال ١: ١٧٩ ـ ١٨٠ وانظر الظلال ٢: ٧٢٥ و ٧٢٦ و٣: ١١٨٦ ـ ١١٩٠ و٦: ٣٩٨.

(٣) الظلال ١: ١٨٠ ـ ١٨٤.

(٤) آل عمران: ٣٧.

(٥) الظلال ١: ٣٩٣.

وتفصيلا لكل شيء ﴾[1] لم يرد أن يتعرض للألواح وما فيها بتفصيل وبيان، لأن هذا البيان لم يأتِ بنص صحيح ومعظم ما قيل فيها مأخوذ عن الإسرائيليات، وفهم النص وحقيقته لا يتوقف على هذا البيان.

ولذلك قال سيد قطب (وتختلف الروايات والمفسرون في شأن هذه الألواح، ويصفها بعضهم أوصافاً مفصلة - نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التي تسربت إلى التفسير - ولا نجد في هذا كله شيئاً عن رسول الله - ﷺ - فنكتفي بالوقوف عند النص القرآني الصادق لا نتعداه. وما تزيد الأوصاف شيئاً أو تنقص من حقيقة هذه الألواح. أما ما هي، وكيف كتبت فلا يعنينا هذا في شيء، بما أنه لم يرد عنها من النصوص الصحيحة شيء..)[2].

وواضح من كلامه هنا - وفي المواضع المتفرقة في الظلال بهذا الخصوص[3] - حِرْص سيد على ترك الإسرائيليات وعدم إثبات شيء منها في الظلال، كما تظهر لنا منهجيته العلمية في وقوفه عند تقريرات وإيحاءات النص القرآني، وتفسير رسول الله - ﷺ - له - إن وجد. لأن بعد هذا الخبطُ بالأساطير والإسرائيليات، والإتيان بكلام كثير لا يتوقف عليه فهم النص، وتفسيره، وإنما يحجب القارىء عن نوره وإيحاءاته!!!

كذلك كان في تركه الإسرائيليات والأساطير متمشياً مع منهج الإسلام في البحث والتفكير، الذي لخصه سيد قطب بقوله: (منهج الإسلام في صيانة الطاقة العقلية أن تبدد في غير ما يفيد. وفي ألا يقفو المسلم ما ليس له به علم وثيق...)[4].

لقد وضع سيد قطب لنفسه قاعدة أساسية في التفسير، ولم يخرج عليها

---

(١) الأعراف: ١٤٥.

(٢) الظلال ٣: ١٣٧٠.

(٣) انظر الظلال ١: ٢٦٣ - ٢٦٤ و ٢: ٨٧٦ و ٣: ١٣٩٧ و ١٩٧٧ و ٥: ٢٨٩٨ و ٣٠٢٠.

(٤) الظلال ٤: ٢٢٦٥.

في الظلال كله، هي تعامله مع النصوص القرآنية مباشرة، والاكتفاء بما توحيه إليه من إيحاءات ومعانٍ وقيم وأفكار، وصور وظلال، وعدم تجاوزها إلى كلام الناس. وهو في هذا حريص على إثبات الكلام الصحيح المقبول في الظلال، وعلى عدم تبديد طاقته العقلية في غير ما يفيد، وفي إبقاء القارىء معه في جو النص.

ولهذا يبين هذه القاعدة بقوله: (وقد جرينا في هذه الظلال على قاعدة: ألا نتزيد بشيء في أمر الغيبيات التي يقص الله علينا طرفاً من خبرها، وأن نقف عند حدود النص القرآني لا نتعداه، وهو كافٍ بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور)[1].

سعة مدلول النص عند سيد:

نظر سيد قطب إلى النص القرآني نظرة فاحصة، ولم يقيده بزمان ولا بمكان - إلا ما ورد مقيداً بذلك - ولذلك كان النص عنده حياً، كله قوة وحيوية، حراً طليقاً، يشمل كل الأحوال، وينطبق على كل الحالات.. لقد وسع مدلوله ومساحته التي يعمل ويتحرك فيها. فشمل الواقع المعاصر، ويشمل المستقبل القادم!!!.

يقول في تعريفه بسورة آل عمران، وتقديمه لنصوصها: (ومن وراء هذا كله تبقى التوجيهات والتلقينات التي احتوتها السورة، خالصة طليقة من قيد الزمان والمكان، وقيد الظروف والملابسات، تواجه النفس البشرية، وتواجه الجماعة المسلمة - اليوم وغداً - وتواجه الإنسانية كلها، وكأنها تتنزل اللحظة لها، وتخاطبها في شأنها الحاضر، وتوجهها في واقعها الراهن..)[2].

وهو في هذا يختلف عن كثير من المفسرين الذين قصروا النص على فترة محددة من النزول، أو قصروه على بعض حالاته التي يدل عليها، أو

---

(١) الظلال ٦: ٢٦٣٤.

(٢) الظلال: ٥٣٠ وانظر نماذج أخرى في الظلال ٢: ٦٨١ - ٦٨٢ و١٠٨٠ و٣: ٢١٢٩ - ٢١٣٠.

فسروه بجزء من معانيه التي يحتملها. . . ومن ثم اختلفوا في تفسيره اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وأوردوا أقوالاً كثيرة في التفسير، يحتملها النص ويشملها ويدل عليها وعلى غيرها!!

كان يُبقي النص على عمومه، ولا يقيده ببعض معانيه أو يقصره على بعض أفراده، ولكنه كان يورد بعض أفراده للتمثيل والاستشهاد، لا للحصر والاستقصاء.

فلما فسر قوله تعالى: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها. . ﴾[1] ذهب إلى أن «الأمانة» مصطلح عام يشمل جميع الأمانات على اختلاف ألوانها ودرجاتها، وذكر بعض أنواع هذه الأمانات كنماذج للتمثيل وهي: الأمانة الكبرى: أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله. وينبثق من هذه الأمانة سائر الأمانات مثل: أمانة الشهادة لهذا الدين بمجاهدة النفس أولاً، ودعوة الناس إليه بعد ذلك. . . ثم العمل الحركي الجهادي لإقراره في الأرض. ومن هذه الأمانات: أمانة التعامل مع الناس، وأمانة المعاملات والودائع المالية، وأمانة النصيحة للراعي والرعية، وأمانة القيام على الأطفال الناشئة، وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها. . . وغير ذلك[2].

سيد ينظر في الواقع بمنظار القرآن:

كان حريصاً على النظر في الواقع المعاصر بمنظار القرآن، ووزنه بميزان القرآن، وبيان انطباق النصوص القرآنية على هذا الواقع، وإضافة بُعد واقعي لتلك النصوص، مما منح الظلال حياة وحيوية وقبولاً في مختلف الأوساط. كان سيد يعرج على الواقع المعاصر باستمرار، يعالج مشكلاته ويقوِّم انحرافاته، ويستخدم في هذا علاجَ القرآن، ويطبق عليه توجيهات القرآن. . .

---

(١) النساء: ٥٨.

(٢) انظر الظلال ٢: ٦٨٨ ـ ٦٨٩ وانظر نماذج أخرى فيه ٢: ٨٣٥ ـ ٨٣٦ و٢: ١٠٤٩ ـ ١٠٥٢ و٣: ١٢٣١ و٣: ١٥٢٢ ـ ١٥٢٤ و٤: ٢١٠٧ و٤: ٢٥٠٨ ـ ٢٥٠٩.

فلما فسر الآيات الأولى من سورة الأنعام، وتعرض لدليل الخلق ودليل العناية في الأنفس والآفاق على الإيمان بالله، وتوحيده وعبادته؛ اعتبر هذين الدليلين صالحين (لمواجهة اللوثات الجاهلية الحديثة التافهة في إنكار الله..) ثم أشار إلى عوامل نشوء الإلحاد في بلاد الغرب، وأنه مصادم للفطرة، وبيَّن دور اليهود وأصابعهم الخفية في الدعوة إلى الإلحاد والتمكين له، وأنهم لا يمكن أن يغلبوا الفطرة البشرية.. ثم تحدث حديثاً كاشفاً صريحاً عن عداء اليهود - ومن والاهم - للإسلام والمسلمين، وحربهم الشرسة ضد المسلمين المعاصرين، وبخاصة طلائع البعث الإسلامي. وكشف عن وسائلهم الخبيثة في هذه الحرب[1]..

ولما فسر موجة من موجات سورة الأنعام[2] وقف وقفة مطولة بعد تفسيرها يستخلص ما فيها من عبر وتوجيهات دعوية إلى الدعاة، قال: (والآن بعد الانتهاء من استعراض هذه الموجة من السياق أقف وقفة قصيرة لاستخلاص عبرة التوجيه فيها لكافة أصحاب الدعوة إلى هذا الدين في كل جيل، فإن مدى التوجيه فيها يتجاوز المناسبة التاريخية الخاصة، وينسحب على جميع الأجيال، وجميع الدعاة ويرسم منهجاً للدعوة إلى هذا الدين، لا يتقيد بالزمان والمكان، ونحن لا نملك هنا أن نفصل كل جوانب هذا المنهج، فنقف منه إذن عند معالم الطريق...)[3].

ولما تحدث عن ابتلاء الأمم السالفة بالرخاء، وفتْح أبواب كل شيء عليهم، ثم أخْذهم بالعذاب بعد ذلك، عرَّج على الواقع المعاصر، وبيَّن نموذجاً معاصراً لهذا، وهي «أمريكا» وابتلاء الله لها بالرخاء المادي الطاغي، وفتْح الله عليها أبواب كل شيء من الرزق، ثم غرورها بهذا الرخاء، وظلمها لنفسها ولغيرها به، وعرض صورة حديثة.. من عذاب الله لهم هناك، وأن سنة الله ستحل بهم لا محالة!![4].

---

(١) الظلال ٢: ١٠٣٢ - ١٠٣٤ و ٢: ١٠٦٠ - ١٠٦٢.

(٢) الأنعام: ٣٣ - ٣٩.

(٣) الظلال ٢: ١٠٩١ وانظر كلامه مطوّلاً: ١٠٨١ - ١٠٨٤.

(٤) الظلال ٢: ١٠٩١.

نكتفي بهذه النماذج الثلاثة، لأن الظلال كله نقلة جديدة في التفسير، ومعالجة الواقع المعاصر مبثوثة في مواضع كثيرة متفرقة فيه[1].

من مظاهر اعتبار الظلال نقلة بعيدة في التفسير:

إن الظلال يعتبر نقلة بعيدة جديدة في التفسير، لأننا نلاحظ فيه ـ بالإضافة لما سبق بيانه ـ مزايا خاصة، وأموراً مميزة، تفرد فيها كتفسير خاص تلقى صاحبه من معين القرآن مباشرة، واستخرج الكثير من كنوز القرآن المذخورة فيه، ونشير فيما يلي إلى أهم هذه الأمور:

أولاً: دخوله عالم القرآن بدون مقررات فكرية مسبقة، وترك الأمر لنصوص القرآن لتشكِّل له خلفيته الفكرية، ولتوحي له بإيحاءاتها ودلالاتها وصورها وظلالها، ولذلك كانت أفكاره وآراؤه قرآنية، لأنه ألقى على عتبة القرآن أفكاره وآراءه السابقة.

لما قرر حكم الأسرى في الإسلام، أخذه من قوله تعالى: ﴿حتى إذا أثخنتموهم فشدو الوثاق، فأما منًا بعد وإما فداء، حتى تضع الحرب أوزارها..﴾[2] حيث يخيِّر الإمام بين إطلاق سراح الأسرى منًا ـ بدون مقابل ـ أو أخذ الفداء منهم، أما استرقاق الأسرى فإنه يخضع لقاعدة المعاملة بالمثل، فإذا استرق الأعداء أسرى المسلمين استرق الإمام أسراهم. وإذا (حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى، فإن الإسلام يرجع حينئذٍ إلى قاعدته الإيجابية الوحيدة وهي (فاما منا بعد وإما فداء) لانقضاء الأوضاع التي كانت تقضي بالاسترقاق، فليس الاسترقاق حتمياً، وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى في الإسلام..)[3].

وقد بيَّن سيد أن رأيه هذا قد استوحاه من النص القرآني الحاسم، ومن

---

(1) انظر نماذج أخرى في الظلال ١: ٤١٤ ـ ٤١٦ و٢: ٩٦٠ ـ ٩٦٢ و٣: ١٢٨٤ ـ ١٢٨٥ و٤: ٢١١٤ ـ ٢١١٦ و٥: ٣٨٣٦ و٦: ٣٨٦٠ ـ ٣٨٦١ و٣: ١٦٠٧ ـ ١٦١٠.

(2) محمد: ٤.

(3) الظلال ٦: ٣٢٨٥.

دراسة الأحوال والأوضاع والأحداث من سيرة الرسول ﷺ، وهديه بشأن الأسرى، باعتباره السيرة التفسير العملي للقرآن.

وقد دفع عن نفسه شبهة وضع «الإسلام في قفص الاتهام»(١) أو جعل «الدين في موقف الدفاع»(٢) بأن يبرىء الإسلام من تهمة استرقاق الأسرى، فقال: «إن مثل هذا الخاطر لا يهجس في نفسي أبداً، فلو كان الإسلام رأى هذا لكان هو الخير، لأنه ما من إنسان يعرف شيئاً من الأدب يملك أن يقول: إنه يرى خيراً مما يراه الله. إنما أنا أسير مع نص القرآن وروحه، فأجنح إلى ذلك الرأي بإيحاء النص واتجاهه(٣).

ولم يكن سيد في هذا المنهج معطلاً للعقل البشري، ولا ملغياً لدوره، ولكنه عرف كيف يوجهه ليؤدي مهمته ويقوم بدوره، لقد بيَّن الصلة بين العقل والوحي بياناً شافياً: فهو ليس في درجة الوحي، ولا ندا له. وإنما هو تابع له يتحرك في إطاره. والعقل بمصاحبة وحي الله وهداه بصير، وبترك وحي الله وهداه أعمى.

ولذلك يقرر سيد سعة مجال العقل الذي يعمل فيه بمصاحبة وحي الله، وحركته في إطاره: (والعقل البشري حين يتحرك في إطار الوحي لا يتحرك في مجال ضيق، إنما يتحرك في مجال واسع جداً.. يتحرك في مجال هو هذا الوجود كله...)(٤).

ولقد بيَّن سيد عن قاعدته المنهجية في تعامله مع النصوص القرآنية - بمناسبة نقده لمنهج مدرسة محمد عبده العقلية في التفسير - فقال: (وإن هنالك قاعدة مأمونة في مواجهة النصوص القرآنية - لعل هنا مكان تقريرها -

---

(١) عنوان كتاب لشوقي أبو خليل.

(٢) عنوان كتاب للدكتور محمد فتحي عثمان. والكتابان يسيران على منهج خاطىء في الدفاع عن الإسلام.. بجعله متهماً من قبل البشر الجاهلين الجاهليين، ومحاولة رد التهم من موقف المدافع الضعيف.

(٣) الظلال ٦: ٣٢٨٥.

(٤) الظلال ٢: ١٠٩٩.

إنه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة، لا مقررات عامة. ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص. بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا. فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية، ومنها نكوِّن قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعاً، فإذا قررتْ لنا أمراً فهو المقرر كما قررتْه..)[1].

ثانياً: التسليم بمدلول النص القرآني، والإيمان به، والثقة بمقرراته، والاستشهاد له، وإخضاع الظواهر المخالفة - في ظاهرها - وإزالة التعارض - الوهمي - بين مدلولاته والواقع، وجعْل النص هو الأساس وكل ما سواه تبع له...

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله...﴾[2] أشار إلى ظهور الإسلام في التاريخ الإسلامي على المعمور من الأرض في ذلك الوقت، واستمرار ظهوره الفكري والثقافي - حتى بعد انحساره السياسي - ولهذا يقول: (فوعد الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية. ووعد الله ما يزال متحققاً في الصورة الموضوعية الثابتة، وما يزال هذا الدين ظاهراً على الدين كله في حقيقته، بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادراً على العمل والقيادة، في جميع الأحوال...)[3].

وفي إشارته إلى الحكمة من تحريم لحم الخنزير، وأن العلم الحديث اكتشف أن في لحم الخنزير ودمه دودة شديدة الخطورة هي «الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة»؛ ورده على مزاعم بعضهم أن وسائل الطهو الحديثة تقضي عليها، رد على هذا باحتمال وجود آفات أخرى في لحمه. قال: «وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة

---

(١) الظلال ٦: ٣٩٧٩ وانظر الظلال ٢: ٨٠٦ - ٨٠٨.
(٢) الفتح: ٢٨.
(٣) الظلال ٦: ٣٣٣١ وانظر الظلال أيضاً ٦: ٣٥٥٨.

واحدة. فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يُكشف بعد عنها؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها، وندع كلمة الفصل لها، ونحرم ما حرمت، ونحلل ما حللت، وهي من لدن حكيم خبير...»[1].

أما إذا كان الواقع المعاصر لا يتفق مع تقريرات النص وتوجيهاته، فإن الواقع هو الذي لا ينطبق على تلك التقريرات، ولذلك يجب أن يخضع هو لها، وأن يُبحث عن الأسباب والعلل عنده هو، أما النص فإنه صادق لا يتخلف، لذلك كان سيد ـ إنطلاقاً من تسليمه بالنص وثقته به ـ يُخضع الظواهر المخالفة ـ في ظاهرها ـ له.

يقول الله عز وجل عن اليهود: ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة...﴾[2] وظاهر اليهودية العالمية الآن ـ الخادع ـ هو الاتفاق والتعاون والتساند!! إن سيد يسلم بتقرير النص القاطع، أما هذا الواقع فإنه مؤقت، وبسبب غفلة أهل الحق من المسلمين، أما إذا عاد المسلمون إلى دينهم عودة جادة، فسيعود اليهود إلى التفرق والتعادي والتباغض.. «ولكن ينبغي أن لا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان، ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة. ففي خلال ألف وثلاثمائة عام.. بل من قبل الإسلام.. واليهود في شحناء وفي ذل كذلك وتشرد، ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه، مهما تقم حولهم الأسناد، ولكن مفتاح الموقف كله في وجود العصبة المؤمنة التي يتحقق لها وعد الله...»[3].

ثالثاً: الإيمان بعالم الغيب والتسليم بمدلول النصوص وتقريراتها حوله، وتسجيل ما توحي به، وعدم الخوض فيه، واحترام عقله، ومعرفته

---

(١) الظلال ١: ١٥٦.

(٢) المائدة: ٦٤.

(٣) الظلال ٢: ٩٣٠ وانظر أمثلة أخرى في الظلال ٢: ٧٨٢ ـ ٧٨٣ و٢: ٩٦٠ ـ ٩٦١ و٣: ١٣٣٧ ـ ١٣٣٩ و٣: ١٣٧٥ ـ ١٣٧٦ و٣: ١٣٨٦ و٤: ١٨٥٤ و٦: ٣٢٧٠ ـ ٣٢٧١ و٦: ٣٥٢٩.

لحدوده ومجاله، وعدم تبديد طاقته العقلية في ذلك، والاكتفاء بدلالات الآيات، والاستغناء بها عن خوض الخائضين وتقولات الناقلين من المفسرين السابقين عن أهل الكتاب وغيرهم.

لما تعرض إلى تفسير قصة آدم وما جرى بينه وبين الملائكة وبينه وبين إبليس في الجنة، تساءل تساؤلات حول المكان والزمان والكيفية التي جرت بها أحداث القصة، وبيّن أنه غيب لا نملك الوسائل للبحث فيه.

قال: (أين كان هذا الذي كان؟ وما الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه حيناً من الزمان؟ ومن هم الملائكة؟ ومن هو إبليس؟ كيف قال الله تعالى لهم؟ وكيف أجابوه؟..

هذا وأمثاله في القرآن الكريم غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر في معرفة كنهه وطبيعته، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به، بالأداة التي وهبهم إياها لخلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على هذا الغيب...).

... إلى أن يقول: (فلندع هذا الغيب لصاحبه، وحسبنا ما يقص لنا عنه، بالقدر الذي يصلح لنا في حياتنا، ويصلح سرائرنا ومعاشنا، ولنأخذ من القصة ما تشير إليه من حقائق كونية وإنسانية، ومن تصور للوجود وارتباطاته، ومن إيحاء بطبيعة الإنسان وقيمه وموازينه.. فذلك وحده أنفع للبشرية وأهدى...)[1].

والذي يطلع على الركام في بعض التفاسير السابقة، حول هذه القصة وغيرها من الغيبيات، والذي تاهت فيه، وخبطت فيه من الأساطير والإسرائيليات؛ الذي يطلع على ذلك الركلم وعلى كلام سيد هنا، وتسجيله ما هو أنفع وأهدى من حقائق وتصورات وإيحاءات؛ يدرك العلمية والمنهجية في الظلال، ولماذا هو نقلة جديدة في التفسير!!!.

---

(١) الظلال ١: ٥٩ وانظر حديثه عن حقائق القصة: ٥٩ ـ ٦١.

ولما تحدث عن الصور والنفخ فيه، اعتبر أن الصور وماهيته، والنفخ فيه وكيفيته، إنما هو غيب من الغيب الذي احتفظ الله به. . .

كذلك آثار النفخ في الصور على البشر المبعوثين غيب من الغيب، وموقفه من كل هذا أن يسلّم به دون بحث فيه: «وهذه الأوصاف للصور، ولآثار النفخة فيه، تعطينا ـ عن يقين ـ أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض أو تصوروه. . وهو من ثم غيب من غيب الله. . نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وأثره. . ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه ولا يقين، إنما هي الظنون[1]. .

ولقد جعل موقفه هذا من النصوص التي تتحدث عن الغيبيات قاعدة عامة للظلال كله. . «وقد جرينا في هذه الظلال على قاعدة: ألا نتزيد بشيء في أمر الغيبيات التي يقص الله علينا طرفاً من خبرها، وأن نقف عند حدود النص القرآني لا نتعداه، وهو كافٍ بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور. .»[2].

رابعاً: العلمية والجدية في البحث وإدراك منهج الإسلام في المعرفة:

إن الإسلام يرسم للمسلمين حدود البحث ويضع لهم منهج المعرفة، ويعلمهم الطريق إلى ذلك، ولقد أدرك سيد هذا المنهج، فنجده في الظلال يتصف كلامه بالواقعية الجدية، والعلمية المنهجية، فلا يكرر ما قاله المفسرون السابقون ـ وقلما نجا أحد من السابقين نجا من التكرار! ـ ولا يبحث في الغيبيات، ولا يخبط في الأساطير والإسرائيليات، ولا يتيه في موضوعات لا دليل عليها، ولا يتوسع في الخلافيات المذهبية والفقهية، ولا يشغل نفسه ببيان مبهمات القرآن، أو الكلام على ما لا يفيد، ولهذا كان حريصاً على البقاء في جو النص القرآني، وعدم الخروج منه، ويحيل في الخلافيات إلى الكتب المختصة المطولة.

---

(١) الظلال ٢ : ١١٣٥.

(٢) الظلال ٦ : ٣٦٣٤ وانظر أمثلة أخرى في الظلال ١ : ٣٩٧ ـ ٣٩٨ و٣: ١٢٦١ و٦: ٣٦٧٩ ـ ٣٦٨٠.

وقف في تفسير قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم.. ﴾[1].

وقف ليشير إلى منهج الإسلام الواقعي الجدي في البحث والمعرفة. مستشهداً بأحاديث الرسول ـ ﷺ ـ وإدراك الصحابة والتابعين ـ رضوان الله عليهم ـ له وتطبيقهم لحدوده. ولينتقد التوسع في الموضوعات الفقهية الافتراضية على الطريقة (الأرأيتية)[2] وليعيب على (علماء) معاصرين في طريقتهم في البحث الفقهي، ودراساتهم النظرية له، وإجاباتهم على استفتاءات نظرية... (إن المعرفة في الإسلام إنما تطلب لمواجهة حاجة واقعة، وفي حدود هذه الحاجة الواقعة..) ولذلك فالمنهج الإسلامي في المعرفة (منهج واقعي جاد، يواجه وقائع الحياة بالأحكام، المشتقة لها من أصول شريعة الله، مواجهة عملية واقعية..)[3].

وفي حديثه عن الخمر ـ أثناء تفسير الآيات التي حرمتها في سورة المائدة ـ أشار إلى اختلاف الفقهاء في ذات الخمر، هل هي نجسة؟ ـ وهو قول الجمهور ـ أم أنها طاهرة ولكن شربها هو المحرم ـ وهو قول بعض الفقهاء ـ أشار إلى هذين القولين إشارة خاطفة وقال: «وحسبنا هذا القدر في سياق الظلال..»[4].

وقد انتقد ـ أثناء حديثه عن الخمر ـ منهج المعتزلة الجدلي النظري، واعتبره غريباً على التصور الإسلامي، مخالفاً للمنهج الإسلامي في البحث والمعرفة... «ولا نريد أن ندخل ـ بهذه المناسبة ـ في الجدل الذي أثاره المعتزلة حول الحكم بأن الخمر رجس: هل هو ناشىء عن أمر الشارع ـ سبحانه ـ بتحريمها؟ أم إنه ناشىء عن صفة ملازمة للخمر في ذاتها؟ وهل

---

(١) المائدة: ١٠١.

(٢) هي منهج نظري خاطىء في بحث قضايا الفقه الافتراضية يطلق على أصحابه اسم (الأرأيتيون) أخذاً من قولهم: أرأيت لو كان الأمر كذا: لكان الحكم كذا....

(٣) الظلال ٢: ٩٨٧.

(٤) الظلال ٢: ٩٧٧.

المحرمات محرمات لصفة ملازمة لها؟ أم إن هـذه الصفة تلزمهـا من التحريم. . . فهو جدل عقيم في نظرنا، وغريب على الحسّ الإسلامي!. والله حين يحرم شيئاً يعلم ـ سبحانه ـ لِمَ حرمه. . سواء ذكر سبب التحريم أو لم يذكر. . .

فالله سبحانه هو الذي يعلم الأمر كله، والطاعة لأمره واجبة ـ والجدل بعد ذلك لا يمثـل حاجـة واقعية. . والـواقعية هي طـابع هـذا المنهج الرباني. . . »[1].

أما مبهمات القرآن، والتحديد التاريخي والجغرافي لقصص القرآن وأحداثها وأبطالها، فإن الخوض في كل هذا ـ والذي خاضت فيه التفاسير السابقة على تفاوت في الطريقة والمقدار ـ لا يتفق مع منهج القرآن الواقعي الجدي في المعرفة، ولا مع منهج سيد قطب الواقعي الجدي في التفسير ـ الذي استمده من منهج القرآن ـ ولذلك نرى سيد في الظلال تجاوز هذا كله، إلى بيان حقائق النصوص وآثارها. . .

قصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع العبد الصالح، التي وردت في سورة الكهف، يعتبر تفسير سيد لها وموقفه من مبهماتها، نموذجاً على منهجه المذكور. . .

فالقرآن (لا يحدد المكان الذي وقعت فيه إلا بأنه «مجمع البحرين» ولا يحدد التاريخ الذي وقعت فيه من حياة موسى، وهل كان ذلك وهو في مصر قبل خروجه ببني إسرائيل، أم بعد خروجه بهم منها؟ ومتى بعد الخروج: قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة أم بعد ما ذهب بهم إليها، فوقفوا حيالها لا يدخلون، لأن فيها قوماً جبارين؟ أم بعد ذهابهم في التيه، مفـرقين مبددين. .).

كذلك لا يذكر القرآن شيئاً عن العبد الصالح الذي لقيه موسى، من هو؟ ما اسمه؟ هل هو نبي أو رسول؟ أم عالم؟ أم ولي؟. .

---

(١) الظلال ٢ : ٩٧٨.

وهناك روايات كثيرة عن ابن عباس وعن غيره في هذه القصة ونحن نقف عند نصوص القصة في القرآن لنعيش «في ظلال القرآن» ونعتقد أن لعرضها في القرآن على النحو الذي عرضت به، «دون زيادة، ودون تحديد للمكان والزمان والأسماء، حكمة خاصة. فنقف نحن عند النص القرآني نتملاه. . .)[1].

خامساً: نجاحه في إبراز الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، وتطبيقها على سور القرآن وآياته وبيان التناسب الموضوعي في موضوعات السورة، والتناسق الفني في صياغتها وأساليب عرضها. . ولهذا أجاد في تعريفه بالسور وتقديمه لها، في الطبعة المنقحة للظلال. وإن هذا التعريف يصلح أن يعتبر ـ بحد ذاته ـ بياناً للتناسق والتناسب والوحدة الموضوعية، كذلك أجاد في تقسيم السورة إلى دروس موضوعية متناسقة، وكان تقسيمه موضوعياً متدرجاً: قسّم السورة إلى دروس ومقاطـع، وقسّم المقطع إلى جولات، والجولة إلى

---

(1) الظلال ٤: ٢٢٧٧ ـ ٢٢٧٨.

وصحيح أن القرآن لم يحدد إسم صاحب موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ حدده، وأنه الخضر. ورد ذلك في روايات صحيحة، أوردها الإمام البخاري في صحيحه، ونقلها عنه ابن كثير في تفسيره، ونقل طرفاً منها ـ وهو بداية إحدى الروايات ـ سيد قطب في الظلال في الحاشية.

وكان الأوْلى لسيد أن يأخذ بتحديد الرسول ـ ﷺ ـ لاسم صاحب موسى عليه السلام طالما ثبت بالحديث الصحيح الذي رواه البخاري.

روى البخاري ـ في كتاب العلم ـ عن رسول الله ﷺ ـ قوله: «بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى عبدنا خضر. . . فسأل موسى السبيل إليه فجعل الله له الحوت» آية ١: ٢٨ ـ ٣٩.

وروى البخاري ـ في كتاب التفسير ـ قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع خضر، بطولها، وكما أوردها القرآن، رواها عدة روايات عن رسول اللهُ ـ ﷺ ـ وفيها التصريح ـ أكثر من مرة بأن صاحب موسى عليه السلام هو الخضر، وهذه الروايات أخذها ابن كثير عن البخاري، وقد اطلع عليها سيد قطب عند ابن كثير قطعاً. حيث أورد بداية إحداها في الظلال. انظر صحيح البخاري ٦: ١١٠ ـ ١١٦ وقارنه مع تفسير ابن كثير ٣: ٩٢ ـ ٩٦ وانظر الظلال ٤: ٢٢٧٨ حاشية. وقد أورد ابن كثير في نهاية الروايات، الرواية التي أوردها البخاري في كتاب العلم. انظر البخاري ١: ٢٨ ـ ٢٩ مع ابن كثير ٣: ٩٦.

حلقات، والحلقة تضم آيات، وأحياناً يقسم الآية إلى أجزاء متناسقة متناسبة، فما أن ينتهي القارىء من قراءة تفسير السورة ـ بهذا التقسيم ـ حتى تبرز له وحدة موضوعية متناسقة متناسبة، ذات شخصية متميزة فريدة، وكأنها حي سوي، متناسق متناسب، جميل ساحر. . .

كان يكد الذهن ويطيل التأمل في السورة، حتى يهتدي إلى موضوعها العام، ويقف على محورها الذي يشد جميع دروسها وجولاتها وحلقاتها وآياتها. . . فإذا لم يهتد إلى الربط بين آية أو آيات وبين موضوع السورة، يطيل الوقفة التي قد تستمر سنوات[1]. . . .

وكل تفسيره يصلح مثالاً لهذا، وبخاصة السور التي أعاد تفسيرها في الطبعة المنقحة[2].

وهو في هذا متميز، والظلال بفضل هذا فريد، يمثل نقلة بعيدة جديدة في التفسير، لأنه لم يلتفت كثير من المفسرين السابقين إلى الوحدة الموضوعية للقرآن، والذين التفتوا إليها وقالوا بها، لم يلاحظوها في سور القرآن، وآيات السورة الواحدة، والذين لاحظوها ـ كالإمام البقاعي ـ لم يحسنوا بيانها وعرضها على القراء، كما فعل سيد قطب الذي وفقه الله عز وجل إلى هذا كله.

سادساً: تجاوزه عصر الخلاف الجدلي أو الكلامي:

إن تجاوز سيد في الظلال عصر الخلاف الجدلي الذي خاض فيه المتكلمون ـ على اختلاف مذاهبهم ـ يمثل قمة سامقة ارتقى بها ليكون نقلة بعيدة في التفسير. لقد تجاوز سيد الفرق والمذاهب كلها وتلقى من معين القرآن مباشرة، ومن بيان رسول الله ـ ﷺ ـ لنصوصه، وفهم الصحابة الكرام لحقائقه. . . ولهذا نحن مع الدكتور عدنان زرزور في دعوته الذين يريدون أن (ينقدوا) الظلال إلى عدم محاكمته إلى الصورة الكلامية التي في أذهانهم، أو

(١) انظر الظلال ١: ٢٣٨ و ٢: ٩٧٨ ـ ٩٧٩.

(٢) انظر على سبيل المثال الظلال ١: ٢٨ ـ ٣٥ و ١: ٣٤٩ و ٢: ١٠١٥ ـ ١٠٢٠.

مبادىء الفرقة الكلامية التي يتبعونها أو يميلون إليها. . . لأنهم إن فعلوا ذلك فسيقعون في خطأ شنيع، لأن هذه الصور الكلامية للمذاهب والفرق الكلامية كلها ـ معتزلة أو أشاعرة أو ماتريدية، خوارج أو مرجئة أو جبرية ـ ليست أصلاً تفسر في ضوئه نصوص القرآن. . . «إن آراء رجال المذاهب الكلامية ليست أصلاً تفسر في ضوئه نصوص القرآن، وليست مقرراتهم الفكرية المسبقة مقدمات ضرورية لفهم القرآن، علماً بأن هذه المقررات ليست إلا فهماً مجزءاً للنص القرآني إن الأصل عندنا لا يصير فرعاً، والفرع لا ينقلب أصلاً، إن سيداً ـ رحمه الله ـ لم يذهب مذهب الخوارج في مسألة، ولا رأي المعتزلة في مسألة أخرى، ولا رأي المرجئة في مسألة ثالثة. . ولكنه كان يستلهم النص القرآني الكريم. . »[1].

والذين يريدون أن يتعرفوا على رأي سيد قطب في العقيدة الإسلامية وأسسها ومباحثها، وأن يقوّموا هذا الرأي، يجب أن يتجاوزوا آراء الفرق والمذاهب الكلامية كلها، وأن يحاكموه إلى تقريرات القرآن نفسه، وتفسير الرسول ـ ﷺ ـ وفهم الصحابة والتابعين فقط. فإن لم يفعلوا ذلك فسيظلمون الرجل ظلماً صارخاً، ويخطئون معه خطأً شنيعاً.

ولقد كان لسيد قطب إشارات متفرقة في الظلال لقضايا علم الكلام، وتصويبات لآراء رجال المذاهب والفرق المختلفة، وبيان للخطأ الأساسي الذي وقعوا فيه ـ جميعهم ـ الخطأ في منهج فهمهم لنصوص القرآن وطريقة تعاملهم معها وتفسيرها[2].

من هذه الإشارات قوله: «والذين أثاروا قضايا القضاء والقدر والجبر والاختيار وإرادة العبد وكسبه. ليجعلوا منها مباحث لاهوتية، تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه القضية في صورتها التقريرية البسيطة. . . »[3].

---

(١) علوم القرآن لزرزور: ٤٣٠.

(٢) انظر الظلال ٢: ٩٧٨ و ٣: ١٢٠٤ ـ ١٢٠٥ و ٣: ١٣٩٣ و٦: ٣٧٥٩ و٦: ٣٩١٧ـ ٣٩١٨.

(٣) الظلال ٢: ١٠٦٦.

ونتيجة لتجاوزه عصر الخلاف المذهبي، وآراء الفرق الكلامية كلها، فقد نجح سيد قطب في حل بعض القضايا العويصة، من مباحث «علم الكلام» والبحث فيها على هدي نصوص القرآن الكريم، والنظر فيها من خلال منظاره، وعرضها على هدي تقريراته، فجاء عرضه لها واضحاً مفهوماً، بسيطاً ميسراً مقبولاً.

وأهم هذه القضايا ـ التي أشغلت المتكلمين وسودت بها صحائف كثيرة من كتب علم الكلام ـ قضية القضاء والقدر، وما يتفرع عنها من الجبر والاختيار والإرادة والكسب[1].

وقد بيَّن لنا سيد قطب الطريق التي سار فيها لفهم هذه القضية والزاوية التي نظر إليها منها... «إن تصور هذه الحقيقة يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري، وراء منطقة المنطق الذهني ـ وهي المنطقة الوحيدة التي استخدمتها الفرق الكلامية كلها في تاريخ الفكر الإسلامي، فلم توفق إلى فهمها ـ وكذلك يقتضي التعامل مع «الواقع الفعلي» لا مع «القضايا الذهنية» فالقرآن يصور الحقيقة الفعلية في الكينونة البشرية وفي الوجود الواقعي، وهذه الحقيقة يتراءى فيها التشابك بين مشيئة الله وقدره وبين إرادة الإنسان وعمله. في محيط لا يدركه المنطق الذهني كله...

فإذا قيل: إن إرادة الله تدفع الإنسان دفعاً إلى الهدى أو الضلال... لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية. وإذا قيل: إن إرادة الإنسان هي التي تقرر مصيره كله لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية كذلك! إن الحقيقة الفعلية تتألف من نِسَب دقيقة ـ وغيبية كذلك ـ بين طلاقة المشيئة الإلٓهية وسلطانها الفاعل، وبين اختيار العبد واتجاهه الإرادي، بلا تعارض بين هذه وتلك ولا تصادم..».

إن نوع الحقيقة هو الذي يحدد منهج تناولها وأسلوب التعبير عنها... وهذه الحقيقة لا يصلح لها منهج المنطق الذهني ولا القضايا الجدلية...

---

(١) انظر الظلال ٦: ٣٩١٧ ـ ٣٩١٨ و ٦: ٣٧٦٣ ـ ٣٧٦٤ و ٣: ١٨٢١.

كذلك يحتاج تصور هذه الحقيقة كما هي في واقعها الفعلي إلى تذوق كامل في تجربة روحية وعقلية. . .)[1].

إن أساس خطأ الفرق الكلامية هو أنها تعاملت مع قضية «القضاء والقدر» وما يتفرع عنها من مباحث من منطقة المنطق الذهني فقط. وقد نجح سيد قطب في معالجته هذه القضية ـ نجاحاً كبيراً اعتبرنا به ظلاله نقلة بعيدة في التفسير ـ لأنه تعامل معها تعاملاً واقعياً حياً، ونظر إليها كحقيقة فعلية لها واقع فعلي في حياة الناس. كذلك تذوق تلك الحقيقة تذوقاً كاملاً مباشراً، وعاش معها تجربة روحية وعقلية، عندما نقلته نقله بعيدة من الضياع إلى الإيمان والرضى واليقين[2].

سابعاً: إزالة التعارض الوهمي بين نصوص القرآن: ـ

«القرآن كله كلام الله تعالى، ولن يعارض بعضه بعضاً» هذه قاعدة عامة نظر سيد قطب في النصوص القرآنية ـ التي تبدو للوهلة الأولى متعارضة ـ على هديها، ونجح في إزالة هذا التعارض الوهمي، وفي بيان الانسجام والتوافق بينها، وخرج من هذا التوفيق بنتائج وحقائق وتقريرات صائبة!

وردت ـ في مجال إرادة الله وكسب الإنسان ـ هاتان الآيتان:

قال تعالى: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا: هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا: هذه من عندك. قُلْ: كل من عند الله، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً. ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك. . . ﴾[3].

لكل من هاتين الآيتين مجال تعمل فيه، وحقيقة تقررها، ولا تناقض بين هاتين الحقيقتين، ولا تعارض بين هذين المجالين.

---

(١) الظلال ٢: ١٢٠٤ وانظر الظلال ٢: ٧١٨ ـ ٧١٩.

(٢) انظر مبحثي «رحلة الضياع «ونقلة بعيدة» في كتابنا «سيد قطب الشهيد الحي».

(٣) النساء: ٧٨ ـ ٧٩.

الآية الأولى: ﴿ قل كل من عند الله ﴾ تقـرر «أن الله هو الفاعل الأول، والفاعل الواحد، لكل ما يقع في الكون، وما يقع للناس، وما يقع من الناس.. فالناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا، ولكن تحقق الفعل - أي فعل - لا يكون إلا بإرادة من الله وقدره» ولذلك تَرُد هذه الآية على المنافقين عندما نسبوا إنشاء السيئة وإيقاعها بهم للرسول - ﷺ - لأن الإنسان يحاول تحقيق الخير بالوسائل التي أرشده الله إليها، ولكن تحقق هذا الخير فعلاً يتم بإرادة الله وقدره، فهذا التحقق عمل من أعمال القدرة الإلّهية، والإنسان يحاول تحقيق السوء أو إيقاعه - بوسائله المتاحة - ولكن وقوع هذا السوء لا يتم إلا بقدرة الله وقدره ولهذا قال: «قل كل من عند الله»[1].

أما الآية الثانية: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ «فإنها تقرر حقيقة أخرى، ليست داخلة ولا متداخلة مع مجال الحقيقة الأولى......» إنها في «موضوع آخر... والنظرة إليها من زاوية أخرى...».

وذلك أن الله دل الإنسان على طريق الخير ورغّبه في سلوكه، وعرّفه بطريق الشر وحذّره منه.. فحين يسير الإنسان في طريق الخير، فإن الله يعينه على سلوكه، ويوفقـه إلى إتمامـه... والإنسان في هـذا الطريق يـظفر بالحسنة.. «ولا يهم أن يكون من الظواهر التي يحسبها الناس من الخارج كسباً.. إنما هي الحسنة فعلاً في ميزان الله تعالى.. وتكون من عند الله.. لأن الله هو الذي سن المنهج، وشرع الطريق، ودل على الخير وحذر من الشر....»[2] ولهذا كانت العبارة الأولى من الآية تقرر «ما أصابك من حسنة فمن الله...».

أما حين يحيد الإنسان عن طريق الخير، ولا يتبع منهج الله.. ويختار - طريق الشر - التي حذره الله منها -.. «حينئذٍ تصيبه السيئة، السيئة الحقيقية،

---

(١) انظر الظلال ٢: ٧١٨.
(٢) الظلال ٢: ٧١٨ - ٧١٩.

سواء في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً... ويكون هذا من عند نفسه، لأنه هو الذي لم يتبع منهج الله وطريقه....» ولهذا كانت العبارة الثانية في الآية تقرر ﴿ ما أصابك من سيئة فمن نفسك.. ﴾.

وما تقرره هذه الآية يتفق تماماً مع ما تقرره الآية التي قبلها: «فتحقق الحسنة وتحقق السيئة، ووقوعهما لا يتم إلا بقدرة الله وقدره، لأنه المنشىء لكل ما ينشأ، المحدث لكل ما يحدث. الخالق لكل ما يكون... أيا كانت ملابسة إرادة الناس وعملهم في هذا الذي يحدث، وهذا الذي يكون....»[1].

بهذا التوفيق الرائع - الذي وَفَّق الله سيد قطب إليه - وَفَّق سيد بين هذين النصين، وأزال ما بينهما من تعارض وهمي، وأعمل كلا منهما في مجاله الخاص، الذي يتناسق مع مجال النص الآخر، ويتممه ويتفق معه، وصدق الله القائل «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً...»[2].

وقد وقفنا عند هذا المثال من التوفيق بين نصين - يبدوان متعارضين - وأوردنا رأي سيد كاملاً - بتصرف وإيجاز - لأن الموضوع حسّاس وحرج، ويتناول قضية عويصة من قضايا علم الكلام، ولذلك اعتبرنا الكلام فيها متمماً للكلام في النقطة السابقة عن إرادة الإنسان وكسبه، والصلة بينها وبين إرادة الله ومشيئته الطليقة - والتي أوردنا فيها رأي سيد كاملاً بتصرف وإيجاز كذلك -.

نكتفي بهذا المثال. ونحيل على الظلال للاطلاع على توفيق سيد قطب بين نصوص أخرى، وجمعه بين مدلولاتها التي تبدو متعارضة مثل قوله تعالى: ﴿ أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلَيها قلتم أنى هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير ﴾[3] مع قوله تعالى: ﴿ وما أصابكم

(١) الظلال ٢: ٧١٩.
(٢) النساء: ٨٢.
(٣) آل عمران: ١٦٥.

يوم التقى الجمعان فبإذن الله. . . ﴾[1]. ومثل قوله تعالى: ﴿ وإن خفتم ألا تُقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيْمانكم. . . ﴾[2] مع قوله تعالى: ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ـ ولو حرصتم ـ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة. . . ﴾[3]

ثامناً: معايشته العملية لنصوص القرآن، وحركته الجهادية به، وحياته الطويلة في ظلاله:

يقف سيد قطب في طليعة المفسرين الذين عاشوا نصوص القرآن حياة عملية، وتحركوا به مع الجاهلية حركة جهادية، وقصروا حياتهم وأهدافهم على تحقيق مبادئه ومناهجه في دنيا الواقع. ولهذا نجد سيد وهو يكتب تفسيره ـ يكتبه من الميدان لا من خلف المكاتب أو وراء الجدران. وقد استصحب ـ أثناء التفسير أهداف القرآن فجعلها أهدافه، وتفسير الرسول ـ ﷺ ـ للقرآن وفهم الصحابة لآياته، فلم يخرج عنه، كما وقف على المفتاح الحركي «الذي فتح به كنوز القرآن الحركية المذخورة فيه، ومهمة القرآن الحركية الواقعية الجدية في حياة المسلمين، فدعا إلى فهمها وتبنيها والتزامها».

كما كان ـ وهو يكتب التفسير ـ صاحب قضية عملية واقعية ورجل دعوة وتجربة، ومواقف وجهاد، لذلك كان كلامه صادراً عن معاناة حقة، ومعايشة حية، وتجربة غنية، فجاء ساحراً، وجميلاً مقبولاً. . .

ولما ختم الله حياته بالشهادة، صدق فيه القول: (لقد كتب الظلال مرتين: مرة بمداد العالم ومرة بدماء الشهيد. . .).

كان سيد يعيش النصوص القرآنية قبل تفسيرها، ويطيل وقفته أمامها، خاشعاً مرتلاً، متأملاً متذوقاً، يفتح لها منافذ نفسه، وجوانح كيانه، وآفاق

---

(١) آل عمران: ١٦٦. أنظر تفسير سيد لهاتين الآيتين في الظلال ١: ٥١٤ ـ ٥١٥.

(٢) النساء: ٣.

(٣) النساء: ١٢٩. وانظر تفسير الآيتين في الظلال ١: ٥٨٢ و ٢: ٧٧٠.

خياله، ويتلقى بقلبه ومشاعره وكيانه كله، إيحاءاتها وتقريراتها، وحقائقها ومدلولاتها. . . وبعد أن يعيش هذا لنفسه ينتقل إلى الناس، لينقل إليهم ما أدركه وأحسّه وتذوقه وعاشه ولكن. . . كان ما يجده ويستشعره أضعاف أضعاف ما سجله وأثبته، وكانت ألفاظه وعباراته ـ وهو الأديب البليغ ـ تعجز عن نقل كل ما يحسّه، كان يرى البون شاسعاً، ولهذا يقول: (إن إيقاع هذا القرآن المباشر في حسّي محال أن أترجمه في ألفاظي وتعبيراتي، ومن ثم أحسّ دائماً بالفجوة الهائلة بين ما استشعره منه، وما أترجمه للناس في هذه الظلال. . .)[1].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. . . ﴾[2] وقف أمام «الكبير المتعال» وبعد أن عاشها بكيانه. . أراد نقل ما يحسّه على الورق، فوجد صعوبة بالغة في ذلك. . . (ولفظة «الكبير» ولفظة «المتعال» كلتاهما تلقي ظلها في الحسّ. ولكن يصعب تصوير ذلك الظل بألفاظ أخرى. . .)[3].

كذلك عجزت ألفاظه عن نقل كل ما يحسّه من قول الله لرسوله محمد ـ ﷺ ـ ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا. . ﴾[4] ولذلك اكتفى في تفسيره بقوله (وهو تعبير فيه إعزاز خاص، وأنس خاص. وهو يلقي ظلاً فريداً أرق وأشف من كل ظل ولا يملك التعبير البشري أن يترجم هذا التعبير الخاص. . . فحسبنا أن نشير إلى ظلاله، وأن نعيش في هذه الظلال. . .)[5].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ ذلك بأن الله هو الحق. . ﴾[6] قال: «ثم

---

(١) الظلال ٤ : ٢٠٣٨.

(٢) الرعد: ٩.

(٣) الظلال ٤ : ٢٠٤٩.

(٤) الطور: ٤٨.

(٥) الظلال ٦: ٣٤٠٢.

(٦) لقمان: ٣٠.

تبقى في النفس بقية من قوله تعالى: ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾، . . بقية لا تنقلها الألفاظ، ولا يستقل بها التعبير البشري الذي أملك. . بقية يتمثلها القلب ويستشعرها الضمير، ويحسّها الكيان الإنساني كله، ويقصر عنها التعبير!. . وكذلك «وأن الله هو العلي الكبير. . .». . . الذي ليس غيره «علي» ولا «كبير»!!! ترى قلت شيئاً يفصح عما يخالج كياني كله أمام التعبير القرآني العجيب؟ أحسّ أن كل تعبير بشري عن مثل هذه الحقائق العليا ينقص منها ولا يزيد، وأن التعبير القرآني ـ كما هو ـ هو وحده التعبير الموحي الفريد!!!)[1].

من هذه الأمور يتضح لنا أن الظلال جاء في وقته المناسب، والمسلمون المعاصرون ينتظرونه بفارغ الصبر، ولهذا ما أن ظهر ـ وبخاصة في صورته الجديدة في طبعته المنقحة ـ حتى أقبلوا عليه إقبالاً منقطع النظير، وأنه عالج مشكلات وقضايا حية يعيشونها، ووضع أيديهم على ما يحتاجون إليه، ولبى الحاجات والاهتمامات والأشواق التي يتطلعون إليها.

سيد قطب يؤسس مدرسة جديدة في التفسير:

ولهذا يعتبر الظلال لوناً جديداً خاصاً فريداً من التفسير، ونقلة جديدة بعيدة في التفسير، حوى الكثير من الموضوعات الهامة ـ التي حوتها التفاسير السابقة ـ وزاد عليها في إضافات أساسية هامة، ولذلك لا يغني عنه أي تفسير من التفاسير التي سبقته.

وإن الظلال يعتبر مدرسة خاصة في التفسير، يمكن أن نطلق عليها إسم «مدرسة التفسير الحركي» لأن المنهج الحركي ـ أو الواقعي الجدي ـ لا يوجد في غيره.

وبهذا يمكن أن نعتبر سيد قطب مفسراً موهوباً، ومؤسساً لمدرسة متميزة فريدة في التفسير، أثّرت في التفسير في العصر الحديث، وسيكون لها أثر

---

(١) الظلال ٥: ٢٧٩٦ وانظر أمثلة أخرى في الظلال ٢: ٩١٨ و٢: ١١٦٦ و٣: ١٣٦٩ و٦: ٣٧٩٠.

مباشر، ودور رئيسي في حركة التفسير في المستقبل، بل سيتجاوز هذا ليؤدي دوره في الفكر الإسلامي، وفي إقامة المجتمع الإسلامي المنشود. . .

لقد كان سيد قطب مجدداً في الظلال، حيث سار على منهج خاص، وألف الظلال لأهداف خاصة، وطرق أموراً وقضايا، وعالج مشكلات وأفكاراً، لم يطرقها المفسرون السابقون على هذا الأساس وبهذه الطريقة.

مقارنة بين الظلال وبين بعض التفاسير الأخرى:

ونختم هذا الفصل بإيراد مقارنة بين الظلال وبين أهم التفاسير السابقة، يظهر منها الظلال كمدرسة فريدة في التفسير، ونقلة بعيدة فيه، ولوناً متميزاً بين التفاسير.

لنأخذ قوله تعالى: ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض؟ قل: لله، كتب على نفسه الرحمة، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون. وله ما سكن في الليل والنهار، وهو السميع العليم. . ﴾[1].

كيف فسره الطبري - من مدرسة التفسير بالمأثور - والرازي - من مدرسة التفسير العقلي - والزمخشري - من مدرسة التفسير البلاغي - والقرطبي - من مدرسة التفسير الفقهي - ورشيد رضا - كمفسر معاصر - وكيف فسره سيد قطب في الظلال!!.

تفسير الطبري للنص:

فسر الطبري هذا النص الكريم، بأن قسّمه - على طريقته في تفسيره - إلى أربعة مقاطع جزئية. وفسر كل مقطع على حدة، واعتبره وحدة مستقلة. .

المقطع الأول: ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض؟ قل: لله، كتب على نفسه الرحمة ﴾ ابتدأ تفسيره بإيراد كلامه هو حوله. ثم أورد ما وصل إليه

---

(١) الأنعام: ١٢ - ١٣.

من أحاديث وأقوال مأثورة في تفسيره، كانت حديثاً واحد مكرراً. وأحد عشر قولاً مأثوراً عن الصحابة والتابعين.

المقطع الثاني: ﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾: تحدث عن نوع اللام، ورجح ما يراه، وأعرب الجملة على أساسه واستشهد له بنص آخر من القرآن.

المقطع الثالث: ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ أورد كلامه في تفسيره ثم بيَّن معنى الخسارة، وأعرب الجملة..

المقطع الرابع: ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ أورد كلامه في تفسيره ومعنى «سكن» وأورد قولاً مأثوراً في تفسيره[1]....

تفسير الرازي له:

أما الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب» فتناول كل آية على حدة.

الآية الأولى فيها مسألتان:

المسألة الأولى: ما تهدف إليه الآية من إثبات وجود الله، وتقرير النبوة والبعث، فهذا العالم كله مملوك لله. وبما أنه كذلك فالله قادر على البعث. فهذه الآية مقررة لمجموع المطالب في الآيات التي سبقتها. وهذا التقرير من الرازي على طريقته في الربط بين الأيات وبيان المناسبات فيما بينها...

المسألة الثانية: تساءل فيها عن سر أمر الله لرسول - ﷺ - بالسؤال وبالجواب معاً!. وبيَّن الارتباط بين كمال رحمة الله وبين ملكيته لما في السموات والأرض. وأورد قولين في المراد بهذه الرحمة وحديثاً لرسول الله - ﷺ - في سعة رحمة الله، ونظر في الحديث بمنظار «المتكلمين»!.

أما قوله: «ليجمعنكم إلى يوم القيامة» ففيه أبحاث:

---

(1) انظر تفسيره في - جامع البيان للطبري - تحقيق محمود شاكر ١١: ٢٧٣ - ٢٨٢.

الأول: نوع اللام فيها حيث رجح أنها لام القسم.

البحث الثاني: توجيه هذه الجملة نحوياً وبلاغياً. هل هي كلام مبتدأ، أو متعلقة بما قبلها؟ وما هو وجه التعلق؟

البحث الثالث: سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فيها.

المبحث الرابع: نوع «إلى» حيث أورد فيها ثلاثة أقوال.

ثم فسر قوله: ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ تفسيراً نحوياً وبلاغياً.

أما الآية الثانية: فقد فسرها في مسائل:

المسألة الأولى: إيراد ما قيل في نظمها، وارتباطها بما سبق. حيث ذكر قول أبي مسلم الأصفهاني في ذلك، وأتبعه بإضافة له.

المسألة الثانية: أن هذه الآية تعتبر حصر المخلوقات كلها وقصر ملكيتها على الله. وبيّن الوجه في ذلك.

المسألة الثالثة: أورد قولين في معنى السكون: هل هو من السكون الذي هو ضد الحركة؟ أو السكون بمعنى الحلول؟ وجَّه المعنى على كل منهما، ورجَّح الاحتمال الثاني لمعنى السكون[1]...

تفسير الزمخشري:

وأما الزمخشري فقد كان تفسيره للنص في غاية الإيجاز لا يتجاوز ثمانية أسطر!!! السر في صدور السؤال والجواب من الله. ومعنى كتب على نفسه الرحمة ـ على رأي المعتزلة من وجوب الصلاح على الله ـ سبحانه ـ وإعراب «الذين خسروا» وكيف جعل عدم إيمانهم ناتجاً عن خسرانهم، والأمر على العكس. والقول المختار في معنى «ما سكن» ـ وهو القول الذي

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١٢: ١٦٤ ـ ١٦٨.

رجحه سيد قطب في الظلال ـ وسر تعديه «بفي» وختم الآية بقوله: ﴿ وهو السميع العليم.. ﴾[1].

تفسير القرطبي له:

أما القرطبي فقد تناول الآية الأولى مع التي قبلها وفسرهما معاً.

بيّن معنى السؤال في الآية، ومعنى كتب على نفسه الرحمة. ومعنى كلمة «نفسه» وأورد حديثاً في سعة رحمة الله. ثم بيّن معنى اللام وإعراب «ليجمعنكم» ومعنى «إلى» وإعراب «الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون» ومعنى الفاء.

والآية الثانية تناولها مع ثلاث آيات تليها. أورد معنى «سكن» وأنه بمعنى ثبت وهدأ وسكن. على معنى أن السكون هو ضد الحركة، أو أنه بمعنى خلق. فهو عام في جميع المخلوقات، وقد رجحه القرطبي لأنه يجمع شتات الأقوال. مع العلم بأن السكون في اللغة له معنيان فقط. إما من السكون بمعنى ضد الحركة، أو من السكون بمعنى السكنى والحلول، فترجيح القرطبي لا يقوم على أسس لغوية، وإنما رجحه لأنه جمع شتات الأقوال كلها... والسلام!!

والملاحظ كذلك أن تفسير القرطبي للآيتين ورد موجزاً في أقل من صفحتين[2].

تفسير رشيد رضا له:

فإذا ما انتقلنا إلى تفسير المنار ـ كتفسير معاصر ـ فإننا نجد أن الشيخ رشيد رضا اعتبر النص ـ موضوع المقارنة ـ جزءاً من عدة آيات تكوِّن وحدة موضوعية واحدة وهي الآيات من ١٢ ـ ١٩ مَن سورة الأنعام.

ابتدأ رشيد رضا تفسيره للآيات بربطها بالمقطع السابق. ثم بيّن نوع

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢: ٧ ـ ٨.

(٢) انظر «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ٦: ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

السؤال ومعناه، ونوع «ما» في قوله: «قل لمن ما في السموات والأرض؟» وتحدث عن الحكمة من أمر الله لرسوله ـ ﷺ ـ بالجواب، وأورد رأياً للزمخشري ورأياً للرازي، أعقبهما بذكر إضافة له على ذلك.

ثم فسر قوله: «كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه»: بيَّن معنى «كتب» واعتبر الجمع يوم القيامة من مقتضيات الرحمة. ثم استطرد إلى الحديث عن نعم الله، والجزاء على الأعمال ـ وهو نوعان: فطري وشرعي ـ باعتبار هذا كله من رحمة الله. ثم أورد حديثاً نبوياً في سعة رحمة الله، ووعد بالتوسع في الحديث عن سعتها في تفسيره لسورة الأعراف. ثم تحدث عن نظم الجملة وإعرابها.

وفي تفسير قوله: ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ بيَّن معنى خسارة الأنفس، وتحدث عن المقلدين الذين خسروا أنفسهم لعدم استعمال نعمتي العقل والعلم، كما تحدث عن نموذج آخر ممن خسروا أنفسهم بوهن العزيمة وتذبذب الإرادة، واستدرك على الزمخشري في استشكاله على خسران النفس في الآخرة وجوابه عليه، فاعتبر الاشكال والجواب عليه في غير محله.

أما الآية الثانية: في النص موضوع المقارنة ـ فقد بيّن ارتباطها النحوي والبلاغي بالآية السابقة، وأورد معنيين محتملين في قوله: ﴿ ما سكن في الليل والنهار ﴾ ـ أنه من السكون ضد الحركة، أو من السكون بمعنى السكنى والحلول ـ وبيّن الحكمة من إفراده بالذكر مع أنه مندرج في معنى الآية السابقة، والسر في تقديم الليل على النهار في الآية. والتناسق في ختم الآية بصفتين من صفات الله دون سواهما، وهما السمع والعلم.

وبعد ما انتهى من تفسيرها. قال بأنه رجع إلى تفسير الرازي وأُعجب برأيه في بيان الحكمة من تخصيص موضوع الآية بالذكر، مع أنه يشمله موضوع الآية السابقة[1].

---

(١) تفسير «المنار» لرشيد رضا ٧: ٣٢٤ ـ ٣٣٠.

تفسير سيد قطب له:

والآن نأتي إلى الحديث عن تفسير سيد قطب للنص ـ الآيتان ١٢ ـ ١٣ من سورة الأنعام ـ اعتبر سيد الآيتين جزءاً من موجة موحدة من موجات سورة الأنعام المتناسقة المتناسبة، وهي الموجة التي تضم الآيات ١٢ ـ ١٩ من السورة.

بيّن سيد الصلة بين هذه الموجة وبين الموجة السابقة، فهي مكملة لها ومتممة لموضوعها، الموجة السابقة عرضت حقيقة الألوهية ممثلة في خلق السموات والأرض، وهذه الموجة تعرض حقيقة الألوهية ممثلة في الملك والفاعلية، وهي تعرض حقيقة الألوهية لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي، ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقيقة في الحياة البشرية من توحيد الولاية والتوجه، وتوحيد الاستسلام والعبودية..

اعتبر سيد هذا النص (١٢ ـ ١٣) يمثل موقف المواجهة بين الرسول ـ ﷺ ـ وبين المشركين، المواجهة للبيان والتقرير، ثم المفاصلة... ولذلك يوجهه التوجيه السليم في هذه المواجهة... ويرى سيد بأن الآية تقرر حقيقة لم يجادل بها أو ينكرها المشركون ـ وهي ملك الله لما في السموات والأرض ـ ولذلك فالعرب الجاهليون أرقى ـ في هذا الجانب ـ من الجاهلية «العلمية» الحديثة!! وعرَّج على المعاصرين الذين ينازعون الله ـ سبحانه ـ حق الحاكمية، منكراً عليهم هذا...

ثم فسر قوله: ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ فبيِّن معنى كتب ـ بعباراته السلسة ـ واستخرج من هذه الجملة مقوماً من مقومات التصور الإسلامي، وهي الرحمة التي تعتبر قاعدة قضائه في خلقه، ومعاملته لهم في الدنيا والآخرة. فهي الصلة بين الله وبين عباده. ورحمة الله في قضاء الله في عباده، حتى عندما يبتليهم بالضراء... واعتبر أن تلمس مواضع رحمة الله ومظاهرها يستغرق الأعمار والأجيال، لأن العباد كلهم مغمورون في فيوضات الرحمة في كل لحظة من لحظات حياتهم.

كذلك استوقف سيد قطب في ذلك النص: «كتب ربكم على نفسه

الرحمة» ـ تفضل الله ـ سبحانه ـ بأن يجعل رحمته بعباده، مكتوبة عليه، كتبها هو على نفسه، وعناية الله بعباده وتفضله باخبارهم بما كتبه على نفسه، واعتبر سيد أن تدبر هذه الحقيقة يدع القلب في عجب وفي دهش، وفي أنس وفي روح، لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه... أما آثار هذه الحقيقة في القلب والمشاعر، فليس موكولاً إلى التعبير البشري لتصويره، لأن القلب المسلم يتذوقه ويعجز عن تعريفه!!..

وهذه الإحالة من سيد على القلوب لتتذوق النصوص وحقائقها، واعترافه بعجز التعبير البشري عن التعريف والتحديد، تصور لنا حالة سيد أثناء التفسير، وتعامله مع النصوص، وأهدافه العملية من الظلال، ومنهجه التربوي الوجداني في تفسيره...

ثم تعرض إلى الحديث عن الرحمة ـ كمقوم من مقومات التصور الإسلامي ـ باعتبار تصورها يكوّن جانباً أساسياً من تصور حقيقة الألوهية، وعلاقة العباد بها. ثم قارن هذا التصور ـ الجميل المطمئن الودود اللطيف ـ مع التصور الكنسي النصراني المحرف...

ثم أشار إلى لمحات من مواضع ومظاهر رحمة الله التي تتجلى فيها، لمحات للتمثيل لا للمتابعة والحصر، لأنها تتجلى في كل لحظة من لحظات حياة البشر.. واللمحات التي أشار إليها ستة: في وجود البشر، وفي ما سخره الله لهم، وفي تعليم الله لهم، وفي رعايته لهم وإرساله الرسل بالهدى والنور، وفي تجاوز الله عن الذنوب بالتوبة، وفي مجازاته عن السيئة بمثلها...

وبعد هذه الإشارات قال: «والإقصار منا عن متابعة رحمة الله في مظاهرها، وإعلان القصور والعيّ عنها، هو أجدر وأولى. وإلا فما نحن ببالغين من ذلك شيئاً! وإن لحظة واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد المؤمن، فيتصل به، ويعرفه ويطمئن إليه ـ سبحانه ـ ويأمن في كنفه، ويستروح في ظله... إن لحظة واحدة من هذه اللحظات لتعجز الطاقة

البشرية عن تمليها واستجلائها، فضلاً على وصفها والتعبير عنها)[1].

وبعد هذه الفقرة ـ التي اعترف فيها سيد بأن ما يجده في كيانه من آثار رحمة الله لا يمكن أن يوصف، وبعجزه عن متابعة مظاهر تلك الرحمة في لحظة، والتي دعا فيها القارىء إلى أن يعيشها ويتذوقها كما فعل هو ـ انتقل إلى حديث رسول الله ﷺ ـ فأورد أربعة أحاديث صحيحة ـ عند الشيخين ـ في تصوير الرحمة وتقريبها للقلوب. وحديثاً فيه تعليم عملي من الرسول ـ ﷺ ـ لأصحابه، وأربعة أحاديث يدعوهم فيها إلى التخلق بها فيما بينهم، وأربعة أحاديث يدعوهم فيها إلى أن يرحموا كل حي من المخلوقات الأخرى. فيكون مجموع الأحاديث التي أوردها في تفسير هذا الجزء من الآية. ثلاثة عشر حديثاً!!!.

وما زال عند سيد بقية من الحديث عن الرحمة، لذلك أشار ـ إشارة سريعة كي لا يخرج من نطاق الظلال إلى قضية مستقلة ـ إلى أهم الآثار العميقة الناتجة عن استقرار حقيقة الرحمة في تصور المسلم، وهي التي تظهر في حسّه وفي حياته وفي سلوكه، وقد أورد آثاراً ثلاثة.

ثم انتقل إلى تفسير قوله: ﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ واعتبره من مواضع رحمة الله، باعتبار عدل الله في حسابه لعباده فيه. وأشار إلى سر التوكيدات المختلفة التي أكدت فيها الجملة.

أما ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ فهو تعبير دقيق عن حالة واقعة، فالكافرون خسروا كل شيء بسبب كفرهم! فطرتهم وأنفسهم ومواهبهم وعقولهم.. ولهذا لم يؤمنوا رغم توافر دلائل الإيمان وموحياته..

وأخيراً انتقل إلى تفسير قوله: ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ﴾ واختار رأي الزمخشري في تأويل «ما سكنُ» وأنه من السكنى، وبيّن وجه ارتباطها مع الآية السابقة، وأنها متممة لها: ففي الآية الأولى استقصى الخلائق من ناحية المكان.. وفي هذه الآية استقصى الخلائق من ناحية

---

(١) الظلال ٢: ١٠٥٠.

الزمان.. وهذا هو التأويل الذي نطمئن إليـه في الآيتين من بين شتى التأويلات...».

وختم تفسيره ببيان التناسق والتناسب في ختـم الآية بصفتي السمع والعلم. فهذا الختام يفيد الإحاطة بالخلائق كلها، وهو كذلك يمهد للآيات التالية التي تقصر الولاية والولاء على الله وحده...[1]

من هذه المقارنة ـ التي طالت قليلاً ـ يظهر لنا طريقة كل من الطبري والـرازي والزمخشري ورشيد رضا وسيد قطب الملتزمة بمنهج كل منهم في التفسير. ويظهر لنا تفرد سيد قطب في منهجه وطريقته في تفسير النص ـ موضوع المقارنة ـ وأنه تجاوز اهتمامات ومعالجات ومناقشات السابقين، وطرق أموراً ومسائل ولفتات خاصة، تتفق مع هدفه من الظلال ومنهجه فيه... وأنه لم يلتقِ مع من سبقه في منهج ولا في طريقة ـ إلا لقاءات عرضية مع الزمخشري، ومع رشيد رضا، في بعض اللفتات ـ.

ونخرج من هذا الفصل بنتيجة قاطعة صادقة: إن الظلال تفسير، وإنه لون جديد في التفسير، وإنه نقلة بعيدة جديدة في التفسير، وإن صاحبه يقف في طليعة المفسرين، و يعتبر مؤسساً لمدرسة جديدة وأصيلة في التفسير، مدرسة «التفسير الحركي»!!!.

(١) في ظلال القرآن ٢: ١٠٤٦ ـ ١٠٥٣.

الفصل السابع

الفروق المنهجية
بين طبعتي الظلال

طبع الظلال ـ في حياة سيد قطب ـ ثلاث طبعات:

الطبعة الأولى: صدر الجزء الأول منها في أكتوبر «تشرين أول» عام ١٩٥٢، وأصدر بعد ذلك عدة أجزاء من هذه الطبعة ـ لا ندري عددها! ـ ولما نفدت نسخ هذه الطبعة من السوق، اضطر الناشر إلى أن يعيد نشر تلك الأجزاء. وانتهت هذه الطبعة في مطلع عام ١٩٥٣.

الطبعة الثانية: ظهر الجزء الأول منها في جمادى الآخرة، ١٣٧٢ هـ، وفق فبراير «شباط» عام ١٩٥٣[١].

ولا فرق بين الطبعتين ـ الأولى والثانية ـ لا في المقدمة التي كتبها سيد، حيث كانت مقدمة الطبعة الثانية هي مقدمة الطبعة الأولى بالحرف. ولهذا قال فيها «مقدمة الطبعة الأولى، ولم أجد ما يدعو إلى زيادة شيء عليها»[١].

ولا فرق بينهما في التفسير، فلا تزيد الثانية إلا بتعليقات نادرة في الهوامش[٢]. ومن أجل هذا اعتبرها سيد قطب: طبعة مكملة للطبعة الأولى[٣].

---

(١) الظلال ـ الطبعة الثانية ١ : ٧.

(٢) المرجع السابق ٢ : ٨٥.

(٣) الظلال ـ الطبعة الثالثة ١ : ٢٣٨.

وقد طال إصدار هذه الطبعة - بسبب الظروف القاسية التي عاشها سيد قطب - ولم تكمل إلا في أواخر الخمسينيات. حيث صدر الجزء الثلاثون - الأخير - منها عام ١٩٥٩[1].

الطبعة الثالثة: بدأ في إصدارها بمجرد انتهائه من الطبعة الثانية - المتممة للأولى - حيث ظهر الجزء الأول منها عام ١٩٥٩ أيضاً[2]. واستمر يصدر أجزاء هذه الطبعة، وما أن جاء عام ١٩٦٥ حتى كان قد أصدر ثلاثة عشر جزءاً من الظلال.

وهذه الطبعة كان يطلق سيد عليها «الطبعة المنقحة»[3] وقد حيل بينه وبين إتمام هذه الطبعة المنقحة، بسبب إقدام الطغاة في أرض الكنانة على إزهاق روحه الطاهرة.

وبما أنه لا فرق بين الطبعة الأولى وبين الطبعة الثانية المكملة لها، فسوف نعتبرهما طبعة واحدة. وهي الطبعة الأولى.

وبما أن سيد قطب أطلق على الطبعة الثالثة اسم «الطبعة المنقحة» فسنطلق عليها نفس الاسم أيضاً. وهناك فروق منهجية وجوهرية بين الطبعتين: الأولى، والمنقحة. وسوف نبين في هذا الفصل أهم هذه الفروق بعون الله.

سبب وجود الفروق بينهما:

وسبب وجود هذه الفروق هو منهج سيد قطب الذي سار عليه في كل طبعة منهما، وهذا المنهج يختلف في الطبعة المقنحة عنه في الطبعة الأولى.

كذلك كان لاهتماماته العملية، ومكاسبه وخبراته، والجو العام الذي كتب الظلال فيه، والملابسات والظلال التي عاشها، كان لكل هذا أثر في وجود هذه الفروق بين الطبعتين، وفي اختلاف طبيعة كل منهما وأهدافها.

---

(١) النشرة المصرية للمطبوعات من عام ٩٥٥ - ١٩٦٠ رقم ٦٧٧.

(٢) المرجع السابق. رقم ٦٧٨.

(٣) انظر الظلال ٣: ١١٨٦. و ١٣٨٤. و ١٦٢٧.

وقد بينا في مبحث «الظلال في مراحل تأليفه» المراحل الأربع التي مر بها «الظلال» وسبب وجود هذه المراحل، والتغيير الذي طرأ على الظلال فيها، وتحدثنا عن اهتمامات ومكاسب سيد في تلك المراحل، والجو العام الذي كان يعيشه سيد وهو يكتب الظلال، وحالته ونفسيته في ذلك الجو[1].

أما منهج سيد قطب في كل من الطبعتين، فسوف نتحدث عنه بالتفصيل في الكتاب القادم ـ إن شاء الله ـ ولكنا سنقول هنا كلمة سريعة عن هذا المنهج.

لقد تطور منهج سيد قطب في نظرته إلى القرآن وتفسيره، وتعامله معه، تطور بحسب اهتمامات صاحبه ومكاسبه وتجاربه وخبراته وحياته..

فهو منهج فني جمالي كما يظهر في كتابيه: التصوير الفني في القرآن. و«مشاهد القيامة في القرآن» وهو منهج فكري كما يظهر في «العدالة الاجتماعية في الإسلام» والظلال في طبعته الأولى. وهو منهج حركي في الطبعة المنقحة للظلال.

أولاً: الفروق في مقدمة كل منهما:

ونستطيع أن نقف على منهج سيد الفكري في الطبعة الأولى من خلال مقدمته القصيرة التي كتبها له. لأن الكاتب الناجح يعطي القارىء صورة سريعة مجملة شاملة لكتابه من خلال مقدمة الكتاب.. إننا نستطيع أن نجمل مقدمة الطبعة الأولى في ما يلي:

خلاصة مقدمة الطبعة الأولى:

١ ـ معنى العنوان «في ظلال القرآن» ودلالته على صلته بالقرآن، وتعامله معه، واسترواحه الحياة في ظلاله.. وإعمال نظراته وتأملاته في نصوصه، وخروجه من هذا بخواطر متناثرة: في العقيدة. وفي النفس، وفي الحياة، وفي الناس. وكان يكتفي بأن يعيشها في كيانه. فهذا هدفه

---

(١) انظر مبحث «الظلال في مراحل تأليفه» في هذه الرسالة.

من الحياة في تلك الظلال - في تلك الفترة.

٢ - بيّن بداية الكتابة في الظلال، وتسجيل تلك الخواطر، وذلك حين بدأ ينشرها في مجلة «المسلمون» تحت ذلك العنوان المثير «في ظلال القرآن». . ثم انتقاله للخطوة التالية وهي إصدار الظلال في أجزاء متتابعة. والعيش فترات في ظل القرآن كله. . وتسجيل كل ما يخالج نفسه وهو يستروح جو القرآن ويعيش في ظلاله.

٣ - بيّن طبيعة الظلال، وأنها لا تعدو أن تكون خواطر فكرية. . خواطر شتى بدون ضابط. . «وبعد فقد يرى فريق من قراء هذه «الظلال» أنها لون من تفسير القرآن. وقد يرى فريق آخر أنها عرض للمبادىء العامة للإسلام كما جاء بها القرآن. وقد يرى فريق ثالث أنها محاولة لشرح ذلك الدستور الإلّهي في الحياة والمجتمع، وبيان الحكمة في ذلك الدستور. . أما أنا فلم أتعمد شيئاً من هذا كله، وما جاوزت أن أسجل خواطري وأنا أحيا في تلك الظلال. . »[1].

٤ - بيّن خطته في كتابه تلك الخواطر. . فهو حريص على ألا يغرق نفسه في بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية، أو الاستطراد إليها - كما فعل مفسرون سابقون - لأنه اعتبر تلك البحوث حجاباً بين روحه وبين القرآن. . أما ظلاله فإنه يدور فيها حول النص القرآني، ويسجل ما يوحيه القرآن من خواطر روحية أو اجتماعية أو إنسانية.

٥ - بيّن أن من أهدافه في هذه الطبعة التركيز على الجمال الفني في القرآن. . «كذلك حاولت أن أعبر عما خالج نفسي من إحساس بالجمال الفني العجيب في هذا الكتاب المعجز، ومن شعور بالتناسق في التعبير والتصوير. . »[1] وقد كانت إحدى أمنياته منذ أن ألف كتاب «التصوير الفني في القرآن» أن يعرض القرآن كله على أساس المنهج الفني الجمالي. وأنها كمنت أو توارت ثماني سنوات حتى ظهرت في الظلال.

٦ - أما طريقته في الظلال فتقوم على عرض كل مجموعة من الآيات يربط

---

(١) الظلال - الطبعة الأولى ١ : ٦.

بينها سبب خاص، ويظللها ظل خاص، عرضها في صورة درس قرآني. . . وتتكون السورة من عدة دروس[1].

وهذه المقدمة تدل على منهج سيد قطب في تفسير معظم القرآن في الطبعة الأولى، ولم يتغير منهجه إلا في الأجزاء الثلاثة الأخيرة فقط.

خلاصة مقدمة الطبعة المنقحة:

أما مقدمة الطبعة المنقحة للظلال، فإنها تختلف عن مقدمة الطبعة الأولى اختلافاً جوهرياً، وهي كذلك صادقة في الدلالة على منهج سيد في الطبعة المنقحة.

بدأ مقدمته بفقرة شاعرية مؤثرة، بيّن فيها أن «الحياة في ظلال القرآن نعمة، نعمة لا يعرفها إلا من ذاتها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه. .»[2] وحمد الله أنْ منّ عليه بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذاق فيها من نعمة الله هذه ما لم يذق قط في حياته. . فرفعت عمره وباركته وزكته. . .

بيّن فيها طريقته في التعامل مع القرآن، ومنهجه في فهمه وتفسيره، والمفتاح العجيب الذي فتح به كنوزه المذخورة، ووقف على غرضه الأساسي ومهمته الحركية. «لقد عشت أسمع الله ـ سبحانه ـ يتحدث إليّ بهذا القرآن. .»[1].

أهم مكاسبه من الحياة في ظلال القرآن:

بيّن فيها أهم مكاسبه من الحياة في ظلال القرآن، وما استفاده منها:

أ ـ الشعور بتكريم الله للإنسان تكريماً علوياً جليلاً. لأنه جعله أهلاً لسماع كلامه وتلاوة آياته. .

ب ـ الشعور باستعلاء الإيمان في قلبه، واستخفافه بالجاهلية، ووضعها في مكانها الطبيعي. .

---

(١) انظر المقدمة كاملة في الطبعة الأولى من الظلال ١: ٥ ـ ٧.

(٢) الظلال: الطبعة المنقحة ١: ١١.

جـ - إدراك خصائص التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، ومقارنته بالتصور الجاهلي . .
د - إدراك الصلة بين الإنسان والكون والشريعة الكونية، والإحساس بالتناسق الجميل بينها . .
هـ - الوقوف على حقيقة الوجود الكبرى، الشامل للغيب والشهادة، وسعة تصوره له. وأثره على كيانه . . .
و - كرامة الإنسان عند الله، ومقارنة هذا بمهانته وإهانته في التصور الجاهلي . .
ز - إدراك وحدة الرسالات والرسل، والخروج من هذا بعراقة نسب المؤمن وامتداده، وحركة العقيدة في التاريخ . .
ح - رؤية واقعية عملية للتقدير الإلٓهي لكل ما يحدث في الكون، وطلاقة المشيئة الإلٓهية، والصلة بينها وبين الأسباب.
ط - حالته النفسية بعد ما عاش في ظلال القرآن وتفاعل مع نصوصه.
ى - معايشة العقيدة ومباحثها معايشة عملية واقعية، واستشعار الإيجابية العملية لصفات الله . .
ك - الوقوف على المنهج الحركي العملي لدين الله، عقيدة وشريعة، وإدراك المنهج التربوي المتدرج في القرآن.
ل - إدراك القيم الحقة وصلتها بالوجود وآثارها فيه مثل: الحق والخير والصلاح والإحسان[1] . .

وكان يطلعنا على آثار هذه الحقائق التي أدركها وعاشها وتفاعل معها، آثارها على تصوره ونفسه ومشاعره وأحاسيسه وحياته . . وهي مكاسب ضخمة من حياته الطويلة، مكاسب في التصور والفكر، في الدعوة والجهاد، في الحركة والتربية . . .

أهم النتائج التي خرج بها من الحياة في ظلال القرآن:

خرج سيد من حياته الطويلة في ظلال القرآن بنتائج يقينية قاطعة،

---

(١) انظر بيان سيد لهذه المكاسب في المقدمة ١ : ١١ - ١٤.

وحقائق إيمانية صادقة هادية، آمن بها وعاشها، ووقف حياته على إقرارها وبيانها، والالتزام بها والدعوة إليها، فصارت هي رسالته ودعوته، وجعل تحقيقها في عالم الوجود المادي - في حياة البشرية - وظيفته وغايته..

ولذلك أشار في المقدمة إلى أهم هذه النتائج والحقائق:

أ - ضرورة الرجوع بالبشرية كلها إلى الله ودينه ومنهجه، إن أريد لها الصلاح والخير..

ب - الصورة الوحيدة للرجوع إلى الله، هي العودة بالحياة كلها إلى دين الله. وتحكيمه في كافة شؤون الحياة..

جـ - الحاكمية الإلّهية وأصالتها في هذا الدين وارتباطها بالعقيدة والإيمان..

د - تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدث هائل، ونكبة قاصمة، لا نظير لها في تاريخ البشرية كله..

هـ - الصورة الوحيدة للصلاح، والطريق الوحيد للهدى، والمجال الوحيد للسعادة، في تحكيم هذا الدين وإلا فهو الفساد...

و - مقارنة بين الخير والصلاح الذي عاشته البشرية في ظلال القيادة الإيمانية، وبين الشر والفساد الذي تعيشه في ظلال القيادة الجاهلية.

ز - الدورات الحضارية بين الإسلام والجاهلية، وتداولهما قيادة البشرية، والمعنى الحقيقي للجاهلية..

ح - الاتفاق والانسجام بين العلم الصحيح والدين القويم، ولا تصادم أو اختلاف أو صراع بينهما...

ط - الذين يحولون بين البشرية وبين منهج الله، هم عصابة من المضللين الخادعين أعداء البشرية نفسها..

ى - تصنيف الناس الذين يستجيبون لدعوات أعداء البشرية، ويسمعون لشبهاتهم، فهم إما أعداء متآمرون، أو سذج مخدوعون..

ك - الارتباط والتناسق بين سنن الله الإيمانية، في كتابه، وبين سننه الكونية في هذا الكون، ارتباط وتناسق في الطريق والنتيجة، والدور والآثار.. وإخضاع الظواهر المخالفة في ظاهرها لهذا التناسق..

ل ـ بيان الدور الإيجابي المؤثر للإسلام عقيدة وشريعة ومناهج حياة.. وآثاره الفاعلة الإيجابية في حيـاة البشرية واعتباره ـ من ثم ـ شريعة كونية.

م ـ المادية الجاهلية ـ التي تسلمت قيادة البشرية في هذه الدورة، تقودها حتماً إلى الضياع والفساد، وهي أشبه ما تكون بطائر يرف بجناح واحد جبار، بينما جناحه الآخر مهيض[1].

وهذه النتائج والحقائق عظيمة وأصيلة وصادقة، وتحقيقها في الحياة يحقق سعادتها ولذلك جعلها محور حديثه في الظلال، وتفسيره لنصوص القرآن الكريم.

من هذا التلخيص المجمل لمقدمة الطبعة الأولى للظلال، ولمقدمة طبعته المنقحة، ومكاسب سيد من الحياة العملية في ظلال القرآن، والنتائج والحقائق التي خرج بها، يتبيّن لنا من كل هذا كيف أن منهج سيد وهدفه وطريقة التفسير عنده، تختلف في المنقحة عنها في الطبعة الأولى.

وهناك ـ بالإضافة إلى الفروق في المقدمة ـ فروق أخرى جوهرية بين الطبعتين منها:

ثانياً: التقديم للسور والتعريف بها:

لم يكن من منهج سيد ولا من طريقته أن يقدم للسورة التي يفسرها، ولا أن يعرف بها، ولا أن يبين الجو العام الذي نزلت فيه، أو الملابسات التاريخية لنزولها، أو الحقائق التي تضمها، والأهداف التي تحققها، والقضايا التي تبحثها.. لم يفعل هذا في السور الأولى التي فسرها في الطبعة الأولى.

ولذلك كان يدخل في التفسير التفصُيلي لنصوص الدرس الذي يفسره مباشرة.

هذه طريقته في تفسير سورة البقرة[2]. حيث لم يقدم لها أو يعرف بها،

---

(١) انظر هذه النتائج في مقدمة الظلال ١: ١٥ ـ ١٨.

(٢) الظلال ـ الطبعة الأولى ـ ١: ١٤ ـ ١٥

وإنما عرف بالدرس الأول تعريفاً سريعاً موجزاً لا يتجاوز نصف صفحة[1]! وهذه هي طريقته في تفسير سورة آل عمران[2].

أما سورة النساء فقد تكلم في بداية تفسيرها كلمة سريعة لا تصلح أن تكون تقديماً لها[3]. وكذلك فعل في بداية تفسير سورة المائدة[4].

أما سورة الأنعام فقد قال ـ في بداية تفسيرها ـ كلمة سريعة حول المكي والمدني وطبيعة سورة الأنعام. وهذه الكلمة كذلك لا تصلح أن تكن تقديماً للسورة أو تعريفاً بها[5].

وصار يتوسع في التقديم للسور التي يفسرها ـ في الطبعة الأولى ـ قليلاً قليلاً.. على هدي نظراته الجديدة في القرآن.. ومكاسبه وخبراته من الحياة في ظلاله.

ولذلك نراه فيما بعد منتصف القرآن يقدم للسورة ويعرف بها بصورة أوسع وأعمق. فسورة الكهف يغلب عليها القصص. ومحورها الموضوعي هو «تصحيح العقيدة» وتصحيح منهج النظرة والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة..»[6].

وسورة مريم يدور سياقها على محور التوحيد، والقصص مادتها.. ولها جو خاص يظللها. هو ظل الرحمة والرضى والاتصال[7]..

تعريفه بالسور في الأجزاء الأخيرة من الطبعة الأولى:

فإذا ما تابعنا سيرنا مع الظلال في طبعته الأولى، إلى الأجزاء الأخيرة ـ

(١) الظلال ـ الطبعة الأولى ـ ١: ١٤ ـ ١٥.
(٢) المرجع السابق ٣: ٥٢.
(٣) المرجع السابق ٤: ٨١.
(٤) المرجع السابق ٦: ٢٥.
(٥) المرجع السابق ٧: ٤١ ـ ٤٣.
(٦) الظلال ـ الطبعة المنقحة ٤: ٢٢٥٧.
(٧) الظلال ٤: ٢٢٩٩ ـ ٢٣٠٠.

التي نعتقد أنه ألفها على منهجه الحركي الجديد في التفسير - فإننا نراه يتوسع في التعريف والتقديم لها، وملاحظة جو نزولها وغير ذلك . .

فالجزء الثامن والعشرون في نظر سيد مخصص للحديث عن أحداث السيرة في المجتمع المدني، وتربية الجماعة المسلمة الناشئة في المدينة . . إن سور هذا الجزء صادقة الدلالة على المنهج التربوي الحركي الإسلامي كما طبق على جيل التأسيس من الصحابة الكرام.

ولهذا فنحن سنشهد في هذا الجزء «طرفاً من تلك الجهود الضخمة، وطرفاً من الأسلوب القرآني كذلك في بناء النفوس، وفي علاج الأحداث والعادات والنزوات، كما نشهد جانباً من الصراع الطويل بين الإسلام وخصومه المختلفين من مشركين ويهود ومنافقين . .»[1].

ولكل سورة من سور هذا الجزء شخصية مستقلة، وموضوع رئيسي، ومحور أساسي . . . فسورة المجادلة تمثل «صورة من رعاية الله للجماعة الناشئة، وهو يصنعها على عينه، ويربيها بمنهجه، ويشعرها برعايته[1] . .

وسورة الممتحنة «حلقة في سلسلة التربية الإيمانية والتنظيم الاجتماعي للدولة[2].

وسورة الصف تستهدف «أن تقرر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلـهي للبشرية في صورته الأخيرة . .» وشعوره بهذه الحقيقة . . «يستتبع شعوره بتكاليف هذه الأمانة شعوراً يدفعه إلى صدق النيّة في الجهاد لإظهار دينه على الدين كله . . .»[3].

وسورة الجمعة مرتبطة بسورة الصف ومتناسقة معها، مع احتفاظها بشخصيتها المستقلة . . «وهي تعالج الموضوع الذي عالجته سورة الصف،

---

(١) الظلال ٦: ٣٥٠٣.

(٢) الظلال ٦: ٣٥٣٦.

(٣) الظلال ٦: ٣٥٥٠.

ولكن من جانب آخر وبأسلوب آخر، وبمؤثرات جديدة..»[1].

أما الجزء الثلاثون فهو جزء فريد في طابعه وموضوعاته وصوره وظلاله وأسلوبه.. ولذلك عرَّف به سيد تعريفاً فنياً وبلاغياً وموضوعياً بصورة عامة، ثم عرف بكل سورة من سوره تعريفاً مفصلاً.. وتعريفه بهذا الجزء وسوره على طريقته في التعريف بالسور في الطبعة المنقحة.

إن سور هذا الجزء: «طرقات متوالية على الحسّ، طرقات عنيفة قوية عالية. وصيحات. صيحات بنوَّم غارقين في النوم!... إصحوا. إستيقظوا. أنظروا تلفتوا. تفكروا. تدبروا... إن هنالك إلهاً. وإن هنالك تدبيراً. وإن هنالك تقديراً. وإن هنالك ابتلاءً. وإن هنالك تبعة.... وهكذا مرة أخرى. وثالثة ورابعة.. وخامسة.. وعاشرة...»[2].

تعريفه بالسور في الطبعة المنقحة:

أما في الطبعة المنقحة فقد سار سيد على طريقة جديدة في تفسير السور تقوم على تقديمه لها، وتعريفه بها تعريفاً شاملاً، تعريفاً موضوعياً، وتعريفاً بلاغياً، وتعريفاً فنياً، وتعريفاً منهجياً، وتعريفاً حركياً، وتعريفاً تاريخياً.... وهو في هذا التعريف والتقديم يعطي القارىء صورة صادقة، مجملة شاملة موجزة، عن السورة التي يقرؤها.. وإن تعريفه بالسور في الطبعة المنقحة، يصلح أن يكون تفسيراً موضوعياً موجزاً شاملاً، ولو نشره صاحبه مستقلاً لأغنى القراء وأفادهم. ولو نشر في كتاب مستقل ـ بأمانة علمية وموضوعية منهجية ـ لأفاد القراء في إعطائهم صورة عن كل سورة، وبخاصة للمتعجلين عن قراءة الظلال الموسع المطول...

سورة البقرة ـ التي لم يقدم لها في الطبعة الأولى ـ قدم لها، وعرَّف بها تعريفاً شاملاً في حوالي تسع صفحات.. أدرك شخصيتها المنفردة،

---

(1) الظلال ٦: ٣٥٦٢.

(2) الظلال ٦: ٣٨٠٠

وموضوعاتها المتناسقة، والمحور المزدوج الذي يجمع هذه الموضوعات، كذلك تحدث مطولاً عن الملابسات التاريخية لنزولها، والجو العام الذي نزلت فيه.. وخط سير الدعوة الإسلامية أثناء نزولها.. ووقف وقفات حركية عميقة عند السيرة النبوية، وخرج بنظرات صائبة، وتحليلات صادقة. ووقف عند حديث هذه السورة عن الطوائف في مجتمع المدينة.. وعند بنائها للجماعة المسلمة الوليدة.. وبيَّن سر حديثها المفصل عن بني إسرائيل ومواقفهم مع أنبيائهم، ومواقفهم من أنبيائهم... وبيّن التناسق بين بدء السورة وختامها، وتجمع موضوعاتها كلها بين صفات المؤمنين وخصائص الإيمان[1]..

وسورة آل عمران ـ التي لم يقدم لها كذلك في الطبعة الأولى ـ عرَّف بها تعريفاً شاملاً في اثنتي عشرة صفحة.. بدأ تقديمه لها عن هذا القرآن، ومهمته العملية الجهادية، ودوره الحركي المتجدد، ومنهجه الواقعي الجدي في العمل، وصلاحيته للعمل في كل زمان ومكان..

ثم تحدث عن سورة آل عمران.. عن الملابسات التاريخية لنزولها. وعن كونها تمثل قطاعاً حياً من حياة الجماعة المسلمة من بعد غزوة بدر ـ في السنة الثانية للهجرة ـ إلى ما بعد غزوة أحد ـ في السنة الثالثة ـ والملابسات المختلفة في هذه الفترة الزمنية.. وعلاجها الناجح المعجز لحياة الصحابة في تلك الفترة.. وحياة وحيوية النصوص وطلاقتها من قيد الزمان والمكان.. وحلل فئات مجتمع المدينة تحليلاً مفصلاً.. ولاحظ التطورات على المجتمع الإسلامي.. ثم بين كيف أن السورة تسجل حوادث المعركة بين الإسلام والجاهلية.. في جانبيها النظري ـ المتمثل في الحوار مع نصارى نجران ـ والعملي ـ المتمثل في غزوة أحِد ـ ثم بيانها لسمات عباد الله وطريقهم.. وقد لاحظ سيد ببصيرته النافذة ونظراته الثاقبة أن سورة آل عمران تبين بوضوح وتوكيد ثلاثة خطوط عريضة.. تتناثر نقطها في السورة كلها

---

(١) انظر تقديم سيد لسورة البقرة في الظلال ١ : ٢٧ ـ ٣٥.

وتتجمع وتتركز في مجموعها. . . ولا يتم التعريف المجمل بالسورة إلا ببيان تلك الخطوط. .

الخط الأول: بيان معنى «الدين» ومعنى «الإسلام».

الخط الثاني: تصوير حال المؤمنين مع ربهم، واستسلامهم له، وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع. .

الخط الثالث: التحذير من ولاية غير المؤمنين، والتهوين من شأن الكافرين[1].

أما تعريفه بسورة الأنعام ـ كنموذج للقرآن المكي ـ فإنه من المعالم البارزة على منهجه في التعامل مع سور القرآن والتقديم لها والتعريف بها، ونفَسه الطويل في هذا التقديم وهذا التعريف. . . ولو قارنا بين تقديم السورة في الطبعتين الأولى والمنقحة ـ لوجدنا هذا الفرق بين الطبعتين واضحاً.

ففي الطبعة الأولى عرّف بها في صفحة وبعض صفحة. خصص نصف التعريف للمقارنة بين المكي والمدني من حيث طبيعة كل منهما وموضوعاته، وصوره وظلاله وخصائص التعبير والتصوير والعرض.

ثم عرف في أقل من صفحة ـ بسورة الأنعام، موضوعها هو موضوع العقيدة، ولطريقتها في عرض خصائص العقيدة، وأساليب العرض فيها للتأثير والحياة والحيوية[2].

أما في الطبعة المنقحة فإن تعريفه بالسورة دقيق وشامل، وعميق ومطوّل، ومنهجي وحركي. . ففي ست وعشرين صفحة من القطع الكبير، تناول سيد عدة موضوعات مترابطة حول القرآن المكي وطبيعته وموضوعاته.

وأهم موضوعات التعريف بسورة الأنعام في الطبعة المنقحة هي:

١ ـ الموضوع الرئيسي للقرآن المكي طوال الفترة المكية هو العقيدة فقط[3].

---

(١) انظر تقديم سيد لسورة آل عمران في الظلال ١: ٣٤٨ ـ ٣٥٩.

(٢) الظلال ـ الطبعة الأولى ـ ٧: ٤١ ـ ٤٣.

(٣) الظلال ٢: ١٠٠٤ ـ ١٠٠٥.

٢ ـ الحكَم من اقتصار القرآن المكي على العقيدة، ودروس وعبر من ذلك للدعاة في كل زمان ومكان[١]. واستخراج دلالات حركية صائبة. من هذا الطريق الذي سلكه القرآن رغم وجود طرق أخرى ـ احتمالية ـ أسهل وأهون!

٣ ـ السر في تركيز القرآن على العقيدة ـ كأصل ـ دون التطرق إلى تفصيلات النظام الذي يقوم عليها، والخروج من هذا بدلالات حركية للدعاة في كل زمان ومكان. والتعريج على أثر العقيدة ودورها في حياة الفرد والجماعة[٢]. .

٤ ـ طريقة القرآن المكي في عرض العقيدة، وأساليبه الربانية في عرضها، وسر إيثاره لهذه الطريقة، ومقارنة هذه الطريقة بطريقة المتكلمين من المسلمين البشرية في عرض العقيدة. . والدعوة إلى الالتزام بالطريقة القرآنية العملية الحيوية الحركية الصائبة. . والتحذير من تحويل العقيدة من حركة إيجابية حية عملية، إلى صورة نظرية لاهوتية عقلية. . والدعوة إلى تفهم منهج القرآن في الدعوة والحركة، وفي الفكر والتصور، لأنه منهج رباني لا بدّ من الالتزام به وسلوكه. . وبيان دلالات هذه الطريقة على الواقعية الحركية في العقيدة والشريعة والمنهج والعمل، والدعوة والحركة[٣]. . .

٥ ـ الحديث عن سورة الأنعام، وانطباق مواصفات القرآن المكي عليها، وبيان شخصيتها المتميزة، حيث تمثل «الروعة الباهرة» في لمحاتها ومواقفها ومشاهدها. روعة «تبده النفس، وتشده الحسّ، وتبهر النفس» روعة تبلغ حد البهر الذي يبهر القلب.

وقد شبه سيد السورة بالنهر الجاري ـ وشبه آياتها ومقاطعها بالموجات المتلاحقة. . «وهي تشبه ـ في سياقها المتدافع بهذه المشاهد

---

(١) المرجع السابق ٢ : ١٠٠٥ ـ ١٠٠٩.
(٢) المرجع السابق ٢ : ١٠٠٩ ـ ١٠١١.
(٣) الظلال ٢ : ١٠١١ ـ ١٠١٥.

والمواقف والموحيات، والإيقاعات والصور والظلال ـ مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة، ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها، متشابكة معها، في المجرى المتصل المتدفق!»[1]... كل هذا بتناسق في منهج العرض، وفي الإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي[2].

٦ ـ التعريف بالموضوع الأساسي في السورة ـ موضوع العقيدة ـ ومباحثه وموضوعاته الجزئية المتناسقة معه. وطريقتها في عرض حقائق هذا الموضوع ومناقشتها له[3]..

٧ ـ التعريف التاريخي بالسورة، ومناقشته ما قيل عن وجود آيات مدنية فيها، ورد ذلك[4]..

٨ ـ عرض نماذج من موجاتها المتناسقة المتلاحقة، واستحالة تقسيمها إلى دروس أو موضوعات مستقلة[5]..

٩ ـ عرض نماذج من نصوصها في تناولها لموضوعها، وعرضها له الذي يبلغ حد الروعة الباهرة[6].

١٠ ـ عرض نماذج من مشاهدها ومواقفها المنوعة بحيويتها وتناسقها التعبيري والموضوعي[7]..

ونظراً لطبيعة السورة الخاصة فقد آثر أن يعرضها موجة موجة لا درساً درساً ـ كما فعل مع سور قبلها وسور بعدها..[8]

---

(١) الظلال ٢ : ١٠١٦.
(٢) الظلال ٢ : ١٠١٥ ـ ١٠١٧.
(٣) الظلال ٢ : ١٠١٩ ـ ١٠٢٠.
(٤) الظلال ٢ : ١٠٢٠ ـ ١٠٢٢.
(٥) الظلال ٢ : ١٠٢٢ ـ ١٠٢٥.
(٦) الظلال ٢ : ١٠٢٥ ـ ١٠٢٧.
(٧) الظلال ٢ : ١٠٢٧ ـ ١٠٢٩.
(٨) الظلال ٢ : ١٠٢٩.

ثالثاً: تقسيم السور إلى دروس والتعريف بها:

كان سيد يقسم السور إلى دروس، تقسيماً موضوعياً. فكل درس يعتبر وحدة موضوعية متناسقة، مكوّن من مقاطع جزئية متناسقة فيما بينها، ومتناسقة مع موضوع الدرس العام، وهذا التقسيم من إبداعاته المتفردة في الظلال..

وهذه الدروس اختلفت في الطبعة المنقحة عنها في الطبعة الأولى، من حيث عدد آياتها، فهي في المنقحة تحوي آيات أقل ـ وأحياناً آيات أكثر ـ عن الآيات التي حوتها في الطبعة الأولى..

فدروس الجزء الأول من سورة البقرة ـ مثلاً ـ في الطبعة الأولى كانت كالتالي:

الدرس الأول: الآيات من ١ ـ ٢٥[١].
الدرس الثاني: الآيات من ٢٦ ـ ٣٩[٢].
الدرس الثالث: الآيات من ٤٠ ـ ٦٦[٣].
الدرس الرابع: الآيات من ٦٧ ـ ٧٤[٤].
الدرس الخامس: الآيات من ٧٥ ـ ٩٦[٥].
الدرس السادس: الآيات من ٩٧ ـ ١٠٣[٦].
الدرس السابع: الآيات من ١٠٤ ـ ١٢٣[٧].
الدرس الثامن: الآيات من ١٢٤ ـ ١٤١[٨].

---

(١) الظلال ـ الأولى ـ ١: ١٣ ـ ١٤.
(٢) المرجع السابق ١: ٢٣ ـ ٢٤.
(٣) المرجع السابق ١: ٣٢ ـ ٣٤.
(٤) المرجع السابق ١: ٤٣ ـ ٤٤.
(٥) المرجع السابق ١: ٤٩ ـ ٥١.
(٦) المرجع السابق ١: ٦١.
(٧) المرجع السابق ١: ٦٦ ـ ٦٧.
(٨) المرجع السابق ١: ٨١ ـ ٨٢.

أما دروس الجزء الأول من سورة البقرة - نفسه - في الطبعة المنقحة فكانت كالتالي:

الدرس الأول: الآيات من ١ - ٢٩[١].
الدرس الثاني: الآيات من ٣٠ - ٣٩[٢].
الدرس الثالث: الآيات من ٤٠ - ٧٤[٣].
الدرس الرابع: الآيات من ٧٥ - ١٠٣[٤].
الدرس الخامس: الآيات من ١٠٤ - ١٢٣[٥].
الدرس السادس: الآيات من ١٢٤ - ١٤١[٦].

ولعل السبب في تفاوت حجم الدروس، وتداخلها من حيث نصوصها، هو ما استفاده من حياته الطويلة في ظلال القرآن، وما اهتدى إليه من مهمة القرآن وأغراضه، وطبيعته ووظيفته، وما سار عليه من تعريف بالسور ودروسها، وبيان الوحدة الموضوعية في موضوعاتها، وإظهار التناسق الفني والتناسب الموضوعي فيها. وما عزم اتباعه في طبعته المنقحة من حيث المنهج والطريقة...

كذلك سار على طريقة جديدة في المنقحة وهي التقديم للدرس الذي ينوي تفسيره، والتعريف به، من حيث موضوعه العام، وموضوعاته الجزئية المتناسبة معه، وإظهار الوحدة الموضوعية فيه.. والملابسات التاريخية لنزول نصوصه وما فيه من أسباب النزول... وغير ذلك.

بينما كان في الطبعة الأولى يدخل في تفسير نصوص الدرس مباشرة

---

(١) الظلال - الطبعة المنقحة ١: ٣٦ - ٣٧.
(٢) المرجع السابق ١: ٥٤ - ٥٥.
(٣) المرجع السابق ١: ٦٢ - ٦٣.
(٤) المرجع السابق ١: ٨١ - ٨٢.
(٥) الظلال - المنقحة - ١: ٩٨ - ٩٩.
(٦) المرجع السابق ١: ١٠٩ - ١١٠.

بدون تعريف أو تقديم، أو يقدم للدرس بعبارات موجزة وقصيرة جداً[1]..

أما التفسير المفصل لنصوص الدرس، فهذا يختلف اختلافاً جوهرياً في الطبعة المنقحة. وهذا الاختلاف طبيعي عندما نعرف هدفه من الطبعة الأولى، ومنهجه في تفسيرها، وطريقته في ذلك. وهدفه من الطبعة المنقحة، ومنهجه وطريقته في تفسيرها. ومن المعروف أن منهجه في الأولى فكري جمالي، ومنهجه في المنقحة حركي تربوي جهادي..

ولذلك يتناول في الأولى مسائل فكرية وقضايا فنية، وأموراً ثقافية، وخواطر نفسية وفكرية... بينما في المنقحة نراه يتوسع في الحديث عن الوحدة الموضوعية للسورة ودروسها، وعن الصور الفنية المتناسقة فيها، وعن الأسلوب والإيقاع، والظلال والإيحاءات.. وعن مهمة القرآن التربوية العملية، ومنهجه الحركي الواقعي الجدي، وطريقته في عرض موضوعاته وحقائقه وتقريراته.. ركز حديثه عن العقيدة ومباحثها، ومستلزماتها ومقتضياتها، وبخاصة الألوهية والحاكمية، والربوبية والعبودية، وآثار العقيدة الإيجابية.. كما بيَّن ملامح المجتمع الإسلامي الأول، وتعامل الصحابة مع النصوص وتفاعلهم معها.. وأطلعنا على الحياة والحيوية في النصوص القرآنية، وعلى منهج تعاملنا مع القرآن ووقوفنا على كنوزه المذخورة.. ووقف به في وجه المادية الجاهلية. ووضح منه معالم الطريق أمام الدعاة. وتحدث عن ما يهمهم ويهم دعوتهم.. وكل الطبعة المنقحة مثال لما نقول!!.

رابعاً: بيان الملابسات التاريخية للنصوص:

من حيث أسباب النزول، والجو العام للنزول، وأحداث السيرة النبوية وتعامل الصحابة مع النصوص، وملاحظة سير المجتمع الإسلامي الأول، ونشأته وحياته من خلال النصوص.

---

(١) قارن الأولى ١: ١٤ ـ ١٥. و ٢٥. و ٣٥. و ٤٤. و ٥١ ـ ٥٢. و٦٨. و٨٣ـ ٨٤. مع المنقحة ١: ٣٧ ـ ٣٨ و٥٥ ـ ٥٦ و٦٣ ـ ٦٤. و٨٣ ـ ٨٤ و٩٩ ـ ١٠٠. و١١٠ ـ ١١١ على الترتيب.

وهذا البيان يتفق مع هدفه من الطبعة المنقحة للظلال، ويتفق مع منهجه الحركي في تفسيره. . لذلك ركز على أسباب النزول، وإيراد أكثر من سبب أحياناً، وبيان دلالات هذه الأسباب على مجتمع الصحابة وعلى المجتمعات الإسلامية فيما بعد[1].

كذلك كان حريصاً على بيان الجو العام الذي نزلت فيه السورة أو نصوصها وزمان نزولها، وحالة الجماعة المسلمة واحتياجاتها. .

فسورة آل عمران - على سبيل المثال - «تمثل قطاعاً حياً من حياة الجماعة المسلمة في المدينة من بعد غزوة بدر - في السنة الثانية من الهجرة - إلى ما بعد غزوة أحد - في السنة الثالثة - وما أحاط بهذه الحياة من ملابسات شتى في خلال هذه الفترة الزمنية. وفعل القرآن - إلى جانب الأحداث - في هذه الحياة، وتفاعله معها في شتى الجوانب»[2].

وسورة النساء امتد نزولها زمناً طويلاً حيث «امتد بعد غزوة أحد في السنة الثالثة الهجرية، إلى ما بعد السنة الثامنة حين نزلت مقدمة سورة الممتحنة»[3].

وسورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن، ولذلك فهي ذات أهمية خاصة في بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطواته. . .

ويقرر سيد أن السورة نزلت بجملتها في العام التاسع للهجرة. . لكن ما هي وسائله التي استند إليها واعتمد عليها في هذا التقرير؟ يخبرنا عنها محدداً لها بأنها «مراجعة نصوص السورة مراجعة موضوعية، ومراجعة ما جاء في الروايات المأثورة عن أسباب النزول وملابساته، ومراجعة أحداث السيرة النبوية»[4].

---

(١) انظر - للتمثيل - الظلال ١: ١٢٠ - ١٢٩. و١: ١٤٨ - ١٤٩. و١٩٢ - ١٩٣. و٣٦٢ - ٣٦٤.

(٢) الظلال ١: ٣٤٩ - ٣٥٠ وانظر تفصيله لتلك الفترة ٣٥٠ - ٣٥٧.

(٣) الظلال ١: ٥٥٤ وانظر ملامح المجتمع الجاهلي في تقديم سيد للسورة ٥٥٥ - ٥٥٩.

(٤) الظلال ٣: ١٥٦٤ وانظر حديثه عن أسباب ومظاهر «النقاء» و«الخلخلة» في المجتمع الإسلامي في تقديم السورة ٣: ١٥٧٠ - ١٥٧٨.

وسورة هود - مع سور أخرى مكية معها - نزلت في فترة خاصة من فترات الدعوة الإسلامية في مكة، وهي «الفترة الحرجة» بل هي من أحرج الفترات وأشقها التي مرت بها، وهي فترة الحصار في شِعْب أبي طالب، وموت خديجة رضي الله عنها وموت أبي طالب، ووقوع حادث الإسراء، وجرأة قريش على رسول الله - ﷺ - وإيذاؤه، وارتداد بعض من أسلم، وبلوغ الحرب المعلنة بين الإسلام والجاهلية في مكة أقسى وأقصى مداها، وتجمد حركة الدعوة في مكة. . . .

«في هذه الفترة نزلت سورة هود ويونس قبلها، وقبلهما سورة الإسراء، وسورة الفرقان. . »[١].

وكان سيد يعقد - أحياناً - مقارنات بين السور، من حيث جو نزولها وموضوعها وسياقها وصورها وظلالها، وحقائقها وتقريراتها وإيحاءاتها. . فسورة الأنعام تشابه سورة يونس في الموضوع وفي طريقة عرضه، وتنفرد الأنعام عنها في إيقاعها ونبضها وصورها. وسورة الأعراف تشابه سورة هود في الموضوع والعرض والنبض والإيقاع. . مع وجود أوجه شبه بين الأنعام والأعراف، وبين يونس وهود، ونقاط اختلاف كذلك[٢]. .

أما أحداث السيرة النبوية، التي لا توجد عنها في الطبعة الأولى إلا إشارات خاطفة، فهي في المنقحة معروضة عرضاً منهجياً، ومن مصادرها الموثوقة، مع تحليلات واستنتاجات حركية، وعبر وعظات دعوية عملية. . هكذا فعل مع أحداث غزوة بدر في سورة الأنفال[٣]. وأحداث غزوة أُحد في سورة آل عمران[٤]، وأحداث غزوة تبوك[٥]، وغزوة حنين[٦] في سورة التوبة وغير ذلك.

(١) الظلال ٤ : ١٨٤٠. وانظر حديثه عن ملامح تلك الفترة في الظلال ٤ : ١٨٤٠ - ١٨٤٣.
(٢) الظلال ٣ : ١٧٤٥ - ١٧٤٦. و ٤ : ١٨٤٤.
(٣) الظلال ٣ : ١٤٥٣ - ١٤٦٩.
(٤) الظلال ١ : ٤٥٧ - ٤٦٧. وانظر بيانه لأهم الدروس من غزوة أُحد ١ : ٥٢٦ - ٥٣٣.
(٥) الظلال ٣ : ١٧٢٣ - ١٧٣٣.
(٦) الظلال ٣ : ١٦١٦ - ١٦١٨.

خامساً: البيان المفصل لخصائص التصور الإسلامي ومقوماته من خلال نصوص القرآن الكريم:

والحديث المسهب عن العقيدة وقضاياها ومباحثها، وإيحاءاتها وتقريراتها وحقائقها، وعرض حركتها الواقعية الإيجابية في التاريخ الإنساني، هذه الحركة المتمثلة في رسالات الأنبياء - عليهم السلام - ومواقفهم مع أقوامهم، وصراعهم مع الكفار، والمعركة بينهم وبينهم، وتحقق سنة الله في نجاتهم ومن آمن معهم، وهلاك أعدائهم..

والحديث عن حقيقة الإيمان وأركانه وقيمه ومظاهره، وبيان دوره الإيجابي في الحياة البشرية، حياة الفرد والجماعة، وبيان صفات المؤمنين ونماذجهم السامقة..

والربط المتناسق بين العقيدة وبين الشريعة والمناهج والنظم والتوجيهات، وبيان آثار العقيدة في حياة الفرد والمجتمع، وأهمية الربط بينها وبين النظم لضمان الالتزام بتلك النظم وحياتها وحيويتها.. ودعوة الدعاة للتركيز على العقيدة وأن تكون هي نقطة البدء في مناهج دعوتهم[1]...

سادساً: التركيز على معالجة القضايا الحركية، وطرق الأمور الدعوية:

والخروج من هذا بعبر وعظات، ودلالات واستنتاجات، وحقائق وتقريرات تهم الدعاة العاملين... وبيان الطريق إلى الله، وتوضيح معالمه، والتزود بزاده. وملاحظة هذا في إيحاءات النصوص التي يفسرها، واستغلال أدنى مناسبة ليدخل في هذه المسائل ويبينها.. وبيان الواقع المعاصر للدعوة ومشكلاتها مع أعدائها والتلميح إلى وضعه هو وإخوانه في مصر، والدروس المستفادة منه..

---

(١) انظر - على سبيل المثال - الظلال ١: ٣٩ - ٤٠. و١: ٢٨٦ - ٢٩٠. و٢: ١٠٠٩ - ١٠١٥. و٢: ١٠٤٦ - ١٠٥٩ و٢: ١١٠٨ - ١١١١. و٣: ١٧٨٨ - ١٧٩٤.

كذلك الاهتمام بالأمور التربوية، ورسم الطريق لتربية الدعاة وصياغتهم ونشأتهم وحركتهم بالإسلام[١]. .

سابعاً: الوقوف في وجه المادية الجاهلية المعاصرة.

التي تسلمت قيادة العالم المعاصر ـ ونقد تصوراتها وقيمها ومناهجها، وتعرية واقعها ومجتمعها ورجالها، وبيان عداوتها الحاقدة ضد الحركة الإسلامية وحربها القذرة ضدها، واتفاق أطرافها وفئاتها في هذه الحرب. . وقيادة الفكر الإسلامي المعاصر، والحركة الإسلامية المعاصرة للهجوم على تلك المادية الجاهلية الطاغية.

وإدخال القرآن المعركة مع الجاهلية، ومجاهدتها به، وبيان دوره الحركي ومهمته العملية، وواقعيته الجدية، وتقريراته وحقائقه وحيويته فيها. . . واستخراج أسباب المعركة ضد الحركة الإسلامية من نصوصه وتقريراته، وبيان أسلحة المعركة ورجالها وميدانها وغايتها ونهايتها لصالح الحركة الإسلامية ـ إن أحسنت الاستفادة من تقريرات القرآن وأدخلته المعركة[٢].

ثامناً: الالتزام بالمنهجية، والاتصاف بالعلمية والتوثيق:

حيث رجع في المنقحة إلى المصادر الأساسية الموثوقة في المسألة واستقى من الموارد الرئيسية ـ وقد بينا هذا في فصل «موارد الظلال» من هذا الكتاب ـ والتركيز على التفسير النبوي للقرآن ـ النظري والعملي ـ والاستشهاد بالكثير من الأحاديث الصحيحة ـ وبيان فهم الصحابة للقرآن وحركتهم به[٣]. .

---

(١) انظر الظلال ١: ١٢٦ ـ ١٣٢. و ٤٣٧ ـ ٤٥٠. و ٥٢٦ ـ ٥٣٣. و ٢: ٩٠٧ ـ ٩١٧. و ٢: ١٠٨٢ ـ ١٠٨٤. و ١١٠٥ ـ ١١٠٧.

(٢) انظر الظلال ١: ٢٢٣ ـ ٢٢٨. و ٣٤٨ ـ ٣٤٩. و ٢: ٩٢٢ ـ ٩٢٧. و ٩٥٩ ـ ٩٦٢ و ١٠٣١ ـ ١٠٣٤. و ١١١٥ ـ ١١٢١.

(٣) انظر الظلال ١: ٦٨٦ ـ ٦٩٩. و ٨٨٨ ـ ٩٠٥. و ١٠١٥ ـ ١٠٢٠. و ٣: ١٢١٥ ـ ١٢١٧ و ٣: ١٤٣١ ـ ١٤٥٢. و ٤: ١٩٠٢ ـ ١٩٠٥.

(٤) انظر الظلال ١: ١٦٩ ـ ١٧٠. و ٢: ١٠٥٠ ـ ١٠٥٢. وانظر فصل «موارد الظلال».

خاتـمَة

نقف الآن لنلخص في هذه الخاتمة أهم النتائج التي خرجنا بها من هذا الكتاب، نعرضها أمام القارىء الكريم مذكرين بها لأهميتها:

١ - إن تفسير «في ظلال القرآن» لم يكتب من فراغ، ولا لملء وقت الفراغ، وإنما كتبه صاحبه من الميدان الجهادي. حيث خاض مع الجاهلية معركة شديدة قاسية، استخدم فيها كتاب الله يجاهدهم به جهاداً كبيراً.

٢ - إن سيد قطب عاش جواً إيمانياً وهو يكتب الظلال. فقد كان يعيش مع القرآن الكريم بسوره وآياته وكلماته، يتلقى منها معاني كثيرة، وينعم بالحياة المباركة في ظلالها.. لقد كان مغموراً برحمة الله في السجن، ووفقه الله للتكيف فيه، وتحويل ما فيه من محنة إلى منحة، فازداد علمه وإيمانه ويقينه... وكان كلامه في الظلال ثمرة من ثمار هذا العلم والخير والعطاء.. فلا يُسمع كلام بعض الشانئين والمنحرفين والمشوهين، في اتهام سيد في نفسيته ومشاعره، أو علمه وعطائه، أو سلامة تفكيره واتزان نظراته وصواب أحكامه وتقريراته.

٣ - أن سيد عندما اختار لتفسيره هذا العنوان الفريد «في ظلال القرآن» كان يعيه ويعنيه تماماً، فإن هذا العنوان مرتبط ارتباطاً مباشراً مع نظريته حول «الصور والظلال في العمل «الأدبي» والقيم الشعورية والتعبيرية فيه. وأن للقرآن الكريم ظلالاً وارفة تحوي الكثير من العلوم والمعارف، والمعاني والحقائق والتقريرات.

٤ ـ إن الظلال تفسير، وإنه لون جديد من التفسير، وإنه نقلة جديدة بعيدة في التفسير، وإنه لا يغني عنه أي تفسير. . . ومن هنا ندرك خطأ المقولة التي يرددها البعض ـ بخبث ودهاء أو بحسن نيّة ـ إن الظلال ليس تفسيراً، ولا يصح أن نعتبره كذلك، بل إن سيد نفسه لم يعتبره تفسيراً، لأنه أطلق عليه هذا الاسم، الذي يعني ـ عند هؤلاء ـ أنه مجموعة من الخواطر والمشاعر والعواطف والانفعالات ليس إلا. وقد خصصنا فصلاً مطوّلاً من الكتاب للرد على هؤلاء وعرضنا الأدلة على أنه نقلة جديدة بعيدة في التفسير. ولذلك يصح أن يسمى تفسير هذا العصر الذي لا يستغنى عنه من يعيش فيه!!.

٥ ـ لسيد قطب أهداف خاصة توخاها من كتابة «الظلال» ـ استخرجناها من الظلال وعقدنا لها فصلاً خاصاً في الكتاب ـ وهي تتفق مع الأغراض الأساسية للقرآن. . . وأهداف الظلال تربوية تعليمية، دعوية حركية، واقعية جدية بالدرجة الأولى، وليست «تثقيف» المسلم المعاصر بزاد ثقافي موسوعي شامل. ومن ثم صح اعتبار الظلال دليلاً عملياً مكتوباً لصياغة الشخصية الإسلامية المتكاملة، وبيان الطريق إلى الله سبحانه.

٦ ـ تلقى سيد ـ وهو يكتب الظلال ـ من معين القرآن الثري النقي الصافي، واستمد منه أفكاره وآراءه وكانت المصادر والموارد عنده ثانوية يعود إليها للتصحيح أو الاستدراك أو الاستشهاد.

٧ ـ الموارد التي استقى منها سيد ـ في المرحلة الثانية بعد تلقيه عن القرآن ـ وفيرة، والمصادر التي أخذ منها عديدة مختلفة. كما يظهر من فصل «موارد الظلال» من هذا الكتاب. فمصادر المادة التفسيرية فيه زادت على عشرة كتب، وليس تفسير ابن كثير فقط ـ كما رددت بعض الإشاعات!!.

٨ ـ عاش سيد الظلال كله، بروحه وشعوره ونفسه وكيانه كله. عاشه لحظة لحظة، ولفظة لفظة ـ كما يقول الأستاذ محمد قطب في تصديره لطبعة دار الشروق للظلال ـ. ولقد أحس القراء الصدق في الظلال ـ الصدق القولي والعملي ـ فأقبلوا عليه إقبالاً خاصاً، وصدق أستاذ الدكتور أحمد حسن

فرحات عندما وصف الظلال بأن سيد كتبه مرتين: مرة بمداد العالم، ومرة بدماء الشهيد.

٩ ـ تبين لنا خطأ الإشاعات التي أطلقت حول الظلال وصاحبه وأنها سرعان ما تلاشت أمام البحث العلمي... وأدركنا خطورة إصدار أحكام من قبل أناس لا يتصفون بالعلمية أو الموضوعية، ولا يطلعون إطلاعاً وافياً شاملاً على ما يتحدثون عنه. مثل أولئك الذين اتهموا سيد في ظلاله ـ بعدم اعتباره تفسيراً ـ أو أهدافه منه، أو مصادره وموارده ووسائله فيه، أو اتهموه في نفسيته وعقليته وتفكيره.. ولعلنا نكون مصيبين مع هؤلاء إذا استعرنا لهم قول الحطيئة للزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

١٠ ـ حذرنا في الكتاب من إقبال البعض على الظلال يجمعون منه موضوعات خاصة، وينشرونها في كتب على أنها أفكار سيد قطب في الظلال، ـ كما فعل أحمد فايز في طريق الدعوة واليوم الآخر ودستور الأسرة، وكما فعل المدعو عبد الله ياسين في التربية الإسلامية ـ وبينا أن هذا العمل لا يستقيم مع تفسير كالظلال، ولا يمكن نقل الأفكار وإيحائها. وظلالها من الظلال، ولا استقصاء الموضوع الواحد في الظلال... ولهذا يخرج الكتاب ناقصاً من الناحية الموضوعية، وخالياً من التوثيق العلمي، وليس صادقاً في عرض كلام سيد وفكره ورأيه من الظلال، بل هو ممزوج بكلام الآخرين ـ كما برز في اليوم الآخر ودستور الأسرة لأحمد فائز ـ...

فإذا كان هؤلاء الجامعين يريدون خدمة قارىء الظلال، بتسهيل تناوله للموضوع الواحد في الظلال، فإن الحل يكون في الفهرسة الموضوعية الشاملة للظلال، وليس في أمثال هذه الكتابات. وأرجو الله أن يعينني على القيام بهذه الفهرسة، وأن يوفقني في إتقانها وإجادتها..

وفي الختام أتوجه إلى الله ـ وحده سبحانه ـ بهذا العمل، راجياً منه

القبول والأجر والثواب، راغباً في المزيد من عونه وفضله وتوفيقه، عائذاً به من فتنة القول والعمل، متبرئاً من كل حول وطول.. فهو المستعان المعين. وهو حسبي ونعم الوكيل..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثبت المراجع

١ - اتجاهات التفسير في العصر الحديث. للدكتور عبد المجيد المحتسب. دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٧٣.

٢ - الإسلام والحضارة الغربية. للدكتور محمد محمد حسين. المكتب الإسلامي - بيروت ١٩٧٩.

٣ - أوضح التفاسير لمحمد محمد عبد اللطيف. ابن الخطيب.
المطبعة المصرية ومكتبتها. الطبعة السادسة ١٩٦٤.

٤ - أيام من حياتي. لزينب الغزالي
دار الشروق. الأولى ١٩٧٨.

٥ - الإيمان لابن تيمية. تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني
المكتب الإسلامي - الطبعة الثانية ١٣٩٢.

٦ - الإيمان: حقيقته. أركانه. نواقضه. للدكتور محمد نعيم ياسين. الطبعة الثانية: ١٩٧٩. عمان.

٧ - التسهيل لعلوم التنزيل. لابن جزي الغرناطي
تحقيق: محمد عبد المنعم اليونسي وإبراهيم عطوة عوض. دار الكتب الحديثة - مصر - بدون تاريخ.

٨ - التصوير الفني في القرآن. لسيد قطب
دار الشروق - بدون تاريخ

٩ - التعبير الفني في القرآن. للدكتور بكري شيخ أمين
دار الشروق - الطبعة الثانية: ١٩٧٦.

١٠ - التفسير الفريد للقرآن المجيد. للدكتور محمد عبد المنعم الجمال
دار الكتاب الجديد - القاهرة. بدون تاريخ

١١ ـ تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار. للشيخ محمد رشيد رضا
دار المنار بمصر ـ الطبعة الرابعة ١٩٥٤.
١٢ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير
طبعة مصورة عن طبعة المكتبة التجارية الكبرى. بدون تاريخ.
١٣ ـ التفسير القرآني للقرآن. لعبد الكريم الخطيب.
دار الفكر العربي بمصر ـ الطبعة الأولى ١٩٦٧.
١٤ ـ التفسير الكبير لفخر الدين الرازي.
دار الكتب العلمية ـ طهران ـ الطبعة الثانية
١٥ ـ تفسير المراغي. لأحمد مصطفى المراغي
مكتبة مصطفى الحلبي بمصر. الرابعة ١٩٦٩.
١٦ ـ التفسير والمفسرون. للدكتور محمد حسين الذهبي
دار الكتب الحديثة. القاهرة. الطبعة الأولى: ١٩٦٢.
١٧ ـ التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي.
دار الكتاب العربي بمصر. الطبعة الرابعة ـ ١٩٦٠.
١٨ ـ تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم. لعبد الجليل عيسى
القاهرة ـ بدون تاريخ
١٩ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. لمحمد بن جرير الطبري.
تحقيق وتعليق محمود شاكر.
دار المعارف بمصر ـ بدون تاريخ.
٢٠ ـ الجامع لأحكام القرآن. لأبي عبد الله القرطبي
طبعة مصورة عن طبعة دار الكتاب العربي بمصر ـ ١٩٦٧.
٢١ ـ الجواهر في تفسير القرآن الكريم. للشيخ طنطاوي جوهري.
مكتبة مصطفى الحلبي بمصر. الطبعة الأولى ـ ١٣٥٠ هـ.
٢٢ ـ حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوي.
عناية محمد علي دولة. دار القلم: ١٩٦٨.
٢٣ ـ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. لسيد قطب.
دار الشروق ـ بدون تاريخ.
٢٤ ـ رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب. ليوسف العظم
دار القلم ـ دمشق. الطبعة الأولى: ١٩٨٠.

٢٥ ـ روح المعاني لمحمود شكري الآلوسي.
دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ مصورة عن مصر.
٢٦ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية
راجعه وقدم له: طه عبد الرؤوف سعد
مكتبة مصطفى الحلبي بمصر ـ الطبعة الأولى: ١٩٧٠.
٢٧ ـ سيد قطب الشهيد الحي. لصلاح عبد الفتاح الخالدي
مكتبة الأقصى ـ عمان. الطبعة الأولى ـ ١٩٨١.
٢٨ ـ السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق مصطفى السقا وزميليه..
طبعة مصطفى الحلبي بمصر ـ ١٩٣٦.
٢٩ ـ شرح العقيدة الطحاوية. للحنفي أو الملطي
المكتب الإسلامي ـ الطبعة الرابعة ـ ١٣٨١ هـ.
٣٠ ـ صحيح البخاري ـ للإمام البخاري.
طبعة محمد علي صبيح ـ بدون تاريخ
٣١ ـ صفوة البيان لمعاني القرآن لحسنين محمد مخلوف
دار الكتاب العربي بمصر. الطبعة الأولى ـ ١٩٥٦.
٣٢ ـ صفوة العرفان في تفسير القرآن. لمحمد فريد وجدي
مطبعة الشعب ـ القاهرة ـ ١٣٢١ هـ.
٣٣ ـ علوم القرآن: مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه. للدكتور عدنان زرزور.
المكتب الإسلامي ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨١.
٣٤ ـ فتح القدير للشوكاني.
دار الفكر ـ بيروت ـ الطبعة الثالث ـ ١٩٧٣.
٣٥ ـ الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير. ليوسف النبهاني
دار الكتب العربية لعيسى الحلبي. مصر ـ ١٩٣٢.
٣٦ ـ في ظلال القرآن. لسيد قطب.
دار إحياء الكتب العربية لعيسى الحلبي. مصر ـ الطبعة الأولى ـ بدون تاريخ.
٣٧ ـ في ظلال القرآن. لسيد قطب.
دار الشروق ـ الطبعة الخامسة ـ ١٩٧٧.

٣٨ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير. لعبد الرؤوف المناوي.
دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٧٢.
٣٩ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لجار الله الزمخشري.
وبهامشه الانتصاف من الكشاف لابن المنير.
دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٦٨.
٤٠ ـ لماذا اغتيل الإمام الشهيد حسن البنا. لعبد المتعال الجبري.
دار الاعتصام بالقاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٨.
٤١ ـ مجلة حضارة الإسلام. دمشق.
السنة السابعة. عدد ٨. كانون ثاني ١٩٦٧.
السنة العشرون. عدد ١. ربيع أول ١٣٩٩ هـ.
٤٢ ـ مجلة الرسالة. القاهرة.
السنة الرابعة عشرة. مجلد ٢ عدد ٦٩٦ تاريخ ٤ نوفمبر ١٩٤٦.
٤٣ ـ مجلة العالم العربي . القاهرة.
العدد الثاني. ١٣٦٣ هـ.
٤٤ ـ مجلة المجتمع ـ الكويت.
عدد: ٥٣٢. يونيو ١٩٨١.
عدد: ٥٥١. نوفمبر ١٩٨١.
٤٥ ـ مجلة المسلمون. القاهرة.
مجلد ١. عدد ٩. يوليو ١٩٥٢.
٤٦ ـ مجلة المسلمون. لندن.
عدد: ١١. تاريخ ١٣ ربيع أول ١٤٠٢ هـ.
٤٨ ـ مجلة المقتطف. القاهرة.
مجلد ٩٤. الجزء الثاني. فبراير ١٩٣٩.
مجلد ٩٤. الجزء الثالث. مارس ١٩٣٩.
٤٩ ـ مشاهد القيامة في القرآن. لسيد قطب.
دار الشروق. بدون تاريخ.
٥٠ ـ المصحف المفسر. لمحمد فريد وجدي.
دار الشعب ـ مصر. بدون تاريخ.

٥١ ـ معالم في الطريق. لسيد قطب.
دار دمشق ـ بدون تاريخ.
٥٢ ـ مقدمات تفسير القرآن. للإمام الشهيد حسن البنا
مكتبة حطين ـ بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٧٣.
٥٣ ـ المنتخب من تفسير القرآن. وضع واختيار لجنة القرآن والسنة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. مصر. الطبعة الثالثة ١٩٧٣.
٥٤ ـ الموتى يتكلمون. لسامي جوهر.
المكتب المصري الحديث. الطبعة الثانية ـ ١٩٧٧.
٥٥ ـ النشرة المصرية للمطبوعات. من عام ١٩٥٥ ـ ١٩٦١ رقم: ٦٧٧.
٥٦ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. لصلاح عبد الفتاح الخالدي.
دار الفرقان ـ عمان ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٣.
٥٧ ـ النقد الأدبي أصوله ومناهجه. لسيد قطب.
دار الشروق . بدون تاريخ.

الفهـــرس